دراسات تاريخية

ڤرنان بروديل

تعريب وإيجاز
مروان أبي سمرا

المتوسّط والعالم المتوسّطي

دار المنتخب العربي

المتوسّط
والعالم المتوسّطي

دراسات تاريخية

المتوسط والعالم المتوسطي

فرنان بروديل

تعريب وإيجاز

مروان أبي سمرا

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1413هـ - 1993م

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع أميل اده ـ بناية سلام
هاتف : 802428 -802407 -802296
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

مقدمة المترجم

هذا الكتاب هو تعريب موجز أو ميسّر لمؤلَّف « المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني » الذي أمضى شيخ المؤرخين الفرنسيين المحدثين الراحل فرناند بروديل أكثر من عقدين من عمره في البحث والتنقيب المتواصلين لإنجازه . وإن درجت تسمية هذا المؤلَّف الموسوعي الضخم (1200 صفحة في جزأين) والفريد في مجاله بـ « متوسط بروديل » فمرد ذلك إلى استحالة التمييز أو الفصل بينه وبين الشخصية التاريخية الفريدة للمتوسط والتي قام بروديل برسم سيرورات تشكلها وانبنائها وحدة متماسكة تتألف عناصرها من مشاهد طبيعية وحيوات مجتمعات وحضارات واقتصادات متنوعة ومتعددة . وذلك للكشف عن كيفية تشكل البحر المتوسط مركزاً للعالم القديم الذي ظل آلاف السنين يعيش على وقع وتاثر هذا البحر ونبضه ، وللكشف تالياً عن العوامل والظروف التي آلت إلى انقباض « العالم المتوسطي » وانسحابه ، شيئاً فشيئاً ، إلى هامش التاريخ الكبير ابتداءً من نهاية القرن السادس عشر .

« المتوسط والعالم المتوسطي » ، باكورة أعمال فرناند بروديل ، ليس مرجعاً أساساً لتاريخ العالم المتوسطي فحسب ، بل هو مرجع لعلم التأريخ في مجمله . فما أحدثه هذا المؤَلَف بُعَيْدَ صدور طبعته الأولى في سنة 1949 ، لم يكن أقل من ثورة علمية جدّدت مناهج التأريخ وموضوعاته ، إن لم نقل إنها قلبتها رأساً على عقب ، الأمر الذي جعل من « متوسط بروديل » دليل القطيعة بين التأريخ التقليدي بمنهجه السردي الحدثي وبين تأريخ جديد شامل ، وعَلَم هذه القطيعة أيضاً . ويتمظهر شمول هذا التأريخ الجديد في سعيه للإحاطة بوقائع الاجتماع البشري كلها وبتعدد الأزمنة التاريخية في الزمن الواحد ، خصوصاً في ذلك الزمن المديد الذي ينساب بوتيرةٍ شديدة البطء . وهو التأريخ الذي

يفتح أبواب كل مجتمع على وقائع وسيروراتٍ تاريخية تقاس أعمارها بالقرون .

و« المتوسط والعالم المتوسطي » هو كتاب العمر . فقد ظل مؤلِّفُه ، قبل صدور كل طبعةٍ من طبعاته (صدرت طبعته التاسعة في العام 1990) ، يضيف عليه وينقحه ، في الوقت الذي كان يواصل فيه العمل على إنجاز مؤلَّفِهِ الموسوعي الضخم الثاني « الحضارة المادية ، الاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر » . وهو المؤلَّفُ الذي استغرق إنجازه ربع قرن آخر من حياة بروديل وعمره ، بعد أن أصبح رائد « المدرسة التاريخية الجديدة » ومدير تحرير مجلة Annales (حوليات) الشهيرة ، في العام 1946 ، وأستاذاً منتخباً في « الكوليج دوفرانس » في العام 1949 ، ثم رئيساً للقسم الرابع في « مدرسة الدراسات العليا » في العام 1956 ، وهو القسم الذي حوّله إلى مدرسة مستقلة تعنى بالعلوم الاجتماعية . هذا قبل أن يؤسس في العام 1962 « بيت علوم الإنسان » ويديره ، وقبل أن يُنتخب في شتاء عمره عضواً في « الأكاديمية الفرنسية » تقديراً لأعماله . وفي 28 تشرين الثاني من العام 1985 توفي فرناند بروديل عن عمرٍ ناهز الـ 83 عاماً .

تُرجم « المتوسط والعالم المتوسطي » إلى لغاتٍ عدة : الإنكليزية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البولونية ، البرتغالية ، الألمانية ، اليونانية ، الرومانية ، والتركية . . . وحتى الآن لم يترجم إلى العربية . هذا مع العلم أن العالم العربي ـ الاسلامي واحد من وجوه المتوسط الأساسية التي يؤرخ لها بروديل ، حضارة ومجتمعاتٍ ومدناً وشبكات مواصلات وأقداراً أو مصائر . أضف إلى ذلك أننا ما نزال حتى الساعة نضرب خبط عشواء في أصداء ذلك الانقطاع الهائل والطويل الأمد : فانسحاب المتوسط إلى هامش التاريخ كان بداية لتراجعنا ، نحن وعالمنا ، إلى هامش التاريخ والعالم .

* * * * *

حين بدأ فرناند بروديل في العام 1923 بإعداد أطروحةٍ جامعية ، لم يكن يعلم أنه سيُمضي ما ينوف عن العشرين سنة في إعدادها . كان موضوع الأطروحة الذي نال موافقة أساتذته آنذاك : « سياسة ملك اسبانيا فيليب الثاني في النصف الثاني من القرن السادس عشر » ، فأدرجوه في خانة التأريخ الدبلوماسي الذي لم يكن يبالي بالوقائع الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ولا بالديانات والحضارات والآداب والفنون ، بحسب إشارة بروديل نفسه في مقدمته لـ « المتوسط » . فالقيام بدراسة سياسة فيليب الثاني وتفسيرها كانا ينصبّان على تحديد المسؤوليات والأدوار الرئيسية والثانوية للملك ومستشاريه في صياغة تلك السياسة وتقريرها ، تمهيداً لرسم لوحة عامة للسياسة

الاسبانية التي لم يكن المتوسط إلا وجهاً ثانوياً من وجوهها . لكن بروديل وجد نفسه شيئاً فشيئاً يتجه وجهةً أخرى في بحثه . فحين تنبه إلى أن الإمبراطورية الأسبانية المترامية الأرجاء قد اتجهت ، في الثمانينات من القرن السادس عشر ، دفعةً واحدة وبحركةٍ جارفة ، من المتوسط إلى الأطلسي ، اتجه إلى البحث عن الفيزياء العميقة للسياسة الأسبانية ، متسائلاً عما إذا لم تكن هذه الحركة تشي بوجود تاريخ عميق يتخطى حقل المسؤوليات الفردية ؛ أي عن تاريخ لا واعٍ لم يكن الملك الاسباني أكثر من صنيعته وأسيره . ثم لم يلبث هذا التساؤل أن قاده إلى تساؤل آخر : أليس للمتوسط تاريخه الخاص وحياته وقدره الفريدان ؟

في أثناء سيره قدماً للإجابة عن هذين السؤالين اكتشف بروديل أنه يسير في اتجاه قطيعةٍ مع المقاربة التاريخية التي كانت سائدة في النصف الأول من هذا القرن . فالانتقال من تتبع سياسة فيليب الثاني المتوسطية إلى البحث في الأصول الفيزيائية العميقة لتلك السياسة لم يكن مجرد استبدال موضوع بآخر ، بقدر ما كان يحمل على التحرر من قيود التأريخ التقليدي وعلى إرساء أسس جديدة للبحث التاريخي . هذا فضلاً عن أن ذلك الانتقال فتح أمام نظر المؤرخ أفقاً كان مغفلاً على نحوٍ تام قبله : لماذا لا تتصدى المعرفة التاريخية لدراسة حيز بحري ؟ هذا السؤال الأخير حمل بروديل على الشروع في تلمس « شخصية متوسطية » شديدة التركيب والتعقيد وتتداخل فيها حياة اليابسة بحياة البحر التي هي من القوة بحيث كانت تجذب اليابسة اليها وتتيح انتقال البشر وتبادل السلع وتداخل الحضارات وتمازجها ، على نحوٍ لا يمكن معه الفصل بين تاريخ البحر وتاريخ اليابسة التي تحتضنه . هكذا يمكن للمؤرخ أن يكشف عن الفيزياء العميقة للتاريخ الذي يرينا فينيقيا في شمال إفريقيا وإسبانيا وروما في لبنان واليونان في مصر والإسلام في كل من الأندلس والبلقان . . . الخ . فمتوسط التاريخ ، أي متوسط بردويل ، ليس متوسط الجغرافيين أو الجيولوجيين ، ولا يمكن استشراف حدوده المتحركة المتماوجة ولا السيرورات التي تعتمل فيه من دون إعادة رسم النسيج الفني والمعقد من العلائق التي تجمع الزمان إلى المكان إلى التاريخ ، أي من دون بناء فلسفةٍ جديدة للتاريخ .

كان التخلي عن افتراض القطيعة بين الماضي والحاضر القاعدة الأساس التي أرسى عليها بروديل فلسفته الجديدة . فالتأريخ التقليدي ، بافتراضه هذه القطيعة ، كان يصبو إلى « بعث الماضي وإحيائه » (ميشليه) . وما كان يستحوذ على اهتمام المؤرخ مما فات وانقضى هو ما يتغير ويتبدل ، أي الأحداث الفريدة أو المفارقة التي كان يتم إدراجها في سلسلة متعاقبة ومتتالية ، وفي مجرى زمني خيطي يسير قدماً في اتجاهٍ واحد ووحيد . والحقيقة أن ما كان هذا السرد الحدثي ينتزعه من لجة الماضي وظلامه هو الحياة

السياسية التي كانت تدور في أروقة الحكم ولم يكن الفعل فيها يتخطى الأفراد من حكام وزعماء وملوك . لذا كانت الكتابة التاريخية تضج بالأحداث الطنانة كالمعارك والحروب والبطولات والانتصارات والهزائم . . . أما زمن تاريخ كهذا فكان زمناً صحافياً بامتياز ، وفي حجم أفعال الأفراد وحجم وعيهم . ووراء هذا المنهج الذي يدّعي أنه يستعيد الأحداث كما جرت تكمن ، بحسب إشارة بروديل ، فلسفة تاريخية ترى أن حياة البشر تخضع لأقدارٍ مأساوية قوامها ظهور أفراد غير عاديين يسيطرون على أقدارهم ويرسمون مجرى التاريخ . هكذا يصير التأريخ « سيرة لهذه الأقدار الفريدة بتشابكاتها وصراعاتها » . وإذا كان مثل هذا التأريخ لا يستبعد دائماً من حقله البنى الاجتماعية والاقتصاد والحضارات ، فإنه غالباً ما كان يتناولها بصورة هامشية لرسم ديكور مسرح مركزه أو محوره الحدث بزمنه ولحظاته وأبطاله .

أسهم في حمل بروديل على السير قدماً في هذه الوجهة تشجيع المؤرخ لوسيان فيڤر ونصائحه . وقد كتب بروديل في الصفحة الأولى من « متوسطه » : « إلى لوسيان فيڤر الحاضر دائماً » . وكان فيڤر مع مارك بلوخ يسعيان جاهدين وبصعوبة وعلى عكس التيار السائد ، لتأسيس وجهة في التأريخ الاقتصادي والاجتماعي تعمل على إخراج المعرفة التاريخية عن كونها مرآة للأحداث السياسية فحسب . هذا وكان فيڤر يردد على مسامع بروديل ، منذ العام 1927 : « ليس فيليب الثاني هو المهم ، بل المتوسط » . أما الأمر الآخر الذي ساهم في حمل بروديل على الخروج على التأريخ التقليدي فهو إقامته في الجزائر ، حيث تسنت له رؤية المتوسط من « الضفة الأخرى » . هذا فضلاً عن قيامه بزيارة مدن شمال إفريقيا كلها . والحقيقة أن مؤرخ المتوسط لم يتباطأ عن القيام بزيارة مدينة متوسطية واحدة فتحت له خزائن أرشيفها . ومن المؤسف أن أرشيف الأمبراطورية العثمانية في اسطمبول لم يكن في متناول المؤرخين آنذاك ، لأن بروديل كان شديد الشغف بالبحث عن الوثائق والسجلات والحوليات وبالتنقيب فيها ، هو الذي لم يكف عن القول : « لقد أبحرت على متن سفن متوسط القرن السادس عشر كلها ، وتاجرت الى جانب تجاره في موانئه كلها » . ومن المرجح أنه لولا إلحاح لوسيان فيڤر عليه بالكف عن جمع الوثائق والتنقيب فيها للشروع في الكتابة ، لاستمر على ذلك سنوات طويلة ، هو الذي كتب في مقدمة متوسطه : « تبينت في النهاية أنه يلزم للقيام بإحصاء هذه المناجم الثمينة والتنقيب فيها (أي الوثائق والأرشيفات) عشرين عمرٍ مثل عمري أو عشرين باحثٍ مثلي يخصصون لها أعمارهم كلها » .

لقد استبدل بروديل التاريخ ـ الحدث بالتاريخ ـ المشكلة للإجابة عن كثير من الأسئلة : ما هو المتوسط ، ما هي سيرورة تشكله وحدة تاريخية ؟ ما هي حدود العالم

المتوسطي وحدود الحيز الجغرافي الذي تطاله شباك تاريخه وتحركه ؟ وتتبع هذه الأسئلة سلسلة أخرى : ماذا حلَّ بالمتوسط في القرن السادس عشر ، أي في بداية العصر الحديث ، وكيف ولماذا انتقل مركز العالم منه إلى الشمال ، وهل هي صحيحة تلك المسلمة التاريخية القائلة إن الإنحطاط أصاب المتوسط بصورة مفاجئة في أعقاب اكتشافات نهاية القرن الخامس عشر الكبرى ؟ وكانت إجابة بروديل على السؤال الأخير : لا ، ليس الأمر مؤكداً ، لأن انصراف العالم عن المتوسط وعن تجارته في اتجاه الشمال لم يتم إلا وفق سيرورة طويلة ، مركبة ومعقدة ، لا يمكن تفسيرها إلا بمقاربة عامة وشاملة .

* * * * * *

باستبعاده السرد التعاقبي للأحداث التاريخية ، وبتناوله مجمل وقائع الاجتماع البشري من جغرافية واقتصادية واجتماعية وسياسية وحضارية ، وباعتماده تداخل الوصف والتحليل والمقارنة أسلوباً في النظر والكتابة ، أخرج بروديل في « متوسطه » البحث التاريخي من القوقعة السياسية ـ الحدثيَّة . فكل شيء في نظره وتحت قلمه تاريخ : المناخ وتغيراته ، الملاحة والمرافىء ، الهضاب والسهول استصلاحاً وزراعة ، الجبال بهجرات البشر منها وبامتناعها على سيطرة الدول ، البداوة والانتجاع ، شبكات المواصلات البرية والبحرية ، المعادن الثمينة والنقد ، التجارة والنقل ، المدن والدول والإمبراطوريات بصعودها وانهيارها ، المجتمعات بنظم التراتب الاجتماعي وبظواهر الفقر والعصابات وقطاع الطرق فيها ، الحضارات ببناها السحيقة القدم وشبه الثابتة ، بحدودها الجغرافية والبشرية وبديمومتها وحركيتها ، باقتباساتها واشعاعاتها ، الحروب بأشكالها المتعددة ، من حروب الحضارات والدول إلى القرصنة والحروب الأهلية . . . هذا كله وغيره أيضاً يشكل عناصر التاريخ البروديلي الذي لا قوام له إلا باتخاذه وجهين متكاملين : فهو ، أي التاريخ ، يدرس الوقائع الاجتماعية كلها « بذاتها ولذاتها » ، من وجهٍ أول ، ويدرس من وجهٍ ثانٍ تشابك هذه الوقائع وتفاعلها وتمفصلها ، على نحوٍ يستبعد كل تفسير جزئي أو أحادي الجانب . وبحسب بروديل نفسه ليس هناك عامل محدِّدٌ وحيد : لا صراع الأعراق ولا صراع الحضارات ، لا الحياة الاقتصادية بتقلباتها ولا النمو الديمغرافي ، لا التقنيات وتطورها ولا البنى السياسية ، لا التفاوت الاجتماعي ولا الاكتشافات الكبرى . . . لذا لا يمكن الفصل بين التاريخ الاجتماعي والتاريخ السياسي والتاريخ الاقتصادي والتاريخ الثقافي ـ الحضاري . فالظواهر الإقتصادية ، على سبيل المثال ، لا تكتمل معانيها ودلالاتها إلا إذا أُدرجت ، بعد دراستها ، في إطار عامٍ وشامل . والاقتصاد هو في الآن نفسه سياسة واجتماع وثقافة ، والعكس

بالعكس . وإذا كان بروديل يميز بين المجالات والمستويات ويدرس كلاً منها « بذاتها ولذاتها » ، فيكشف عن عناصرها وعن علاقات بعضها بالبعض الآخر وعن تطورها وعن الفعل الخاص لكلٍ منها ، فإنه يعمل وبصورة دائمة على الإلمام بتمفصل هذه المجالات والمستويات وتداخلها وتفاعلها ، للوقوف على وحدتها الشاملة . ذلك لأن كل سلسلة أو مجموعة من الوقائع في أيٍ من المستويات أو المجالات اندرجت ، تستتبع سلسلةً أو مجموعةً أخرى من الوقائع تلابس الأولى أو تداخلها وتتقاطع معها . أما السيرورة التاريخية ـ الاجتماعية فكلٌ واحد لا تتجزأ ولا تنفصم عراها . وفي هذا المعنى ليس من تاريخ إلا وهو عام وشامل .

لكن ما سبق لا يعني أن التأريخ البروديلي يفترض بؤرة سببية واحدة تصدر عنها وتتموضع فيها وقائع الاجتماع البشري كافة ، ولا يعني أيضاً أن هذه الوقائع تخضع لوتيرة التحولات نفسها . فبروديل يقر بصورة دائمة بالتفاوت بين مستويات ذلك الاجتماع ويعمل جاهداً على إظهاره جلياً واضحاً . فهو على سبيل المثال ينتقد مؤرخي الأمبراطورية العثمانية الذين أدرجوا تراجع هذه الأخيرة الاقتصادي وانحطاطها السياسي في بؤرة سببية واحدة ، وزامنوا بين تراجعها الاقتصادي وانحطاطها السياسي . فالحضارات ، بحسب التأريخ البروديلي ، يمكن أن تزدهر وتشع في حقبات تراجعها الاقتصادي ، ويمكن أيضاً أن تخبو وينطفىء بريقها في حقبات ازدهارها الاقتصادي . ووقائع الاجتماع البشري ، من اقتصادية وسياسية وثقافية ، يمكن للواحدة منها أن تتقدم الأخرى في التأثير والفعل في مجتمع بعينه وفي حقبة تاريخية بعينها ، فيكون للعوامل السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية الدور الأهم أو الحاسم . لكن تقديم تأثير هذه الواقعة على تأثير تلك ، وإبراز دور هذا العامل بصفته حاسماً والتقليل من أهمية ذاك ، فأمران لا يعرفان الثبات ولا الاستمرار، بل هما خاضعان بصورة دائمة لعملية تراتب متحركة ومتغيرة ولا يمكن الكشف عنها إلا في إطار المقاربة العامة والشاملة . لكن بروديل بيٍّن ، بصورة جزئية في « متوسطه » وعلى نحوٍ واضح وشامل في تأريخه للرأسمالية ، أن الفرادة والحداثة الأوروبيتين قد تجلتا في واحد من أبرز وجوههما ابتداءً من القرن الخامس عشر بغلبة الاقتصادي وأولويته على السياسي والاجتماعي والثقافي . هذا في الوقت الذي كان فيه السياسي يسيطر على الاقتصادي ويكبح جماحه في الأمبراطورية العثمانية وفي غيرها من الامبراطوريات والدول الآسيوية . وهذا أمر غير قليل الشأن في سيرورة نمو الرأسمالية في أوروبا .

على هذا النحو يقوم التأريخ البروديلي على تمفصل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي ، ليكون دائماً على منتصف الطريق ، حيث تتقاطع علوم الإنسان

كلها . وإذا كان دوركهايم قد سعى لإنشاء علم اجتماع شامل وتنبأ بقدوم يوم تشرف فيه الحدود بين التأريخ وعلم الاجتماع على الإمحاء ، فلا شك في أن بروديل هو أول من جمع مختلف علوم الإنسان بمناهجها وأدواتها في مقاربةٍ واحدة وشاملة . فمع بروديل ، بحسب فرونسوا إيڤالد ، تخطى التأريخ نفسه ليصبح جغرافياً واجتماعاً واقتصاداً في آنٍ واحد وعلى قدم المساواة .

والتاريخ الشامل الذي وضعه بروديل للعالم المتوسطي ليس جمعاً لتواريخ البلاد والأقاليم المتوسطية المحلية من أوروبا إلى شمال افريقيا فالشرق الأوسط ، بل هو تاريخ تفاعل هذه البلاد والأقاليم وتداخل مستويات اجتماعها البشري وتكاملها . فليس هناك تاريخ منفصل أو مستقل لبلاد الامبراطورية العثمانية أو لإيطاليا أو لإسبانيا . . . فهذه التواريخ تبقى جزئية ولا يمكن تعقُّلها واستخراج دلالاتها كلها من دون تناول التاريخ العام للمتوسط . والعالم المتوسطي ، بحسب إشارة بروديل ، هو « حيز ـ حركة » يتنقل البشر بين أنحائه وجهاته ، فضلاً عن تنقل المواد والسلع والموض والأفكار والتقنيات والحروب والأوبئة . فشبكة المواصلات المتوسطية البرية والبحرية والنهرية ، وشبكة المدن المتوطية التي ظلت حتى القرن السابع عشر أغنى الشبكات المدينية وأهمها في العالم كله ، إن هاتين الشبكتين كانتا تحتلان موقع القلب من تاريخ المتوسط وحضارته ، منذ الفينيقيين واليونان والرومان حتى الاسلام وأوروبا . وهكذا شكل المتوسط في القرن السادس عشر ، بالرغم من انقساماته السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية ، ما يسميه بروديل « إقتصاد ـ عالم » ، أي حيز قائم بذاته ، نسجت الروابط التجارية وحركات التبادل بين مناطقه وأرجائه وحدة اقتصادية عضوية ، احتلت المدن الايطالية (البندقية ، جنوى ، ميلانو ، وفلورنسا) موضع القلب أو المركز منها . فالنشاطات التجارية كانت تخترق حدود الإمبراطوريتين العثمانية والاسبانية ، كما تخترق حدود الحضارات التي كانت تتقاسم العالم المتوسطي : الإسلامية المتمركزة حول اسطنبول ، اليونانية الرازحة تحت سيطرة الأتراك ، والمسيحية الكاثوليكية المتمركزة حول فلورنسا وروما . وإذا كان الإسلام والمسيحية يتنازعان السيطرة على المتوسط ويتحاربان على امتداد الخط البحري الذي يفصل حوض المتوسط الشرقي عن حوضه الغربي ، فإن البواخر والتجار والسلع لم تكف عن اختراقه وعبوره . هذا فيما كانت الحضارات والدول والمجتمعات تنزع بالعالم المتوسطي نحو التعدد والانقسام .

لكن هذه الوحدة الاقتصادية لم تكن وليدة القرن السادس عشر . ففينيقيا كانت المحاولة الأولى التي نجحت في تشكيل « اقتصاد ـ عالم » متوسطي ، ثم تبعتها في ذلك

قرطاجة في زمن مجدها . وهذا ما كانه كل من العالم اليوناني والروماني والإسلامي . أي أن تاريخ المتوسط هو تاريخ تشكل « اقتصاد ـ عالم » على حساب آخر أو على أنقاضه ، بما يستتبعه ذلك من تحولات تصيب شبكة المدن والطرق ومن انتقال موقع المركز من مدينةٍ إلى أخرى .

لا يعني ما سبق أن هذا التاريخ الشامل للمتوسط يعمل على تغييب الخصوصيات المحلية للبلاد المتوسطية ، أو على بناء نسق واحد متجانس لعلاقات تحكم المجتمعات المتوسطية كلها . فالمتوسط تعدد وتنوع واختلاف .. ولرسمٍ لوحة عامة لهذا العالم قام بروديل بدراسة العناصر والميزات والسيرورات الخاصة بكلٍ من المجتمعات والحضارات المتوسطية ، في الوقت الذي قام فيه بتحليل الروابط والعلائق التي تجمع المختلف والمتنوع في وحدة فريدة .

* * * * * *

لا ينفصل توسيع دائرة المعرفة التاريخية للإلمام بمجمل وقائع الاجتماع البشري ، عن مقاربة جديدة للزمن الاجتماعي أو لأزمنة التاريخ . فالزمن ، على ما ذهب مارك بلوخ ، هو « البلاسما التي تسبح فيها الظواهر ، وهو مجال عقلها وفهمها » . وما يقوم مقام الركن والأساس من عمل بروديل هو نظريته في تعدد الأزمنة التاريخية وتفكيكه الزمن الاجتماعي إلى طبقات ذات وتائر وسرعات مختلفة . فإذا كان فعل الزمن يطال الأشياء كلها : المكان والمناخ والبنى الذهنية والاقتصاد والحضارات . . . فإن فعله لا يتم بالسرعة والوتيرة نفسهيا . لذا لا يمكن إدراج ظواهر الحياة والاجتماع البشريين ووقائعهما في إطارٍ واحد ، لأن هذه الوقائع وتلك الظواهر تكني عن حركات وسيرورات بأعمار وسرعات واتجاهات مختلفة ، وتستلزم دراستها الاستعانة بمقاييس زمنية متعددة ، والإحاطة بفترات وحقبات متفاوتة . فالأيام والسنوات التي نقيس بها أعمار الأفراد وزمنهم المعاش ليست إلا لحظات عابرة من أعمار المجتمعات ومن بناها العميقة . ليس هنالك ، إذن ، زمن اجتماعي بانسياب بسيط واحد ، بل زمن اجتماعي بألف سرعة وبألف بطء . وإذا كان التأريخ التقليدي يلهث وراء الأحداث وحدها ، فلأن زمنه هو زمن الأفراد وزمن حياتهم القصيرة . وهذا زمن لا يمكن أن تندرج فيه الوقائع العميقة التي تحكم حياة البشر ، مثل النظم الاجتماعية التي تسجنهم ، والقواعد الأخلاقية الواعية منها واللاواعية التي تُخضِعهم لقيمها ، والمعتقدات الدينية والفلسفية التي يعتنقونها ، والحضارات التي ينتمون إليها . أما الأحداث المتسارعة التي تحظى باهتمام البشر وانفعالاتهم أفراداً وجماعات فتشكل نسيج أحلامهم وأوهامهم ، فليست إلا

هيجاناً سطحياً سرعان ما يعود إلى لجة الصمت والنسيان . هذا فيما التحولات العميقة للمجتمعات تبقى خارج وعي الأفراد والجماعات ، لأنها تحدث بوتائر متثاقلة وأزمنتها بطيئة الجريان . فزمن الحضارات وتنفسها مثلاً شديد البطء ، بحيث يمكن أن تتغير مضامينها الاجتماعية من دون أن يطال تقادم الزمن الخصائص البنيوية والأسس الجغرافية التي تميزها .

بخلاف المنهج الخطي الأفقي للتأريخ التقليدي وزمنه الرتيب ، ينبني التأريخ البروديلي على مقاربة عامودية . فالواقع الاجتماعي ، كما الثقافي والسياسي والاقتصادي ، يمتاز بكثافته وعمقه وبتشكله من طبقات متراكم بعضها فوق البعض الآخر ، تتناقض وتتفاعل مثل طبقاتٍ جيولوجية . وما يجري على السطح ، على ما ذهب سارتر ، يتجه إلى الأسفل من دون أن يحالفه دائماً حظّ الوصول الى الأعماق ، وما يجري في الأعماق لا يصعد دائماً إلى السطح . هكذا تتعدد المقاييس الزمنية تعدد الطبقات التاريخية المتراكمة والمتدرجة . وحين يتخطى بروديل الحدث وبرهته القصيرة تبرز تواريخ أخرى صامتة ولا واعية لتحولات تستغرق أزمنة طويلة ومتفاوتة . وتبرز أيضاً تواريخ لظواهر وبنىً طويلة الأمد ، تتكرر وتستمر ، فتبدو ثابتةً أو أقرب إلى الثبات في عشرات ، بل مئات ، من الأجيال . وخلاصة الأمر أن الزمن هو في آنٍ أداة التحليل وأحد أهدافه ، فهو من وجهٍ أول المقياس الذي يستخدمه المؤرخ لمقاربة الظواهر والتحولات ، وهو من وجهٍ ثانٍ أفق البحث ونتيجته .

يميز بروديل في « متوسطه » بين طبقات تاريخية ثلاث تلازمها أزمنة أو وتائر زمنية ثلاث . لذا يقيم عمله التحليلي على مستويات ثلاثة :

ـ المستوى الأول هو مستوى الأحداث ، أو ما يجري على السطح ، وزمنه هو الزمن الفردي السريع الوتيرة . إنه المستوى الخاص بالتأريخ التقليدي الذي ينتقل المؤرخ بين أحداثه على نحو ما ينتقل الصحافي من حدثٍ إلى آخر ، فيظهر التأريخ إذ ذاك صاخباً بالتغير والألوان ، من دون أن تظهر معانيه إلا إذا تبعه تناول المستويات الأخرى العميقة التي يجري الحدث في إطارها .

ـ المستوى الثاني هو مستوى الظروف والتقلبات التي تطال حياة المجتمعات من دون أن يصل فعلها بصورة دائمة إلى بُنى هذه المجتمعات العميقة . ووحدات القياس الزمني في هذا المستوى لا تتجاوز بضع عشرات من السنين للكشف عن مراحل أو حقبات قصيرة . أما الكشف عن هذا المستوى ومقاربته فيقومان على فرضية نظرية أثبتتها المراقبة وأكدها البحث . فالحياة البشرية ، بحسب هذه الفرضية ، لا تجري ، في مجمل وجوهها ، على نحوٍ مطرد أو منتظم ، بل بوتيرة متموجة أو إيقاعيةٍ متقلبة

ومتفاوتة حركاتِ الصعود والهبوط . تتجلى هذه الحركات بأوضح صورها في مجال الحياة الإقتصادية : فالحياة المادية تنمو وتتراجع وفقاً لدورات مختلفة في مدتها ومعناها . فإلى التغيرات الموسمية هنالك دورات قصيرة متعددة تستمر بين خمس سنوات وعشرين سنة . وهنالك أيضاً دورة طويلة تستمر نصف قرن (دورة كوندراتييف ـ Condratieff) . غير أن هذه الدورات ليست متعاقبة بل متزامنة ، فضلاً عن أن تأثير بعضها وفعله يختلطان بتأثير وفعل بعضها الآخر ويلابسانه . لذا تظهر تواريخ ظرفية لكلٍ من الأسعار والأجور والمداخيل والأنتاج ، للعملات والمعادن الثمينة وتجارة المشرق . . . الخ .

يتيح هذا التأريخ الظرفي الكشف عن الحيز الذي تطاوله التأثيرات نفسها والوتائر الاقتصادية نفسها ، مشكلة (التأثيرات والوتائر) دليلاً وشاهداً على تماسك ما يسميه بروديل « إقتصاد ـ عالم » . هذا وتسمح المراقبة والمقارنة بملاحظة انتقال التأثيرات والوتائر ـ كارتفاع الأسعار مثلاً ـ من مكان إلى آخر ، فتبرز الفوارق بين المراكز الاقتصادية والمناطق البعيدة التي تستتبعها وتضمها إليها . فالتضخم الأوروبي في القرن السادس عشر ، على سبيل المثال ، انتقل شيئاً فشيئاً إلى بلاد الدولة العثمانية ووصلت أصداؤه ، بعد حوالي عشرين سنة ، إلى الهند . أما تكرار هذه الدورات وتشابهها على مدى حقبات زمنية طويلة ، فيشير إلى استمرارية عناصر من البنى الاقتصادية العميقة طيلة هذه الحقبة الزمنية الطويلة أو تلك .

لكن دراسة الظروف لا تقتصر على المجال الاقتصادي ، بل تشمل مجالات الاجتماع البشري كلها : الحركات الاجتماعية وصراعاتها ، الحياة السياسية وصعود الدول وتراجعها ، تطور التقنيات والاكتشافات العلمية ، الحركات الثقافية وإشعاعات الحضارات وتلاقحها ، الحركات السكانية والتحولات الديمغرافية ، الحروب وتعاقبها من خارجية إلى داخلية ، ومن حروب العصابات إلى حروب القرصنة . فلكل مجال من هذه المجالات وتائره الظرفية الخاصة به وتحقيبه الزمني الخاص . لكن ما يدهش في تأريخ بروديلٍ هو تلك الشبكة الغنية من العلاقات التي ينسجها بين مختلف الظروف . فهو يبين مثلاً كيف ولماذا تجري الحروب الخارجية في فترات التراجع الاقتصادي ويحلل الروابط التي تجمع النمو الديمغرافي إلى النمو الاقتصادي .

غير أن ما هو أطول زمناً من هذه الظروف ودوراتها ، هو ما يسميه بروديل بـ « الاتجاه القرني » الذي يستمر قرناً أو قرنين من الزمن . فدورات « الاتجاه القرني » للحياة الاقتصادية مثلاً ، ترسم خطاً بيانياً طفيف الانحناء شديد البطء لنمو اقتصادي يعقبه تراجع وانكفاء . هذا التراجع غالباً ما يكون نذير أزمةٍ بنيوية كبرى يرافقها تمركز

جديد لـ « الاقتصاد ـ العالم » على أنقاض آخر شاخ وبدأ بالتفكك والانهيار . وتشكل دراسة « الاتجاه القرني » مقدمة للتاريخ الطويل الأمد ومفتاحاً لفهمه .

ـ المستوى الثالث من التاريخ البروديلي يتناول الطبقة التحتية من التاريخ ، أي الوقائع التي تستمر حِقَباً طويلة الأمد . وفي هذا المستوى يوسّع التأريخ حقله وقياسه حتى أقصى الحدود ، فيُظهر حركاتٍ وتراكمات استمرت قروناً ويُبرز الأسس الصلبة التي يبنى عليها التاريخ في جملته ويقومه . وهذا التاريخ هو ما يسميه بروديل بـ « تاريخ الحقبات الطويلة الأمد » أو « تاريخ البنى » . لكن مفهوم البنية البروديلي ليس ذلك الذي استخدمه ويستخدمه الباحثون الذين أُطلقت عليهم صفة البنيويين . فالبنية في مفهوم بروديل أكثر من تركيب وأكثر من هندسة ، إنها ، بحسب عبارته ، « واقع يصعب على تقادم الزمن إتلافه أو استهلاكه ، واقع يحمله الزمن وينقله معه على حقبات طويلة الأمد . وبعض البنى ، في استمرارها زمناً طويلاً ، تصبح عناصر ثابتة لعدد لا نهائي من الأجيال ، فتربك التاريخ وتحكم انسيابه ، في حين أن بعضها الآخر أكثر عرضة للتفكك والتفتت . لكن البنى تبرز في جملتها كأسسٍ وكمعطياتٍ شديدة الصلابة ، الأمر الذي يجعلها تقف كحدودٍ (أو كغلافٍ بالمعنى الرياضي للعبارة) لا يقوى الانسان ولا تقوى تجاربه على الانعتاق منها والخروج عليها » .

من هذه البنى نظم التراتب الاجتماعي ، الأنساق الاقتصادية ، الأطر الأخلاقية والذهنية ، العناصر العميقة للحضارات . . . غير أن أشد الأمثلة وضوحاً على هذه الوقائع البنيوية هو ما ترسمه الجغرافيا وتقيمه من حدود للنشاط البشري . فالأطر الجغرافية هي أشد البنى صلابة وأقواها على الاستمرار والديمومة وأبطؤها تحولاً . إنها ما يسميه بروديل بـ « السجون الطويلة الأمد » لأنها تقيم لأزمنةٍ لا متناهية حدوداً صارمة بين الممكن والمستحيل . فالإنسان ظل على مدى قرونٍ وقرون أسير المناخ وأسير أنماط محددة من الزراعة ، أي أسير توازن تمّ بناءه ببطءٍ شديد بين البشر والوسط الذي يعيشون فيه . لكن الأطر الجغرافية ، على الرغم من تميزها بثباتها وباستمراريتها قبل أي شيء آخر ، فهي ، من وجهٍ آخر ، ليست واقعاً أبدي الثبات أو غير زمني . إنها تعاقب حركات متكررة تلابسها تغيرات واستعارات وتراكمات كمية بطيئة تؤدي في بعض الأحيان الى انقطاعات كبرى . إنها (أي الأطرْ الجغرافية) تختزن مجمل التجارب التي عاشها البشر ، وبالتالي لا تمكن مقاربتها إلا بعلاقتها بالزمن الشديد البطء وبعلاقتها بالانسان نفسه . هنا تكمن فرادة بروديل ويظهر جلياً تميزه عن الجغرافيين الذين غالباً ما يتناولون المكان بذاته ولذاته ، أي كواقع ميت . هكذا تكشف جغرافيا المتوسط التاريخية عن أعمق الطبقات التي تشكل الأساس الذي قام عليه التأريخ البروديلي أو نواته .

وهي النواة التي شكل الكشف عنها العنصر الأساس في فهم العالم المتوسطي ، على ما ذهب بروديل نفسه : « لقد بقيت سنواتٍ وسنواتٍ حائراً متردداً أمام المتـوسط ، ولم أفهمه على نحوٍ جلي إلا بعد مضي 18 سنة على بدئي في العمل . وذلك حين انتبهت إلى أن الجغرافيا هي الوسيلة المثلى لحمل التأريخ على الجريان ببطءٍ شديد ، والوسيلة المثلى للوصـول الى المستوى الصفـر . حينذاك فحسب فهمت أهميـة المتـوسط كمـوضـوع للتأريخ ، ففهمت نفسي بفضله » .

يشكل المناخ عنصراً هاماً في جغرافيا المتوسط واجتماعه البشريين . فإلى إقـامته التشابه بين المشاهد الطبيعيـة وما يشبـه الوحـدة في النباتـات والمزروعـات وفي أنماط العيش ، فإن المناخ المتوسطي ، في ما يستتبعه من جفاف ، طبع حياة المتوسط بالفقر وجعل اقتصاده اقتصاد تقشف . الأمر الذي حمل العالم المتوسطي على الوقوف بصورة دائمة على حافة المجاعة ، كما حمله أيضاً على العيش في حال صراع دائم ضد فقره ، متوسلاً السيطرة على بلاد خارج حدوده ، توسع حقل تاريخه وتسـاهم في اقتصاده . وهـذا ما جعله ، بصـورة دائمة ، مصنعـاً للإمـبرياليـات . ولفهم تـاريـخ القـطب الصحراوي من المتوسط ، تتبع بروديل تاريخ المسيرة الشديدة البطء التي استنزفت جهد البشر مئات من السنين في سبيل إقامة شبكة من الواحات وآبار الماء بغية السيطرة على الصحراء و« أنسنتها » ، الأمـر الذي أتـاح للإسـلام أن ينتصر بقوافله . وعمليـات استصلاح السهول المتوسطية التي كانت مرتعاً للمستنقعـات وللمياه الـراكدة ولتفشي الملاريا ، والتي استنزفت جهد البشر منذ فجر التاريخ وحتى القرن الماضي ، هي بدورها من السيرورات البطيئة وحركات التراكم الكمي في تاريخ المتـوسط الطويـل الأمد . ويستنتج بروديل أن عمليات الاستصلاح هذه كانت بصورة دائمة في أصل نشوء أنظمة اجتماعية صارمة أو استبدادية . هذا فضلاً عن أن كل انتصار زراعي كان يؤذن ببروز قوة اقتصادية وسياسية متوسطية ، فيما كان كل توقف عن بذل الجهد في هذا المجال يؤدي الى عودة المستنقعات والأمـراض إلى السهول ، ويستتبـع تراجعـات وانهيارات اقتصادية وسياسية .

ومن البنى العميقة والشديدة الثبات في تاريخ المتوسط هنالك شبكات الـطرق البحرية والبرية والنهرية وانغراس المدن في مواقع جغرافية محددة . والتحولات الكبرى التي عرفها العالم المتوسطي كانت تجمعها روابط قوية بالتغيرات التي شهدتها هذه الشبكة من المدن والطرق . فالملاحـة المستقيمة التي أنجـزها الفينيقيـون في حوض المتـوسط الشرقي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أدت إلى خراب البلاد اليونانية . وانحطاط روما لا ينفصل عن عدم سيطرتها على طرق تجارة المشرق التي شكل ازدهارهـا ثروة

الإسلام وقاعدة امتداده وسيطرته . والاكتشافات الكبرى التي ربطت المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي مروراً برأس الرجاء الصالح أدت ، على المدى الطويل ، إلى إفقار المتوسط .

* * * * *

لا شك في أن فرادة فرناند بروديل تقوم على كشفه عن البنى التحتية للتاريخ البشري . لكن كشفه هذا لا يعني أنه مؤرخ لما فات وانقضى ، بقدر ما هو مؤرخ لحياتنا الحاضرة ، بما فيها من وقائع خرساء تصل الينا من أزمنةٍ سحيقة القدم وتعيش معنا بوتيرةٍ على حدود الصمت والثبات . لكن بقدر ما يستتبع استنطاق هذه الوقائع الخرساء والكشف عنها في حاضرنا فهماً جديداً للاجتماع البشري ويحملاننا (الاستنطاق والفهم) على التفكير بطريقة غير معتادة ، فإن ذلك ، بحسب إشارة بروديل نفسه ، يفضي بنا إلى مزالق خطرة ، إذا لم نقم بدراسة تلك الوقائع أو البنى التحتية في علاقتها بمختلف الأزمنة التاريخية . فالاقتصار على دراسة هذه البنى أو الوقائع على نحوٍ مجرد ومن دون إدراجها في تيار الزمن يوقعنا في تعميماتٍ سهلة أقرب إلى التأملات الفلسفية منها إلى التأريخ . لذا يحذر بروديل من تأملات شبنغلر ومن دراسات أرنولد توينبي الذي يتنقل بين حقبات تاريخية مديدة ليعطي الأولوية للتاريخ الديني ويهمل النظر في الاقتصاد والدول والبنى الاجتماعية وظروفها . فالتأريخ بحسب فهم بروديل وممارسته له يقوم على جدلية الأزمنة المختلفة في وتائرها وانسيابها ، للكشف عن أوجه الصراع الدائم الذي يقوم بينها . وإذا كان جوهر الاجتماعي هو ما يستمر ويدوم ، فليس هنالك من وجودٍ لبُنىً تعيش في ثباتٍ مطلق ، لأن هذه البنى لا تبدو ثابتةً إلا بالمقارنة مع ما يقوم فوقها ، أي بالمقارنة مع ما يتغير ويتحول على نحو سريع . أما الحوار والنزاع والتداخل بين ما يستمر ويتغير ، أي بين البنى والظروف ، فيؤدي على المدى الطويل إلى حصول انكسارات وانقطاعات بنيوية عميقة تؤدي بدورها الى تحولٍ يشمل الهيكلٍ الاجتماعي برمته ، وإلى انعطافٍ كبير في التاريخ البشري . فالاجتماع البشري ، ماضياً وحاضراً ، لا يكرر نفسه ، بل يقوم على مساومة وتوازن فريدين بين ما يستمر وما يتغير ، بين الحركة والثبات . وإذا كان عمل بروديل ينصب على تجزئة الزمن التاريخي إلى أزمنةٍ متفاوتة في سرعتها وفي بطئها ليكشف عن صور متنوعة للاجتماعي بمختلف وجوهه وطبقاته ، فإنه يعمل تالياً على « إعادة هذه الصور والأزمنة الى وحدتها ، على نحو ما تُردُّ ألوان الطيف الشمسي ، إذا اختلطت جيداً ، إلى اللون الأبيض » .

قسَّم بروديل مؤلفه « المتوسط والعالم المتوسطي . . . » الى أقسامٍ ثلاثة هدف كلٍ منها القيام بمحاولة تفسير شاملة .

ـ يتناول القسم الأول تاريخ الإنسان في علاقته بالوسط المحيط به . وهذا تاريخ أقرب إلى الثبات منه إلى الحركة ، وشديد البطء في انسيابه وتحولاته .

ـ يتناول القسم الثاني ذلك الحوار القائم بين البنى والظروف من طريق دراسة كلٍّ من الاقتصادات والدول والمجتمعات والحضارات . وهذا أيضاً تاريخ بطيء الوتيرة ، لكنه أقرب إلى الحركة منه إلى الثبات .

ـ يتناول القسم الثالث والأخير الأحداث بوصفها لحظات هي عبارة عما يعتمل في قلب التيارات العميقة الصامتة . لذا لا يمكن فهم هذه الأحداث بمفردها ، لأنها ليست إلا هيجاناً سطحياً بذبذباتٍ سريعة وعصبية . إنه إذن تاريخ تقليـدي لا يقوم عـلى مستوى الإنسان ، بل على مستوى الأفراد .

في هذا الكتاب لم نتناول بالتعريب والاختصار والعرض القسم الثالث والأخير من « المتوسط والعالم المتوسطي . . . » ، أي القسم الذي أشار بروديل إلى أنه تردد قبل أن يعيد نشره في الطبعة الثانية من مؤلفه . لكنّ حذفنا لهذا القسم لا يعني أبداً أن التأريخ الحدثي الذي قام به بروديل ليس بذي أهمية ، بقدر ما يعني أننا توخينا من تعريب هذا المؤلف على نحو مختصر تقديم ما بدا لنا أكثر فرادة وتجديداً . هل أصبنا في ذلك ؟ وهل استطعنا أن نقتفي أثر بروديل في إعادته خلق الحضور الواسع للمتوسط وأضوائه المشعة في أرجاء الكوكب ؟

حسبنا أن يكون هذا العمل حافزاً على قراءة مؤلف بروديل الأصلي « المتوسط والعالم المتوسطي . . . . » والقيام بتعريبه كـاملاً . وفي انتـظار تحقيق هذه الأمنيـة نحاول في هذا الكتاب الصغير استعادة أصداء ذلك النشيد الملحمي الذي ظل بروديل عشرين سنةً ينشده على شرف البحر ليضع مؤلفاً سمفونياً تلعب في صفحـاته ريـاح التاريخ وأقداره المديدة الشاملة .

مروان أبي سمرا
ليون ، حزيران ، 1991

مقدمة المؤلف

يحاول هذا المؤلَّف أن يعيد خلق الحضور الكبير لمتوسط الأمس الذي كان أكثر اتساعاً مما هو عليه اليوم . فهذا البحر الداخلي ، ذو الشخصية المعقدة والمركبة والفريدة ، ليس بحراً واحداً ، بل مجموعة مركبة من البحار التي تعترضها الجزر وتقطعها أشباه الجزر وتحيط بها السواحل المتشعبة . لقد امتزجت حياة هذا البحر باليابسة ، فكانت بيئاته نصف ريفيه ، وكان بحارته يعملون أيضاً فلاحين . إنه بحر الزيتون وكروم العنب ، بقدر ما هو بحر المراكب والسفن والتجارة ، ومن المستحيل فصل تاريخه عن تاريخ اليابسة التي تحتضنه . ولأن متوسط التاريخ ليس متوسط الجيولوجيين ، لا نستطيع ، من دون بذل جهدٍ كبير ، التعرف على ماهية الشخصية التاريخية للمتوسط .

وللقيام بكتابة تاريخ للبحر في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، كان علينا أولاً رسم حدوده التي تستتبع التحليل وإعادة البناء واختيار فلسفة للتاريخ . وللبدء بذلك تجمعت لدينا كمية هائلة من الكتب والمقالات في شتى المجالات العلمية التي تنهال على الباحث كمطر من رماد ، لأنها لا تهتم بالبحر الشاسع ، بل بنقاط صغيرة منه . وبدل تتبعها لحياته الشاملة المتقلبة ، تتتبَّعُ مواقف الأمراء والأغنياء . وكان أمامنا أيضاً الأرشيف الغني الموزع في مدن المتوسط ودوله كلها التي زرتها باحثاً على مدار عشرين سنة . لكنني في النهاية تبينت أنه يلزم للقيام بإحصاء هذه المناجم الثمينة والتنقيب فيها وتصنيف محتوياتها ، عشرون عمرٍ مثل عمري أو عشرون باحثٍ مثلي يخصصون لها أعمارهم كلها . فهل من الضروري ، إذن ، القول إنني لم أستطع الاطلاع على جميع الوثائق التي كانت في متناول يديَّ وجهدي ؟ !

من ناحية أخرى لم تكن الحقبة التاريخية التي اخترت دراستها ـ المتوسط في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، أي المتوسط بين أواخر عهدي النهضة والإصلاح وبين التراجع القاسي والمرير للقرن السابع عشر ـ ، لم تكن هذه الحقبة خالية من الصعوبات والمزالق . هذا فضلاً عن أن دراسة حيزٍ بحري لا تخلو من مخاطر الجدة والسبق . لكن ليس غير مجدٍ التعرف على ما حلَّ بالبحر الداخلي في بداية العصر الحديث ، أي في اللحظة التي توقف فيها العالم عن التمركز حوله ، وعن العيش على إيقاع وتيرته . ليس هذا من دون طائل ، طالما كل شيء يبرهن ـ على عكس ما تذهب الأحاديث ـ أن الانحطاط المباشر الذي أعقب اكتشافات القرن الخامس عشر ، ليس مؤكداً . أما خارج هذه المأساة المتوسطية ، فإن جميع المسائل التي يطرحها البحر الداخلي تمتلك غنىً إنسانياً استثنائياً وفريداً ، وما تزال أضواؤها تشع حتى عصرنا الحاضر .

* * * * * *

عقدت العزم على القيام بالبحث في العام 1923 ، كمشروع تقليدي هدفه وضع أطروحة جامعية تتناول سياسة الملك الإسباني فيليب الثاني المتوسطية . نال الموضوع إعجاب أساتذتي فأدرجوه في إطار التاريخ الدبلوماسي الذي من شيمه عدم مبالاته بالجغرافيا ، بالاقتصاد وبالمشكلات الاجتماعية ، واحتقاره وقائع الأديان والحضارات والآداب والفنون ، أي الشواهد الكبرى لكل تاريخ حقيقي . فدراسة سياسية فيليب الثاني وتفسيرها ـ بحسب التاريخ الدبلوماسي ـ لم تكن تعني أكثر من تحديد المسؤوليات في صياغة السياسة التي اتبعها الملك ومستشاروه ، فضلاً عن تحديد الأدوار الرئيسية والثانوية لتلك السياسة ورسم خارطة عامة لسياسة إسبانيا العالمية ، من دون أن يحظى المتوسط إلا بحيز جزئي من اهتماماتها .

لكن الاهتمام بالحركة العميقة التي اتجهت بالقوة الإسبانية ، دفعة واحدة ، نحو المحيط الأطلسي في الثمانينات من القرن السادس عشر ، كان يعني ، في الدرجة الأولى ، الخروج من دائرة التاريخ التقليدي . ذلك لأن اتجاه القوة الاسبانية نحو الأطلسي قلب الامبراطورية الواسعة والمهددة نحو قدرها المحيطي ، الأمر الذي حتَّم الاهتمام بفيزياء السياسة الإسبانية والتساؤل عما إذا لم يكن للمتوسط تاريخه الخاص وقدره الخاص وحياته القوية . وفي الحقيقة كان ذلك الاهتمام وهذا التساؤل في أصل الخروج من دائرة التاريخ التقليدي والوقوع في التجربة ، أي في هذا الموضوع الهائل : تاريخ المتوسط في القرن السادس عشر .

* * * * * *

يعالج هذا المؤلف مسألة أساسية في تاريخ المتوسط : كيف نستطيع تناول تاريخ يتحول على نحوٍ سريع ويتجلى صاخباً بفعل هذه التحولات ومشاهدها ، في الوقت نفسه الذي نتناول فيه تاريخاً آخر بطيئاً ومكتوماً وأقرب إلى الصمت والثبات في وجه استنزاف الزمن العنيد الذي يهدد الأشياء بالتلف ؟

ينقسم هذا المؤَلَّف إلى أقسام ثلاثة ، في كل منها محاولة تفسير شاملة .

يعالج القسم الأول تاريخاً أقرب الى الثبات منه إلى الحركة ، أي تاريخ الإنسان وعلاقاته بالوسط الذي يحيط به . إنه تاريخ شديد البطء في إنسانيته وفي تحولاته ، ويتشكل من دوراتٍ مستعادة . ولأنه على هذه الصورة يكاد أن يكون خارج الزمن في ملامسته للأشياء الميتة وفي حواره معها على نحوٍ لا يتوقف عن التكرار . إنه يتكرر كي يستمر ، فلا يصيب التغير إلا سطحه الخارجي ، فيما يبقى هو (أي التاريخ) عنيداً لا يطاوله نهش الزمن .

فوق هذا التاريخ الأقرب إلى الثبات تاريخ آخر ، هو أيضاً بطيء الوتيرة . إنه تاريخ اجتماعي للمجموعات والتكتلات البشرية . وفي هذا القسم (الثاني) من المؤَلَف نبيّن كيف تثير الأمواج العميقة مجمل الحياة المتوسطية وترفقها . وذلك ما تبينه دراسة كلٍ من الاقتصادات والدول والمجتمعات والحضارات وتجلوه ، لإظهار كيف تعمل قوى العمق في مجال الحرب المعقد وتؤثر فيه ، فالحرب ليست على الإطلاق مجال المسؤوليات الفردية .

القسم الثالث والأخير هو تاريخ تقليدي على مستوى الفرد ، وليس على مستوى الإنسان . إنه تاريخ حدثي وقائعي ، بل هيجان سطحي بذبذباتٍ قصيرة وسريعة وعصبية ، لكنه التاريخ الأكثر إثارة وغنىً في إنسانيته ، مع العلم أنه الأكثر خطراً والأشد تعرضاً للمزالق . فلنحذر ، إذن ، من هذا التاريخ الملتهب الذي يقدم نفسه لنا على نحو ما كان يحسه معاصروه ويعيشونه ويصنعونه ، أي على قياس غضبهم وأحلامهم وأوهامهم . هذا فضلاً عن أن عالم القرن السادس عشر ، مثل كل عالمٍ حي وكعالمنا الحاضر ، لم يكن يهتم بالتواريخ العميقة . أما ما يتيح لنا تلافي خطورة هذا التاريخ ، فهو تحديدنا المسبق للتيارات الصامتة الراسبة في أغواره العميقة ، وهي التيارات التي لا تُرى ولا يتضح معناها إلا حين نقارب حقبات زمنية واسعة ونقارن بينها . فالأحداث ليست في وجهها الغالب إلا لحظات من الأقدار الكبرى وعباراتٍ عنها ، لحظاتٍ وعبارات لا يمكن فهمها بمعزل عن تلك الأقدار الشاملة .

* * * * *

على هذا النحو وصلنا إلى تفكيك التاريخ إلى مستوياتٍ متدرجة ، أو إلى التمييز بين زمن فردي وزمن اجتماعي وزمن جغرافي ، بين الأحداث والظروف والبنى . على السطح من هذه المستويات يطالعنا تاريخ حدثي أو ميكرو ـ تاريخ داخل دائرة زمن قصير لا يتخطى أعمار الأفراد ووعيهم وأوهامهم ، وهو بهذا المعنى زمن صحافي إخباري بامتياز . أما في الوسط فيطالعنا تاريخ ظروف ذات حدودٍ زمنية أوسع ووتيرة أبطأ ، أي تاريخ « سردي » يبحث عن « دورات » اقتصادية واجتماعية متفاوتة السرعة . وأخيراً ، في الأسفل ، يطالعنا « تاريخ الحقبات الطويلة » أو التاريخ البنيوي . لكن مفهوم البنية هنا مختلف عن مفهوم البنية الذي يستخدمه علماء الاجتماع . فالبنية كما يستخدمها المؤرخ أكثر من تركيب ومن هندسة ، إنها واقع يصعب على الزمن استهلاكه وإتلافه ، فتبقى تلابس الواقعِ على حقبات طويلة . وبعض البنى ، بفعل استمرارها أزمنة طويلة ، تصبح ثابتةً على مدى عددٍ لا نهائي من الأجيال ، فتربك التاريخ وتحكم إنسيابه . هذا في حين أن بعضها الآخر (البنى) يكون أكثر تعرضاً للتفتت . لكنّ البنى ، على وجه الإجمال ، تبرز دائماً كحدود (أو كغلاف في المعنى الرياضي) لا يستطيع الإنسان الانعتاق منها . لذا لا وجود لزمن اجتماعي ذي انسياب بسيط وعلى وتيرة واحدة ، بل لزمنٍ اجتماعي بألفِ سرعةٍ وألف بطءٍ . فلنتأمل مثلاً في مكان الانتجاع من الحياة البدوية ، وفي الأدوات الذهنية ـ كفكرتي الجهاد الإسلامية ، والصليبية المسيحية ، أو في الحضارات التي تبقى ثابتة لناحية خصائصها البنيوية وإطاراتها الجغرافية . وهنالك أيضاً ما هو أبطأ من تاريخ الحضارات : تاريخ الإنسان بعلاقته المشدودة الى الأرض التي تؤويه وتغذيه . هذا والتاريخ في جملته ، بأزمنته ومستوياته ، يقوم فهمه انطلاقاً من هذه « البنية التحتية » ، أي من هذا العمق الذي يقارب الثبات .

القسم الأول

حصة المتوسط

يهتم هذا القسم بمعطيات الجغرافيا البشرية ، ليس انطلاقاً من معلومات عن النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بل من صور ومشاهد وحقائق تعود إلى عصورٍ سابقة ولاحقة . إن ما يهمنا من الزمان والمكان هو إبراز تاريخ « على البطيء » يكشف عن قيم ثابتة . لذا لا تعود الجغرافيا هدفاً في ذاتها ، بل تصير وسيلة تساعد في اكتشاف أبطأ الحقائق البنيوية ، وفي تنظيم الرؤيا ، بحسب خطوط المدى الأكثر طولاً .

المتوسط مزدوج أو متوسطان ، على الأقل . فهو يتألف من سلسلة من أشباه الجزر المتماسكة ، ومن بحر يولج مساحاته المائية الواسعة ، المعقدة والمجزأة ، يولج هذه المساحات بين أشباه الجزر تلك . لذا نحاول أولاً التعرف على هذين المسرحين (البحر واليابسة) لتحديد الشروط العامة لحياة البشر . لكننا بالطبع لن نكتفي بذلك .

تحكي الفصول الثلاثة الأولى من هذا القسم عن تنوع البحر الذي يمتد حيزه بعيداً عن حدوده . فهل يمكننا ، إذن ، الحديث عن وحدة فيزيائية للبحر (الفصل الرابع : المناخ) ، أو عن وحدة بشرية وتاريخية ، تالياً (الفصل الخامس : طرق ومدن) ؟

إن ما نهدف اليه في هذا القسم هو رسم وجهٍ ، بل وجوه ، للمتوسط من أجل فهم قدره المتعدد الألوان .

الفصل الأول

الجبال والهضاب والسهول

على خارطة العالم يبدو البحر المتوسط كانخساف يمتد من جبل طارق إلى السويس فالبحر الأحمر . إنخساف تحيط به الجبال وتجعله رواقاً مائياً ينقسم إلى بحار فرعية : الأسود ، إيجه ، الأدرياتيك ، والتيراني . وعلى صورة هذا التقسيم البحري ينقسم البر المتوسطي إلى خمس أشباه جزر أو قارات لكلٍ منها خصوصيتها : البلقان ، آسيا الصغرى ، إيطاليا ، إيبرية ، وشمال إفريقيا . وتتشابه تضاريس هذه القارات ، إذ يحوي كل منها قسماً جبلياً ضخماً وبعض السهول وتلالاً قليلة وهضاباً واسعة .

1 ـ الجبال مصنع الرجال

المتوسط محاصر بالجبال التي تشكل الوحدة الهندسية للحيز المتوسطي بامتدادها كنصف دائرة من شمال غرب إفريقيا حتى جبال لبنان مروراً بالشاطىء الأوروبي : الأطلس ، البيرنيه ، الألب ، الألبيني ، البلقان ، طوروس ، ولبنان . إنها سلسلة ضخمة تركت بصماتها واضحة على التاريخ المتوسطي كله . وإذا كانت الاستثناءات غير الجبلية قليلة في الشمال : ساحل اللانغدوك والرون في فرنسا ، ومنطقة البندقية على الأدرياتيك ، فإن هذه الاستثناءات تبرز أساسية في الجنوب حيث تمتد المنبسطات آلاف الكيلومترات من تونس حتى جبال لبنان ، فتلامس الصحراءُ البحرَ ، مشكِّلةً الوجه الآخر للمتوسط . ولا يهمنا هنا التحديد الجغرافي المحض لهذه الجبال ، بقدر ما يهمنا التعرف على جغرافيتها البشرية . فإذا كانت السهول مكاناً للقرى الكبيرة ، فإن السكن في الجبال غالباً ما يكون موزعاً ومشتتاً ، حيث يُرغم السكان على العيشَ منغلقين على أنفسهم وينتجون معظم ما يحتاجون إليه بالرغم من العوائق والصعوبات . فالجبال ، في العادة ، عالم يظل مقيماً على هامش الحضارات التي هي صنيعة المدن والمناطق

المنخفضة . وفي هذا المجال يمكن اعتبار جبال البيرينه مثالاً ونموذجاً ، تبعاً لتاريخها العنيف وفظاعة اجتماعها البدائي . أما قيام حضارة في جبال الألب ، بسبب مواردها وطرقها ومعابرها وانضباط سكانها ، فلا يخرج عن كونه استثناءً لا يخرق القاعدة .

فالحضارة الرومانية هي ابنة السهول ظلت الجبال العالية مغلقة في وجهها وفي وجه الكاثوليكية التي لم يصل إنجازها إلى الجبال . واللغة اللاتينية لم يُكتب لها أن تنتصر وتشيع في أيٍّ من السلاسل الجبلية المعادية في شمال إفريقيا وإسبانيا . ذلك لأن التيارات التحضيرية لا تدخل الجبال إلا على نحوٍ سطحي لا يطال العمق منها . وحال الإسلام في مواجهة هذه الحواجز لا يختلف في شيء عن حال غيره من الأديان . فبربر شمال إفريقيا لم يكونوا مسلمين إلا على نحوٍ سطحي ، مثلهم مثل الأكراد في جبالهم ، في حين كانت المناطق الجبلية في غرناطة وڤالنسيا والأراغون (إسبانيا) ما تزال إسلامية . وفي القرن السادس عشر كانت الجبال العالية كلها غير وثيقة الصلة بالدين المسيطر ، مما يُبرِز تفاوت الحياة الجبلية وتخلفها ، كما يبرز أيضاً سهولة اعتناق الجبليين للديانة الوافدة . فاعتناق سكان جبال البلقان للإسلام إبان السيطرة العثمانية يشير إلى شكلية ارتباطهم السابق بالكنيسة . والظاهرة نفسها تكررت سنة 1647 باعتناق عدد كبير من سكان كريت للإسلام في أثناء حرب كاندي . أما في جبال القوقاز فقد كان رد السكان المحليين على الزحف الروسي في القرن السابع عشر اعتناق الديانة المحمدية على النحو الأكثر تشدداً وتزمتاً .

هكذا تظل الديانات والحضارات قيماً غير ثابتةٍ وغير راسخة في الجبال ، حيث تتشكل جغرافيا دينية وحضارية خاصة ، وحيث يبقى فتح الجبال وإخضاعها قيد الشروع وبحاجةٍ إلى حملات دائمة . وهذا ما يفسر كثرة من الأحداث التي يرويها التاريخ التقليدي عن الجبال . فالكهنة هناك غالباً ما يكونون من الأميين ، والفلكلور ـ بعد اختلاطه بالدين ـ يراوح بين السذاجة والبدائية والشعوذة والطقوس الخرافية التي تشجع ، أحياناً ، الاندفاعات الحماسية . هكذا تبقى الجبال متحفاً للماضي ولصوره وأدواته وملاذاً للثقافات الشاذة النادرة ، من دون أن تخترقها حياة المدن إلا بصعوبة بالغة ، كما تبقى أيضاً خارج شِباك النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وخارج شيوع اللغات والحضارات السائدة . وينتج عن ذلك كله بقاء الجبال مصنعاً خصباً للأقليات وملاذاً لها وللخارجين عن القانون والثوار على الدول الحديثة وسلطانها ، بينما تمتاز الحياة فيها بالحرية وبقسط نسبي من الاستقلال ، فضلاً عن انعدام التفاوت الاجتماعي بين سكانها .

لكن الجبال ، بالرغم من استغلاقها على التاريخ العريض أو الكبير ، فإنها ،

مرغمةً لم تبق ، عوالم محكمة الإغلاق ، لأن الطرق والمعابر كانت تخترقها وتصلها بالمدن وبالسهول . فالحياة المتوسطية كانت من القوة والشمول إلى حد اضطرارها لاختراق التضاريس الجبلية المعادية من جهات كثيرة . فمن 23 معبراً طبيعياً في جبال الألب هناك 17 معبراً استخدمها الرومان . والجبال ، بسبب كثافة سكانها وشحة مواردها ، كانت مضطرة لقذف فائضها البشري نحو السهول . وحياة الفقر والشح والأمل في بيئة أقل رقةً وبحبوحة ، وأكثر قسوة ، غالباً ما كانت تحمل الجبليين على مغادرة مواطنهم وعدم العودة اليها أبداً . وبدورها السهول والمدن كانت بحاجة إلى هؤلاء المهاجرين ، على الرغم من خوفها وحذرها منهم ومن سخريتها من سلوكهم وأخلاقهم . لذا نادراً ما كان يحدث تزاوج بين فلاحي السهول والقادمين من الجبال . كأن الحواجز الجغرافية التي كان يتم خرقها ، كانت لا تلبث أن تعود الى البروز والمثول حواجز اجتماعية وثقافية .

أما هبوط الجبليين بقطعانهم إلى السهول فكان يشكل إحدى حركتي الانتجاع الموسمي ، بينما تبرز أيضاً الهجرة الموسمية أو المؤقتة على نحوٍ شديد الأهمية . مثل هذه الهجرات كانت دائمة الحدوث في حياة المتوسط ، لا سيما في أوقات المجاعات ، حين كان يتكاثر الجبليون كأيدٍ عاملة في المدن وفلاحين في السهول . ثم علينا ألا ننسى هجرات الجبليين « العسكرية » التي كانت تغذي جيوش الممالك والإمارات بالجنود . فكورسيكا لم تكف عن أن تكون خزاناً بشرياً لجيوش فرنسا والبندقية وجنوى . والألبانيون غالباً ما كانوا يغادرون جبالهم للانخراط في الجيش منتقلين ، طيلة القرن السادس عشر ، من قبرص إلى روما فنابولي فصقلية فمدريد . وحين أقفلت إيطاليا أبوابها بوجههم توجهوا الى البلاد الواطئة وانكلترا وفرنسا ، في غضون حرب الثلاثين سنة التي انتقلوا في نهايتها إلى كلٍ من تونس والجزائر ، قبل أن يعودوا من جديد إلى الانضواء في ظل السلطنة العثمانية . وهم في هجراتهم المتعاقبة هذه كانوا يخدمون من يؤويهم ويطعمهم . أما الأرمن الذين غادروا جبالهم وانتشروا ابتداءً من مطلع القرن السابع عشر بين كلٍ من القسطنطينية والبندقية وباريس وأميركا ، فكانوا تجاراً متجولين في أنحاء أوروبا كلها . وتجاراتهم لم تكن لتنجح وتفضي بهم الى الثراء ، إلا لكونهم جبليين حقيقيين امتازوا بالصبر والزهد والجهد . هذا فضلاً عما أتاحته لهم مسيحيتهم من سهولة الانتقال والمتاجرة باتجاهين : أوروبا والهند والصين .

الجبال هي مصنع الرجال في خدمة الآخرين . مصنع غذّى تاريخ المتوسط كله ، وربما قام هو نفسه بصناعة هذا التاريخ . فالحياة الجبلية ، هي ، على الأرجح ، نواة الحياة في المتوسط . أما السهول فكانت في الأصل مجال المياه الراكدة والمستنقعات

والملاريا ، لفيضان مياه الأنهار عليها في فصول الشتاء . وما صورة السهول الغنية التي نعرفها اليوم إلا حصيلة متأخرة لقرون من الجهد الدؤوب والمتواصل الذي بذله المهاجرون من الجبال والهضاب لتجفيف المستنقعات ومكافحة الملاريا . ففي منطقة توسكانا ، مثلاً ، لم تنشأ أولى المدن إلا على المرتفعات ، أما مدن السهول ، شأن فلورنسا التي ظلت المستنقعات تحيط بها وتهددها زمناً طويلاً ، فلم تنشأ إلا مؤخراً ، أي في العهد الروماني . وما تقدم يحملنا على الاعتقاد في أن السكن بدأ جبلياً قبل انتقاله إلى السهول .

2 ـ الهضاب قلب شبكة المواصلات

تظل الصورة التي رسمناها للجبال ناقصة إذا لم نقابلها بصورة أخرى « لأنصَافِها » ، أي الهضاب التي تقف الى جانب الجبال وتختلف عنها في آن معاً . فالهضاب المتوسطية سهول مرتفعة أرضها جافة وصلبة ولا تعبر الأنهار فيها إلا نادراً ، بينما تخترقها الطرق بسهولة نسبية . من أمارات ذلك أن آسيا الصغرى ، بخاناتها ومدنها ـ المحطات وقوافلها ، هي قلب تاريخ من المواصلات . والهضاب الجزائرية هي امتداد من سهوب متتالية من بسكرا إلى مولويا ، وكانت في العصر الوسيط تقطعها من الشرق إلى الغرب طريق تجارية أساسية ، قبل قيام مدينتي الجزائر ووهران . وفي إيطاليا كان لهضاب الأمبري وتوسكانا دور ، إن لم يكن أساسياً ، فهو هام في النمو الثقافي لشبه الجزيرة الإيطالية . أما أهم الأمثلة على الهضاب المنتعشة والمزدهرة فهو هضاب كاستيليا في قلب شبه الجزيرة الإسبانية التي تكثر فيها طرق التجارة وحركة البشر والقوافل ، شاغلةً بذلك موضع القلب من شبكة المواصلات في إسبانيا ومن حياتها الاقتصادية المزدهرة .

على هذه التلال القائمة بين الجبال والسهول والتي ترتفع من 200 م إلى 400 م ، تقوم الجلول المبنية والمزروعة لتشكل مناطق السكن المتوسطي الهامة . فهذه المناطق غير معرَّضة لأوخام المستنقعات ، وتقع على الحدود التي تمكّن من جعلها صالحةً للزراعة والري من مياه الجبال . ثم إنها مناطق تمتاز بثباتها ونادراً ما تعرف الهجرات السكانية الكثيفة . إنها عالم زراعي يتألف من قرى شيدتها جهود البشر المتواصلة . لكن يجب عدم تضخيم أهمية هذه الهضاب والتلال غير كثيرة العدد في المتوسط . صحيح أنها تمتلك السكان الأكثر انغراساً وتجذراً ، وأكثر المناطق توازناً ، لكن اعتبارها نقاط الإرتكاز الأساسية للحضارة المتوسطية ليس إلا تبسيطاً ينسينا الينابيع الأخرى التي تغذي هذا الجسم المتوسطي الكبير .

3 ـ السهول رحم الملاريا و« أميركا » المتوسط الداخلية

يخفي علينا اليوم مشهد السهول الغنية خيانة الجيولوجيا والمناخ المتوسطين ويجعلنا ننسى أن أرض المتوسط كانت مفتتة وغير سميكة وأنه لزمت لاستصلاح هذه السهول جهود متواصلة على مر عشرات من القرون . فمع هطول الأمطار الغزيرة كانت تنهار جدران الجلول التي كان البشر يقيمونها فتنجرف التربة من سفوح الجبال والهضاب لتبقى السهول زمناً طويلاً مرتعاً للمياه الراكدة ومياه الفيضانات . لذا كان على البشر أن يجاهدوا أزمنة طويلة للانتصار على المستنقعات وفيضانات الأنهار ، قبل أن يرمموا أقنية الري التي جرفتها السيول .

ظل هذا الصراع مستمراً قروناً طويلة من دون توقف حتى مطالع القرن العشرين . ففي العام 1900 تم الانتهاء من استصلاح سهل ميتيجا في الجزائر . ولم يتوصل اليونانيون إلى استصلاح سهل سالونيك قبل العام 1922 . أما في القرن السادس عشر فلم تكن معظم السهول الواسعة مزروعة بعد . والسهول المستصلحة غالباً ما كانت تجتاحها الفيضانات وتجبر الناس على البدء مجدداً باستصلاحها . وفي كل مكان من المتوسط كانت المعادلة السائدة هي نفسها : المياه تعني الموت . فالملاريا التي تجد في المياه الراكدة رحمها الخصيب ، كانت وباءً مميتاً يحصد الفلاحين . وفي حال عدم استشراء الوباء وتهديده حياة البشر بالموت المحتم ، فإنه كان يترك آثار انحطاط في حيوية أجسامهم وقواها . ومهما كانت أخطار الطاعون الآتي من الهند والصين قوية ، فإنه بقي مرضاً غريباً عن المتوسط ، فيما كانت الملاريا تسرح وتمرح في موطنها الأصلي . أما مواجهة هذا الوباء فكانت مزدوجة : تجفيف المستنقعات وإعادة استصطلاح السهول التي يعيدها توقف الانكباب على استصلاحها الى حالتها البدائية . وهذا ما حصل في اليونان في العصور الغابرة . وقيل أيضاً إن الملاريا هي من جملة الأسباب التي آلت الى انحطاط الأمبراطورية الرومانية . مع أننا نميل إلى الاعتقاد في أن انتشار وباء الملاريا يحصل كنتيجة لتوقف الجهد في تجفيف المياه الراكدة والصراع ضدها . هذا مع العلم أنه يبدو مؤكداً أن فترات تاريخية بعينها تشهد انتشارالملاريا على نحو استثنائي كثيف . حصل هذا الأمر في نهاية عهد الامبراطورية الرومانية ، كما حصل أيضاً في نهاية القرن الخامس عشر والقرن الذي تلاه ، فهل زُرِعت في هذين القرنين أراضي السهول وهي رطبة ، مع أنه ليس أشد ضرراً للتربة من حراثتها وهي رطبة « مريضة » ، فضلاً عن أن زراعتها تنذر بموت محتم للمزروعات كافة . لهذه الأسباب جرى التوطن في قرى الميتيجا مراتٍ كثيرة في القرن التاسع عشر . وفي السادس عشر ساد اتجاه يستهدف تنظيم السهول المتوسطية والسيطرة عليها لزراعتها ، وهذا أمر باهظ الكلفة عرفته إيطاليا على

نحو واسع . وربما كان الجهد البشري الذي بذله الإيطاليون لإنجاز هذا المشروع الهائل الضخامة في أصل بقاء إيطاليا على هامش الحركة الاستعمارية . والسيطرة على السهول - هذا الحلم المتوسطي الكبير - يعود في الأصل الى فجر التاريخ واستمر حتى هذا القرن . وهذا الصراع - أو ما يمكن تسميته بـ « الاستعمار الداخلي » - هو أحد أهم العلامات الفريدة في تاريخ المتوسط الزراعي . فكما تم توسيع الشمال الأوروبي على حساب غاباته ، وجد المتوسط في سهوله بلاداً جديدة ، أو أميركا داخلية .

في نهاية القرن السادس عشر قام رأسماليو الغرب الكبار بتعهد استصلاح أراضي السهول ، فظهرت حقول الأرز في اللومباردي (إيطاليا) ، ونظيرتها حقول ناربون واللانغكدوك (فرنسا) . وفي الواقع كانت هذه الاستصلاحات الزراعية مواكبة لحاجات المدن التي لم يتوقف عدد سكانها عن الازدياد . لذا شهد القرن السادس عشر ازدياداً في مساحة الأراضي المزروعة بالقرب من المدن التي كانت تحوّل جزءً من ثروتها لاستصلاح أراضي الريف أيضاً . أما في الأندلس فظل الجهد المبذول لاستصلاح الأرض في أثناء السيطرة الإسلامية مستمراً على يد الإسبان حتى القرن السادس عشر . وفضلاً عن الرأسمال الكبير ، كان هذا العمل الشاق يتطلب جهود مجتمعات كثيفة السكان شديدة التنظيم والانضباط . لذا كان على أهل السهول المتوسطية أن يتحملوا دائماً ثقل طبقة من كبار الملاكين والأسياد والنبلاء والبورجوازيين . وهذه قاعدة عامة سارية في المتوسط منذ أيام حمورابي وحتى القرن التاسع عشر . فسهول الأرز في اللومباردي القرن السادس عشر كان يتطلب ازدهارها استغلالاً واستعباداً فظيعين للعمال . وهذا حال السهول المتوسطية كلها ، بوصفها مراكز للبروليتاريا الزراعية ، بينما كان العالم الزراعي في الشمال الأوروبي يتمتع بحرية كبيرة . ومن المؤكد أن إحدى مآسي المتوسط وأحد أسباب تقليدية بناه يعودان إلى أن البلاد الزراعية فيه كانت دائماً تحت سيطرة الأغنياء . ففي حين لم يكن يلزم في الشمال - كما في أميركا لاحقاً - غير الفأس والمعول لإخصاب الأرض ، كان يلزم لإخصابها في المتوسط تدخل الغني وصاحب النفوذ وخضوع الفلاحين وانضباطهم ، فنتج عن ذلك قيام نظام اجتماعي شديد القسوة . فكيف كان من الممكن ، إذن ، أن نجد في كل من مصر وبلاد ما بين النهرين وإسبانيا وإيطاليا فلاحين أحراراً في القرن السادس عشر ؟! لذا ظل النظام الإقطاعي والهوة الكبيرة بين الغني والفقير قاعدة عامة قوامها ظروف المتوسط الطبيعية ، حيث تشكل السهول الواسعة جوهر التاريخ الزراعي المتوسطي الأكثر سحراً وصعوبة وكلفة من الناحية الإنسانية . فكل انتصار على المياه الراكدة كان حدثاً تاريخياً غنياً بنتائجه إلى درجة تحملنا على التساؤل إن لم تكن النجاحات الزراعية في أصل كل واقعةٍ تاريخية

كبرى . فالأندلس على سبيل المثال ، كانت ، في مطلع العهد الروماني ، مثل كل السهول المتوسطية ، مساحات من المستنقعات . وقد لزم لتصبح حديقة الرومان ومركزاً للمدن الكثيفة السكان ، استصلاحها شبراً شبراً . وفي ذلك الوقت كان قوام فرادة الأندلس هو تخصصها بعدد من الزراعات القليلة وتصديرها : الزينون ، العنب وما ينتج عنهما من صناعات . لذا كانت مرتبطة بالخارج لتأمين قمحها وغذائها ، مما كان يجعلها تستسلم بسهولة لمن يمتلك القمح . استسلمت في القرن السادس للبيزنطيين ، ثم للإسلام الذي أصبحت مقلبه الأسباني ومركز مدنه في الغرب .

يدل هذا على أن استصلاح السهول لم يكن يحولها الى دوائر مغلقة . فالاستصلاح غالباً ما كان يتم لصالح مدينة كبيرة تمتلك تجارة ورساميل قوية : ميلانو ، البندقية ، فلورنسا ، والجزائر . . . الأمر الذي جعل السهول قوة اقتصادية تابعة للخارج ، تعيش وتنتج من أجله . وهذا ما حمل في طياته شرط ازدهار كل سهل وبؤسه .

4 ـ الانتجاع والبداوة

إذا كان مشهد الانتقال المنظم للقطعان والبشر يختفي شيئاً فشيئاً اليوم ، فإنه كان حتى الأمس وعلى امتداد القرون علامة أساسية في حياة المجتمعات المتوسطية : الانتجاع في الشمال والبداوة في الجنوب . والانتجاع هو تلك الحياة الرعوية المنظمة التي كانت تتنقل بين مراعي الشتاء في السهول والمناطق المنخفضة ومراعي الصيف على المرتفعات . وآثار هذه الحركة ما تزال بادية في الطرق التي كانت تسلكها القطعان ويقترب عرضها من 15 متراً . وفي أنحاء أوروبا المتوسطية كلها تبدو هذه الطرق كالندوب، على جسد الإنسان ، وتستخدم لها أسماء محددة وخاصة في كل منطقة ولغة . وحركة الانتجاع هذه جاءت نتيجةً لتطور مديد ولتقسيم مبكرٍ للمعمل ، أدى إلى ظهور فئة الرعيان المنفصلة ، ليس عن الفلاحين فحسب ، بل عن مجمل أوجه الحياة الاجتماعية . إنها فئة تعيش خارج القواعد العامة ، تنتقل بين مراعي المرتفعات والسهول ، وينظر إليها الفلاحون وسكان المدن بخوف واحتقار ، كأنها فئة من البرابرة أو أنصاف الوحوش .

وحركة الانتجاع أكثر تعقيداً مما تبدو للوهلة الأولى . فهي تنقسم إلى نوعين : الانتجاع « العادي » الذي يكون ملاكو القطعان والرعاة فيه من أهل السهول . والانتجاع « المعكوس » الذي يكون الملاكون والرعاة فيه من سكان الجبال . وهذا الانتجاع الأخير أقدم زمناً من الأول . وقد صدر هذان النوعان من الانتجاع عن أحداث وتطورات تاريخية طويلة ، قبل دخولهما في البنى الرعوية واختلاطهما بها . في

القرنين 15 و16 كان ملاكو المرتفعات والسهول يستعملون المراعي نفسها . وما يحملنا على التمييز بين هذين النوعين من الانتجاع هو نظام الملكية الذي يخرجنا من مجال الجغرافيا إلى المجال الاجتماعي والسياسي . فالدول كانت تتدخل فتفرض الضرائب على مرور القطعان . وتجار الصوف واللحم ـ وهم في الأصل ملاكو القطعان ـ كانوا ينفصلون بالتدريج عن عامة مربي المواشي الصغار . أما حال الانتجاع في القرنين 17 و18 فكان على عكس ما كان عليه في القرنين السابقين . ففي القرنين 17 و18 حصل تمركز للملكية وازدياد في حجم قطعان الملاكين الأغنياء المقيمين في السهول . هكذا يبدو الانتجاع شكلاً من أشكال التمأسس أطلقته حياة زراعية متطلبة لا تستطيع تحمل أعباء الحياة الرعوية ، كما لا تستطيع أيضاً التخلي عن منافعها . لذا أقامت هذه الحياة تقسيماً للعمل نتج عنه قيام عالم رعوي منفصل عن المجتمع ويتنقل ، بحسب الإمكانات والفصول ، بين السهول والمرتفعات . هكذا كانت الزراعة تفصل بين الفلاحين والرعاة . فالانتجاع شكل اجتماعي يلي البداوة . وفي عصرنا نرى كيف يكسر النمو الديمغرافي ونمو الزراعة في شمال إفريقيا والمشرق البداوة التي هي الشكل الأقدم للحياة الرعوية . أما في القرن السادس عشر فكان الانتجاع ، قبل كل شيء ، خاصية شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا المتوسطية وإيطاليا ، بينما كانت البلقان والأناضول وشمال أفريقيا مسرحاً لبداوة أو شبه بداوة . فالجزء الغربي من المتوسط الشمالي وحده امتلك زراعة قوية وكثافة سكانية واقتصاداً نشيطاً ، الأمر الذي سمح بسجن الحياة الرعوية فيه داخل حدود صارمة . أما في المتوسط الجنوبي والشرقي فقد لعب التاريخ فيهما دوراً أساسياً مرتين على الأقل ، إذ شهد هذان المتوسطان (الشرقي والجنوبي) اندفاعتين بشريتين قويتين استمرتا قروناً وشكلتا غزوتين هائلتين أقامتا انقطاعين عميقين . انطلقت الغزوة الأولى من صحراء شبه الجزيرة العربية الحارة مع الاسلام ابتداء من القرن السابع ، وانطلقت الغزوة الثانية من صحراء آسيا الباردة مع الأتراك ابتداء من القرن الحادي عشر . وقد أدى هذان الحدثان إلى استمرار البداوة ونموها في كلٍ من شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى والصحراء المتوسطية وشمال إفريقيا . فمع الغزوة الأولى انتشر الجمل من سوريا الى المغرب ، بعد أن كان قد وصل إلى المتوسط من شبه الجزيرة العربية في القرن الأول للميلاد . إنه جمل المناطق الصحراوية الحارة الذي لا يستطيع تحمل البرد والسير في المناطق الجبلية . ومع الغزوة الثانية انتشر صنف آخر من الجمال في آسيا الصغرى وبلاد البلقان ، إنه وحيد السنام القادر على تحمل البرد والسير في الجبال . ولمعرفة بيئة هذين الحيوانين أهمية بالغة ، إذ إن لكلٍّ منهما مجاله الطبيعي المحدد . فإذا كان الفتح العربي قد فشل في آسيا الصغرى ولم يأخذ مداه في بلاد فارس ، فلأن الجمل الآتي من شبه جزيرة العرب لم يكن في مجاله الطبيعي . وهذا واحد من العوامل التي

أدت إلى إهمال العرب للمناطق الجبلية التي احتمت فيها الأقليات وتحصنت : الموارنه والدروز في جبال لبنان ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر . القبيليون (البربر) في جبال شمال إفريقيا في القرنين العاشر والحادي عشر . هكذا انتشرت البداوة في المناطق المنخفضة بعد الفتح العربي كفيضان هائل أحاط بالمناطق الجبلية . أما الغزوة الثانية (الفتح العثماني) بجمالها المعتادة على البرد وتسلق المرتفعات ، فلم توفر جبال آسيا الصغرى ، والبلقان بدرجة أقل ، من انتشار البداوة التي وصلت الى أعالي الجبال .

إلى هذا التاريخ يُضاف فصل أساسي من التناقض المتجدد أبداً بين التوطن والبداوة . فبين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر توطدت الإقامة في آسيا الصغرى واستبعدت البداوة نحو الهوامش شبه الخالية . أما في القرن السادس عشر فلم تتوقف الدولة العثمانية عن فرض الانضباط على البدو والحكم على المخالفين منهم بالعمل في المناجم والتحصينات وبالنفي إلى جزيرة قبرص ، بعد سيطرة الأتراك عليها سنة 1572 . لكن البداوة التي قُضي عليها في غرب الأناضول عادت وانتعشت في الشرق مع زحف التركمان الذين حاولت الامبراطورية العثمانية تحضيرهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فهربت القبائل الشيعية منهم نحو بلاد فارس التي كانت في صراع مع الأتراك . وحتى قرننا الحالي كان ما يزال يصل إلى حلب ودمشق بدو وتركمان تسعى الحكومات الى تحضيرهم . أما الفراغ الذي خلفه البدو وراءهم في شرق الأناضول ، فقد قام الأكراد بملئه من جديد في القرن التاسع عشر ، بعد أن مكثوا طويلاً في جبالهم . إنها هجرات جديدة تشير إلى دورات متعاقبة للحياة البدوية .

يتضح مما سبق البطءُ الشديد لهذه الذبذبات بين البداوة والانتجاع والتوطن ، بين الجبليين وسكان السهول والمدن ، إذ كانت هذه الحركات تتطلب قروناً كي تكتمل ، من دون أن تتضح سيروراتها إلا إذا فتحنا حقل المراقبة التاريخية على مصراعيه . فالتأريخ التقليدي لا يهتم إلا بالأزمات وذرى هذه الحركات البطيئة ، من دون أن يلتفت الى ما سبقها من تحضيرات طويلة . أما حين ينحصر هذا التاريخ في حدث أو سيرورة محليين فيمكن أن يظهر (التاريخ) دورات « جغرافية » تمتاز ببطء شديد . هكذا حدث انفجار في جميع الجبال المتوسطية الغنية بالسكان نهاية القرن السادس عشر ، لتنتشر الحرب الاجتماعية وتختلط علينا بأقنعة قطاع الطرق والعصابات . ذلك فيما كان قدر واحد يرتسم للجبال المتوسطية التي يتنفس في وسطها البحر . لكن هذه الحركات والذبذبات البطيئة الناجمة عن علاقة الإنسان بمحيطه ـ إذا ما أضيفت الى

حركاتٍ أخرى أقل منها بطأً ، كالحركات الاقتصادية مثلاً ـ هي التي تحكم حياة البشر الشديدة التعقيد . بمعنى آخر : تقودنا المراقبة الجغرافية للحقبات الطويلة الى معرفة أبطأ بالذبذبات التي عرفها التاريخ .

الفصل الثاني

البحار والسواحل والجزر

حين نغادر اليابسة تطالعنا السواحل والجزر والمساحات البحرية . وانطلاقاً من الإطار الجغرافي الذي رسمنا حدوده ويحكم رحلتنا ، علينا الآن أن نجلو العناصر المتشابهة في هذه الأقاليم الثلاثة وما يستتبعه ذلك من مقارنات ، كي يبدو المشهد العام أكثر وضوحاً .

1 ـ البحار : مساحات إتصال وانفصال

البحر قبل أي شيء هو « مساحة نقل » : الباخرة ، الطريق البحرية ، المرفأ ، والمركب التجاري . . . هي كلها في خدمة المدن والدول المتوسطية واقتصاداتها وتبادلاتها وثرواتها . لكن البحر ، قبل أن يصير واسطة أو صلة ، كان عائقاً بوجه الملاحة التي كانت حذرة ولا تبحر بواخرها إلا بمحاذاة السواحل بين نقاط مرئية في وضح النهار . هذا النوع من الملاحة شكل في أزمنةٍ طويلة الوجه الغالب من نشاطات النقل البحري المتوسطية . وحتى في القرن السادس عشر كان البحر المتوسط ما يزال هائلاً لا متناهي الأبعاد وفارغاً كصحراء ، لا يتنفس ولا تنشط الحركة فيه إلا على الشواطىء وبين جزرٍ قريب بعضها من البعض الآخر . فالبحارة ما كانوا يغامرون ، إلا في ما ندر ، بالإبحار فوق المساحات المائية الشاسعة والبعيدة عن السواحل . والأساطيل الحربية ما كانت تقوم بمعاركها إلا على مسافة تتيح للعين رؤيتها من الشواطىء . أما الطرق المستقيمة التي كانت تسلكها السفن لتبحر ، على نحو استثنائي ، في وسط البحر ، فلم يكن عددها يتجاوز طرقاً ثلاثاً أو أربع ، كانت معروفةٍ ومألوفة منذ زمن بعيد : من إسبانيا إلى إيطاليا مروراً بجزر البليار وجنوب سردينيا ، من مضيق مسينا أو مالطة باتجاه سوريا ، ومن رودوس إلى الاسكندرية . لكن قياساً إلى المساحلة(الإبحار

بمحاذاة السواحل) كانت طرق الملاحة المستقيمة أشبه بسواقٍ قليلة تخترق مياه البحر الشاسع . وفي الحقيقة ما كان الخوف من البحر ولا النقص في التقنية وحدهما من أسباب ندرة طرق الملاحة المستقيمة . فبحّارة المتوسط كانوا يجيدون منذ أزمنةٍ بعيدة استخدام الاسطرلاب البحري . والبحارة الإيطاليون كانوا أسياد الملاحة باتجاه العالم الجديد عبر المحيط الأطلسي . أما عدم تخلي المتوسط عن ملاحته القديمة فيعود إلى أن هذه الملاحة كانت تكفيه وتناسب تجزأه إلى أحواضٍ مائية شبه مستقلة ومنغلقةٍ على نفسها ، مشكلة عوالم البحارة الأليفة . وعلينا ألا ننسى أن المساحلة كانت تجنب السفن أخطار القرصنة وتتيح المتاجرة بين مرافىء متتابعة . وحدها سفن الملح والقمح كانت مرغمة على إسلاس قيادها للسرعة ولإختصار المسافات ، فيما لم تكن السفن الأخرى غير متاجر متنقلة ببطءٍ على امتداد السواحل . ذلك لأن الجغرافيا جعلت من المتوسط مجموعة بحارٍ ، على الرغم من إحاطة اليابسة بها ، توصل بينها أبواب مائية متفاوتة الإتساع . ففي داخل الحوضين الشرقي والغربي الضخمين هنالك سلسلة من البحار الضيقة التي كان يشكل كل منها عالماً له خصائصه وسفنه وقوانينه التجارية . وأقل هذه البحار اتساعاً كانت الأغنى بالمعنى التاريخي . كأن الإنسان سيطر قبل كل شيءٍ على المتوسطات الضيقة الأبعاد وعلى الطرق البحرية التي تصل بينها . وفي القرن السادس عشر كانت البحار الضيقة أكثر أهمية من البحرين الكبيرين : الأيوني في الشرق ، والمساحة المائية التي لا إسم لها ، والواقعة بين سردينيا وكورسيكا وأوروبا وافريقيا ، في الغرب . وقد ظل هذان البحران الكبيران كصحراوين حقيقيتين لا تعبرهما السفن إلا مسرعة ومن دون توقف ، بينما كانت تنتعش على هوامشهما حياة المتوسط البحرية : في البحر الأسود وبحر إيجه في الشرق ، في الأدرياتيك والبحر الذي لا إسم له والواقع بين صقليا وإفريقيا ، في الوسط ، في البحر التيراني ـ بحر إيطاليا بامتياز ـ والبحر « الأثروري » (الواقع بين صقليا وسردينيا وكورسيكا والساحل الغربي لإيطاليا) ، في الغرب ، وأضف إلى هذه البحار الضيقة كلها بحراً يمكن تسميته بـ « المانش المتوسطي » ، وهو البحر الواقع بين إسبانيا الجنوبية وإفريقيا ، في أقصى الغرب . ولنحاول أن نستعرض حياة هذه البحار .

ـ البحر الأسود محاصر ببلاد برية . فمن الجنوب والشرق تحده جبال مرتفعة ووعرة ، لا تعبرها الطرق الآتية من بلاد فارس وأرمينيا وبلاد ما بين النهرين ، إلا بصعوبة بالغة . ومن الشمال كان يصل إليه ، مروراً في سهول روسيا الواسعة ، البدو والتتار والكوزاك الذين احترفوا القرصنة في القرن السابع عشر . أما في القرن السادس عشر ، فكان البحر الأسود ـ كما في تاريخه كله ـ حيزاً اقتصادياً غنياً بالسلع التي تنتجها سواحله : السمك المجفف ، الكافيار ، الأخشاب الضرورية لصناعة سفن العثمانيين ،

الحديد ، القمح ، والصوف . وإلى بلاد فارس التي كانت تصلها منه بعض السلع ، كانت القسطنطينية تعتاش من القمح والأرز والفول وغيرها من السلع التي كانت تصل إليها عبره من مصر . وفي الواقع كان هذا البحر مرتبطاً بالقسطنطينية ، على غرار ما كان في ما مضى معقل آثينا ، ومجال الإيطاليين الجنويين (نسبة الى مدينة جنوى) سنة 1265 ، قبل أن يحل الأتراك محلهم في القرن الخامس عشر ، من دون أن ندري لماذا أُقفل البحر الأسود بوجه الإيطاليين في نهاية القرن السادس عشر . وإذ لا نميل إلى الإعتقاد بأن السبب يعود إلى قرار القسطنطينية باغلاق هذا البحر بوجه التجارة العالمية ، فإننا نرجح ارتباط تدني الملاحة فيه بانتصار الطرق البرية على الطرق البحرية . فطريق الحرير انتقلت ، منذ القرن الرابع عشر ، من البحر الأسود لتعبر بلاد فارس ولتقع تركستان ضحية لذلك الإنتقال . هذا فضلاً عن أن الروس هبطوا ، في منتصف القرن السادس عشر ، عبر الفولغا ، وسيطروا على خانات قازان التي كانت منتعشة كمحطات لتجارة القوافل ، قبل أن تحولها الإضطرابات إلى خرائب . وفي سنة 1556 ، حين سيطر الملك الروسي إيفان الرهيب على أسترخان ، أُقفل البحر الأسود على نحوٍ كامل .

ـ أرخبيل إيجه هو سلسلة من الجزر والسواحل الفقيرة البائسة المرتبطة دائماً بمدينة كبيرة . فقديماً كانت هذه السلسلة مجالاً لآثينا ، والبيزنطيون استندوا اليها ليمنعوا سيطرة الإسلام على بحر إيجه . وبفضل هذا الأرخبيل ظلت المواصلات مع الغرب مفتوحة عبر بحري اليونان والأدرياتيك . وبعد قرون صار هذا الأرخبيل بندقياً وجنوياً (نسبة إلى مدينتي البندقية وجنوى الإيطاليتين) ، إذ تقاسمت المدينتان المتنافستان السيطرة عليه ، وأقامت كل واحدة منها قاعدة لتجارتها في جزره . لكن الجاليتين الأرستقراطيتين الإستعماريتين اللتين أقامتا في تلك الجزر ، ظلتا غريبتين عن السكان الأصليين الأرثوذوكس ، الذين ، على الرغم من تكلمهم اللاتينية ، إستحال تطويعهم وصهرهم . لذا ظل قسم كبير منهم بمثابة حاجزٍ منيع بوجه المستعمرين ، الجنويين والبندقيين ، الذين كانوا ، في غضون القرن السادس عشر ، على صراع مع العثمانيين ، جوهره إحكام أحدهما سيطرته على الأرخبيل . لكن جوهر ذلك الصراع لم يحل دون اكتسابه طابع حرب إجتماعية بين السكان الأصليين والمستعمرين ، الأمر الذي ساهم إلى حدٍ بعيد في انتصار العثمانيين وسيطرتهم على جزر الأرخبيل الذي انخرطت كثرة من سكانه في بحرية العثمانيين وجيشهم .

ـ من الصعب إيضاح دور البحر الواقع بين تونس وصقلية ، والذي أغفل التاريخ تسميته . أما حدود هذا البحر فكانت تتطابق وحدود « الجسر » الجيولوجي

القديم بين صقليا وافريقيا . وفي الواقع لم تكن التجارة والملاحة بين الشرق والغرب كثيرة المرور في هذا البحر ، بسبب انجذابها إلى مضيق مسينا في الشمال . وبالمقابل كانت التجارة بين الجنوب والشمال ، أي بين افريقيا وصقليا، ناشطة ومزدهرة في هذا البحر ، إذ إن حركتها هي التي كانت تحدد تأرجح السيطرة عليه بين الجنوب والشمال . فبين 827 و1071 كان هذا البحر إسلامياً ، قبل سقوط باليرما ، التي كانت قلعة إسلامية ، في أيدي النورمانديين الذين لم تتوقف سيطرتهم في صقلية ، بل وصلت إلى افريقيا ، من طريق التجارة والهجرة أولاً ، ومن طريق الهجمات الحربية ثانياً . الأمر الذي آل إلى فرض الجزية على أمير تونس والسيطرة على منطقة جربة بين 1284 و1335 وحصول التجار المسيحيين على امتيازات متزايدة في تونس وطرابلس الغرب . هكذا كانت باليرما ، طوال القرن السادس عشر ، تسعى إلى جمع منتجات شواطىء وجزر هذا البحر الوسيط ، أي إلى جمع قمح صقليا وأجبانها وطونها إلى زيوت جربة وجلود الجنوب وأصوافه إلى بودرة الذهب وتجارة العبيد الصحراويتين .

- في « المانش المتوسطي » ، ذلك البحر الواقع في أقصى الطرف الغربي من المتوسط بين إسبانيا وإفريقيا ، كانت تصعب الملاحة من الشرق إلى الغرب وبالعكس . فالإبحار شرقاً كان يفضي إلى الحيز الشاسع والمخيف من المتوسط الغربي . والإبحار غرباً ، باستخدام عمليات شديدة التعقيد لعبور مضيق جبل طارق ، كان يفضي الى الغول الأطلسي المهول . على العكس من ذلك كانت المواصلات بين الجنوب والشمال في هذا البحر الذي كان جدولاً مائياً يوصل بين شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية أكثر مما يفصل بينهما . لذا كان هذا الحيز المائي واحداً من الفتوحات الإسلامية في العصر الوسيط . فهو الذي مكن خليفة قرطبة من السيطرة على الأندلس . ومكن أيضاً من نقل القمح والرجال المرتزقة من المغرب الى الأندلس . وسهولة الانتقال عبر هذا « الشارع المائي » هي التي آلت الى نقل مركز الحياة البحرية الأندلسية من ألماريًا إلى سيڤيل التي أخذت الثروات تتراكم فيها ، حتى أن ميناء غادا الكبير جعل ينافس قرطبة . والسيطرة الإسلامية على هذا البحر هي التي آلت إلى ولادة مدن بحرية وازدهارها على الساحل الإفريقي ، مثل مدينتي الجزائر ووهران اللتين تأسستا في القرن العاشر . ثم إن سهولة الملاحة بين الجنوب والشمال عبر هذا الشريط المائي ، هي التي أتاحت ، في مرتين على الأقل ، « للأندلس الأيبيرية » أن توفر النجاة للأندلس الإسبانية من الضغط المسيحي على هذه الأخيرة ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . الأمر الذي وفر بقاء البحر المذكور إسلامياً حتى سقوط الأندلس في أيدي المسيحيين الذين اتجهوا إلى السيطرة على الساحل الإفريقي ، من غير أن تتوافر لا الإرادة ولا الوضوح ولا

الاستمرارية المتطابقة مع المصالح الإسبانية لإنجاز تلك السيطرة . فعدم استمرار إسبانيا في خوض هذه الحرب ، بعد إحتلالها مدناً عدة على الساحل الإفريقي ، هو الذي آل إلى كارثةٍ إسبانية سببها جري الاسبانيين وراء سراب إيطاليا وسهولة السيطرة على أميركا . لذا إنجلى عدم تعزيز هذا النجاح السهل عن واحدٍ من أهم فصول تاريخ ناقصٍ ومفقود لم يكتب لإسبانيا فيه أن تقوم بجناحين أحدهما إفريقي والآخر أوروبي . لقد خانت إسبانيا ، بهذا ، رسالتها الجغرافية ، ليصير مضيق جبل طارق وبحر « المانش المتوسطي » ، للمرة الأولى في التاريخ ، حدوداً سياسية لنزاع لا يتوقف . أضف إلى ذلك بقاء تلك الحرب غير المكتملة علامة بارزة في تاريخ المتوسط ، تشير إلى أن الصدفة قد مزقت روابط جوهرية وألغتها . لذا استفاق فجأة من سباته ، في نهاية القرن السادس عشر ، ذلك الحيز المائي نصف الميت من المتوسط (أي النصف الغربي من هذا الأخير) إستفاق على تاريخ مأساوي سطر صفحاته وصول كثيف ومتعاظم للسفن الشمالية (الهولندية) التي جعلت تعبر ، ذهاباً وإياباً ، مضيق جبل طارق ، إبتداءً من العام 1590 ، بعد اكتشاف طرائق سهلة لعبوره .

ـ البحر التيراني هو ذلك البحر الواسع الذي تحيط به أرض غنية وكثيفة السكان . هذا فضلاً عن انفتاحه على عوالم متقاربة جعلت تاريخه دائم التقلب . في البداية كان يتقاسم السيطرة عليه أسياد توسكانا ومدن اليونان وجزيرة صقلية ، الأمر الذي جعله عالماً لتعدد الحضارات ولتعايش نماذج مختلفة من الحياة الإقتصادية . وبسبب دوره الوسيط هذا ، لم تستطع قوة بعينها ، عدا قوة روما ، حيازة سيطرة دائمة عليه . فلا الإسلام ولا بيزنطة ولا النورمانديون ولا الكتلانيون كانوا بقادرين على إلغاء دوره الوسيط وجعله بحراً مغلقاً بوجه التعدد . أما في القرن السادس عشر فإن إقرارنا بحيازة جنوى ـ بسبب سيطرتها على جزيرة كورسيكا ـ موقعاً أساسياً في هذا البحر ، لا يصرفنا بحالٍ عن الإنتباه لقوة كل من مرسيليا وإسبانيا وليفورن وفلورنسا في مقاسمة جنوى نفوذها الغالب على البحر التيراني المنقسم والمركب والمتعدد . لكن مميزات هذا البحر لم تكن تتيح له امتلاك الوانٍ خاصة به تحول دون امتزاج حياته بالحياة العامة للمتوسط كله ، على الرغم من اكتفائه بموارده وعدم استيراده إلا للقليل من السلع التي يحتاج اليها . هذا ما يفسر ذلك الخليط الكبير من الشعوب والحضارات واللغات والفنون في تعايشها على سواحله وفي مدنه البحرية . وهذا ما يفسر أيضاً اقتصار ملاحة هذا البحر وتجارته على سواحله وفي داخله ، على نحوٍ أشد وضوحاً وكثافة مما كانتا عليه في البحار الضيقة الأخرى . لذا لم يكن غريباً أن يصلَ الى ليفورن تاجر كورسيكي على متن مركبه المزود بكميات من اللحم المجفف والأجبان ويدخل شوارع المدينة ليبيعها وسط احتجاج أصحاب الدكاكين المحليين .

ـ الأدرياتيك أشد البحار المتوسطية الضيقة وضوحاً وتماسكاً في اختصـاره لكل المشكلات التي تظهرها دراسة المتوسط . فهذا البحر يمتد طولياً بين الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة الإيطالية والشاطىء الغربي لشبه جزيرة البلقان التي يبدو أنها كانت تسيطر على البحر ، خصوصاً في شواطئه الجنوبية الجبلية الفقيرة ، من دون أن تستطيع السيطرة على جزيرة كورفو التي تعتبر مفتاح بوابة البحر الجنوبية . فمنذ سنة 1386 وحتى اجتياح الأتراك لها كانت كورفـو تحت سيطرة مـدينة البنـدقية التي جعلت من الجـزيرة قلبـاً لدولتها . لكن اجتياح الأتراك لهذه الجزيرة ما لبث أن أسلمها للخراب فتـدنى عدد سكانها ، في السنوات الواقعة بين 1537 و1588 ، من 40 ألف نسمة إلى 19 ألف نسمة . وفي الواقع لم يحل خروج كورفو من قبضة سيطرة البندقية الواقعة في الطرف الشمالي من البحر ، دون بقاء المدينة ـ الدولة الايطالية آنذاك مسيطرة على نحو كامل على الأدرياتيك . ففي تلك المدينة ـ الدولة كانت تلتقي الطرق البرية والبحرية التي كانت تصل أوروبا الوسطى كلها بـالمشرق . فالبحـر الأدرياتيكي هـو بالأصـل بحر البندقية أو « خليجها » الذي كانت تضع يدها على تجارته وملاحته وطرق مواصلاتـه والضرائب المتحصلة منها . لكن هذا كله لم يكن يمنع جيران البندقية الكبار أو الأقوياء من إيجاد موطىء قدمٍ لهم في هذا البحر . فالأتراك موجودون في فالون والإسبان في نابولي والنمسا وبون في ترييست . وابتداء من العام 1580 حدث في الأدرياتيك تغير ، بعد أن كانت آثاره قد طاولت المتوسط برمته . أما أسباب ذلك التغير فتتجسد ، في تفاقم القرصنـة التركيـة والسلافيـة والألبانيـة في الأدرياتيـك ، فضلاً عن وصـول الخارجين عن القانون في البلقان إلى مدينة ترييست ، الأمر الذي مكّن أمراء توسكانا وتجار ڤينا وإسبانيا وكثرة من الفلاحين ـ التجار من منافسة البندقية في كل من تجارتها الخارجية والداخلية . لكن بالرغم من كل شيء نستطيع القول إن الأدرياتيك كان يعيش وحدة اقتصادية وثقافية تتلون بالألوان الإيطالية . فالإيطالية كانت اللغة التجارية في المتوسط كله . الأمر الذي كان يجعل الأدرياتيك مشدوداً الى حضارة إيطاليا الرفيعة وإلى دوران مـدنه في فلك تلك الحضـارة وموضتهـا . لكن من وجه آخـر لا يمكننا أبـداً اعتبـار الأدرياتيك بحراً إيطاليـاً صرفاً . فـإلى الأمراض والأوبئـة التي كانت تصـل إليه من الشرق ، فإن حضارته كانت مزيجاً من حضارات مختلفة . فبيزنطة كانت ملامحها ما تزال بارزة فيه . والكاثوليكية أيضاً لم تكن ملامحها غائبة عنه . وهي كاثوليكية كانت تتميز بكونها كاثوليكية حربية في مواجهة العالم الأرثوذوكسي المهـدد بدوره من قبـل الأتراك المقيمين في أعالي الجبال . هكذا تبرز الجغرافيا إلى جانب كل من السياسة والإقتصاد والحضارة والدين كعوامل مساهمة في بناء عالم أدرياتيكي متجانس كان يمتد من عمق البلقان حتى الحدود الفاصلة ما بين العالمين اللاتيني واليوناني . أما من الجهة الأخرى ،

أي من الجهة الغربية ، فكان هذا العالم يمتد حتى شبه الجزيرة الإيطالية ، راسماً في امتداده ذاك تعارضاً بين شمال إيطاليا وجنوبها . أما التعارض الآخر بين إيطاليا التيرانية (نسبة إلى البحر التيراني) وإيطاليا الشرقية ، فلم يكن بدوره يعوزه الوضوح ، على الرغم من أنه كان أقل بروزاً من التعارض الأول . لذا يمكننا اعتبار التعارض الأخير كناية عن تمفصل سري يقوم عليه التاريخ الإيطالي برمته . ففي نهاية القرن السادس عشر ، مثلاً ، كانت البندقية في شرق إيطاليا تتدهور وتنحط لصالح جنوى الناهضة والمزدهرة في الغرب الإيطالي . كأن هذا التعارض إمارة على تأرجح إيطاليا تباعاً بين الشرق والغرب ، كما وأنه ، من وجهٍ آخر ، إمارة على تماثل أقدار إيطاليا مع أقدار المتوسط كله .

ـ إلى جانب هذه البحار الضيقة المتعشة تطالعنا المساحات المائية الشاسعة بفراغها وخلوها وتأثيرها في البنية العامة للمتوسط . في القرن السادس عشر كانت تلك المساحات خطرة ومميتة وتقيم عوائق لا يستهان بها بين عوالم المتوسط . والبحر الأيوني هو أكثر هذه المساحات إتساعاً لأنه يشكل امتداداً بحرياً فارغاً للإمتداد البري الليبي الفارغ بدوره . هذان الإمتدادان يشكلان منطقة هائلة الإتساع ومزدوجة بلا إنسانيتها ـ الأولى مائية والثانية صحراوية ـ تعزل الشرق عن الغرب وتفصل بينهما . أما من الجهة الغربية لصقلية فيمتد حيز بحري آخر ، شاسع بدوره ، ويصل حتى إسبانيا والمغرب . إنه البحر الذي يمكن أن نسميه بـ « بحر سردينيا » والذي كان يصعب العبور بالقرب من شواطئه غير المضيافة . لكن السفن استطاعت ، بعد لأي ، أن تتجاوز صعوبات العبور في هذين الاتساعين بسلوكها طريقين بحريين اثنين : طريق مسيحية تمتد بمحاذاة السواحل البلقانية بعد عبورها مضيق مسينا . وطريق اسلامية تنطلق من السواحل الألبانية وتمتد منحنية لتعبر بين صقلية والشاطىء الإفريقي ، وصولاً الى بنزرت فالجزائر ، حيث كانت الملاحة مزدهرة على طول سواحل شمال إفريقيا . لقد شكل هذان الطريقان بتجنبهما العبور في قلب كل من البحرين الأيوني والسرديني ، شكلا الرابط بين الشرق والغرب من الناحيتين الجغرافية والسياسية . الأمر الذي أكسبهما أهمية بالغة على مستوى التاريخ الكبير للمتوسط . وبإضافتنا الطرق البرية التي تعبر إيطاليا من الشرق إلى الغرب وبالعكس إلى الطريقين البحريتين المذكورتين ، نحصل على طرق المواصلات التي أقامت وحدة المتوسط من الناحية التاريخية . أما ما يقال عن الحواجز المتراكمة بين حوض المتوسط الشرقي وحوضه الغربي ، باعتبارها كناية عن حتمية جغرافية تباعد بين واحدهما والآخر وتفصل هذا عن ذاك ، فليست أقوالاً خاطئة كلها ، بقدر ما هي تنحو نحو المبالغة والتضخيم . صحيح أن ما كان يحف باجتياز الطرق ـ بريةً كانت أم بحرية ـ من صعوبات ومخاطر ، حال دون حصول هجرات

بشرية ضخمة تتيح كسر الحواجز القائمة بين هذين الحوضين الكبيرين ، لكن الصحيح أيضاً هو أن القرن السادس عشر شهد بعض التخالط والتمازج بين فئات من جهات الحوضين وعوالمهما المتعددة المترامية . إلا أن مثل هذا التطعيم بين البشر يبقى دون كبير أهمية ، بالرغم من الروابط والتبادلات التجاريتين والثقافيتين بين شعوب الحوضين اللذين استطاعت الحدود ـ الحواجز الطبيعية ، التي وقفت بوجه البشر كمصفاة ضيقة فتحات شباكها ، أن تحصر إختلاط الشعوب وتمازجها عرقياً دينياً وحضارياً داخل حدود كلٍ من الحوضين الذين حافظ كلٌ منهما على استقلاله الذاتي . لِذا ظلت كل محاولة ربطٍ إنساني بين هذين الحوضين الكبيرين مغامرة محكومة بعدم الثبات وعدم الاستمرار . فمن الفينيقيين الذين وصلوا قرطاجة ، إلى اليونانيين الذين أقاموا في مرسيليا ، إلى البيزنطيين الذين كانوا في حقبةٍ من الزمن أسياد صقلية وإيطاليا وشمال إفريقيا ، الى العرب الذين وصلوا إلى إسبانيا . . . كل هذه المحاولات ظلت انتصاراتٍ آنية لا مستقبل لها ، لأنها كانت على الدوام انتصاراتٍ تعقبها قطيعة بين الجيوش المتقدمة ومراكز إنطلاقها الخلفية البعيدة . ومثال إسبانيا الإسلامية مفرط في دلالته على هذه الإنتصارات الآنية والقطيعة التي تعقبها . ففي حين كانت الأندلس تتلقى من الشرق شعراءها وأطباءها وأساتذتها وفلاسفتها وراقصاتها طيلة القرنين العاشر والحادي عشر ، فإنها قامت بعد هذين القرنين بقطيعةٍ مع الشرق لتلتحم بإفريقيا البربرية وتعيش حياة غرب متوسطية . والقطيعة بين شمال افريقيا الغربي والمشرق كان لا بد لها أن تحصل أيضاً في غضون القرن السادس عشر عقب تحرر إفريقيا من الوصاية العثمانية . أما في الحوض الشرقي من المتوسط فلم يكن حال الإنتصارات والإنقطاعات التي تعقبها ليختلف عما حدث في الحوض الغربي . فلا انتصارات الأمبراطورية الرومانية في الشرق ولا انتصارات الصليبيين التي تلتها بقرون استطاعت أن تعمر طويلاً وتدوم . ذلك كله لأن هذين الحوضين الكبيرين ، فيما كانا يسعيان الى الإتصال ، كانا من وجهٍ آخر منفصلين ومنغلقين . يبرز هذا الأمر على نحوٍ جلي في القرن السادس عشر الذي نحت فيه الأمبراطورية الإسبانية ، مستندة إلى مرتكزاتها الإمبريالية ، نحو السيطرة على الحوض الغربي من المتوسط سيطرة كاملة ، ليصبح بحراً إسبانياً لا يمتلك المسلمون منه غير جهته الجنوبية التي ما لبثت اسبانيا أن سعت إلى اختراقها في تونس (سنة 1535) وفي الجزائر (سنة 1541) . هذا بينما كان الحوض الغربي ، أي البحر الأيوني ، بحراً عثمانياً بامتياز ، خاصة بعد أن وجدت الأمبراطورية العثمانية نفسها وجهاً لوجه أمام ضرورة السيطرة على هذا البحر ، بسبب إتساع رقعتها الى كلٍ من سوريا ومصر . لذا ليس من المستغرب أن تكون المعارك بين هاتين الأمبراطوريتين قد وقعت على حدود هذين الحوضين : في طرابلس الغرب (1511 ، 1551) ، في جربه (1510 ،

1520 ، 1560) ، في تونس (1535 ، 1537 ، 1574) ، في بنزرت (1573 ، 1574) ، في مالطا (1565) وفي ليبانت (1571) . والسياسة في حياة هذين البحرين ـ العالمين كانت تعكس واقعاً تحتياً عميقاً جوهره إختلافهما الثقافي والإقتصادي ، فضلاً عن إختلافهما الفيزيائي ـ الطبيعي . فالحوض الشرقي مناخه قاري وذو إيقاعات حادة ومفاجئة . هذا فضلاً عن تميزه بارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف ، وبعري اليابسة المتاخمة له من الأشجار والنباتات . لكنه في المقابل بحر أكثر تأنساً من الحوض الغربي . لذا يجب التشديد على العامل الأخير الذي منح الشرق سهولة الملاحة . فهل هذا هو سبب سبق البحرية العثمانية للبحرية الإسبانية وتقدمها عليها ؟ وعلى المستوى الإقتصادي والثقافي لاتني هذه الإختلافات تبرز في غضون القرن السادس عشر ، إذ إن الشرق ، منذ القرن الثالث عشر ، لم يتوقف عن خسارة عوامل تفوقه على الغرب واحداً تلو آخر ، لتكتمل في القرن السادس عشر هزيمته على نحو مأساوي ساحق ، خصوصاً على المستوى الإقتصادي . فانفتاح المحيط الهادىء أنهى امتياز المشرق وامتلاكه لثروات الهند . الأمر الذي آل ، يوماً بعد يوم ، إلى إتساع الهوة القائمة بين عالمين : إجتاح تقدم الصناعة التقني الغرب الذي استفاد من مناجم ذهب أميركا ، بينما تقهقر الشرق وتراجع . لكن هذا التفاوت لا يخفي الوحدة الاقتصادية للمتوسط على الرغم من الحواجز السياسية التي تعيقها . فبقدر ما هو التفاوت كبير ، بقدر ما هي تيارات الإتصال والتكامل ضرورية : الشرق بحاجةٍ لمشاركة الغرب في تفوقه التقني . والصناعة الغربية المزدهرة بحاجة إلى أسواق الشرق . كأن هذه الإنقطاعات والتبادلات هي التي تقيم التوازن في المتوسط وتحرك كل شيء فيه .

2 ـ ضعف القطاعات البحرية

بالرغم من التغني بالصيد وبأسماك البحر المتوسط وأصدافه ، فإن مياهه ليست أكثر غنىً من أرضه . فالمتوسط بحر سحيق القِدم والعمق ، فضلاً عن أنه يشكو من فقره البيولوجي ومن عدم تجدد مياهه بسبب ضيق مجال إتصاله بالمحيط الأطلسي الذي يتفوق عليه في وفرة الصيد والبحّارة . فقلة الرجال القادرين على بناء السفن والإبحار بها ، كانت دائماً من العقبات التي حالت بين مطابقة الأحلام السياسية المتوسطية لواقعه الفعلي . تظهر هذه الواقعة جلية في الوثائق التي خلفتها دول القرن السادس عشر ، إذ لا تخلو واحدة من هذه الوثائق من شكوى قلة الرجال والبحارة في المتوسط . الأمر الذي حمل الدول المتوسطية على البحث عن هؤلاء في بلاد الشمال . وإلى الرجال والبحارة استعارت هذه الدول من الشمال تقنياته المتقدمة التي أطلقتها ثورته البحرية في الأطلسي الذي استبعد منه ، في نهاية القرن الخامس عشر ، البحارة المتوسطيون ، بعد أن

كانوا ، في القرن الرابع عشر ، أول من قاموا برحلات الملاحة المستقيمة من بحرهم الداخلي (المتوسط) إلى المحيط الشاسع . لكن مع نهاية القرن الخامس عشر بدأ المتوسط بالتراجع في مواجهة الشمال الأوروبي الذي كان يسعى الى السيطرة على العالم كله . وكانت مقدمات هذا التراجع قد ظهرت مع ظهور البحارة الإنكليز بكثافة في المتوسط نفسه سنة 1535 ، ليتبعهم بكثافة مماثلة البحارة الهولنديون في سنة 1578 . فضعف التجارة المتوسطية كان كناية عن ضعف عامٍ في القطاعات البحرية المتوسطية التي تقوم الثروة الغابية في أساس إزدهارها . وفي القرن السادس عشر كانت الثروة الغابية المتوسطية قد استنفدتها على وجه التقريب حركة بناء السفن في القرون الغابرة . وليس من قبيل الصدفة أن تكون الأقاليم ذات النشاطات البحرية المزدرة واقعة على الشواطىء الشمالية من المتوسط ، لوفرة الغابات في جبالها ، بينما يشكو الجنوب المتوسطي دائماً من قلة ، لا بل من انعدام ، الغابات فيه . ولولا الأخشاب التي كانت متوافرة على نحوٍ استثنائي في بوجي (شمال إفريقيا) لما أمكن لإبن خلدون أن يتحدث عن بحرية ناشطة في القرن الثالث عشر والقرن الذي يليه . ونفاد الغابات في جبال لبنان كان على الأرجح في أصل إنحطاط الحياة البحرية على السواحل السورية . وفيليب لومبار يرى أيضاً أن أزمة الأخشاب كانت في أصل انحسار السيطرة الإسلامية عن المتوسط في القرن الحادي عشر . أما سيطرة العثمانيين على قسم كبير من البحر فكانت مرهونة بوفرة الغابات واتساعها حول البحر الأسود وبحر مرمرة وخليج أسميت ، مما سمح للامبراطورية ببناء أسطولها الضخم . لكن أوروبا المتوسطية لم تكن بدورها بمنأى عن أزمة الأخشاب ، الأمر الذي حملها ، في القرن السادس عشر ، على الإستعانة بخشب الشمال لبناء أساطيلها . أما قيام مركزين لبناء السفن في البرتغال اعتماداً على أخشاب غابات سان أنجلو فليس إلا استثناءً لا ينفي صحة القاعدة العامة . فها هوذا فيليب الثاني ملك اسبانيا ، يستورد الخشب من بولونيا لبناء اسطوله . هكذا يمكننا الجزم بأن أزمة الأخشاب كانت في أصل الأسباب التي آلت إلى خسارة المتوسط المسيحي (الكاثوليكي) للبحر الذي أخذ الشماليون يفرضون عليه قانونهم .

على السواحل الشمالية من المتوسط كانت الحياة البحرية تنشط حيث تتكاثر الجبال ، فيتكامل بذلك الإقتصادان البحري والجبلي . فالجبال كانت تتجه هجراتها البشرية على نحو تلقائي نحو السواحل ، حيث تقوم الحياة البحرية . لذا نجد على الشواطىء الشمالية من المتوسط عدداً من القرى الريفية الساحلية التي يجمع سكانها بين الزراعة والنشاط البحري . لكن مثل هذه القرى ما كانت قادرة على توفير مناطق إزدهار بحري بسبب حاجتها إلى مدن كبيرة تقدم لها الرساميل والمواد الأولية . وبالرغم من قيام

كلٍ من مرسيليا وجنوى وراغوز بهذا الدور ، في حقبات زمنية متباعدة ، فإن الإنحطاط المفاجىء كان يكرر نفسه على نحو مستمر في موانىء المتوسط . فالأقاليم البحرية قليلة عدد السكان لم يكن سكانها يتحملون الجهد والإنهاك اللذين يتطلبها استمرار الإزدهار في القطاعات البحرية . هذا فضلاً عن أن الإثراء الذي كان يصيب الفئات البروليتارية العاملة في تلك القطاعات ، كان يهدد الحياة البحرية ، بسبب البطالة التي يشيعها الإثراء في صفوف تلك الفئات . لذا كانت علامات الضعف الكامنة لا تلبث أن تظهر جلية في أقصى حالات الإزدهار . لكن الموت الظاهر الذي كان يدب في قطاع بحري لم يكن إلا إمارة عن تغيرٍ في وتيرة حياته . وغالباً ما كان التغير يتخذ شكل الأنتقال من حياة بحرية قوامها المسأحلة (الإبحار بمحاذاة السواحل) إلى حياة بحرية أخرى قوامها الإبحار مسافاتٍ طويلة في طول البحر وعرضه . إنه انتقال من حياة بحرية لا تاريخ لها إلى حياة أخرى تاريخية . . . . وهذه هي ، في الواقع ، دورة حياة شعوب البحر .

3 ـ الجزر : محطات الجوع والخوف

يفوق عدد الجزر المتوسطية وتفوق أهمية دورها تصورنا . فهي ، قبل كل شيء ، محطات ضرورية للسفن على امتداد طرق البحر . وهي ثانياً التي توفر ، في المساحات المائية الواقعة بينها وبين الشاطىء المقابل لها ، ملجأ أو طريقاً آمناً للسفن الباحثة عن إبحار في مياهٍ هادئة . والجزر ، صغيرة كانت أم كبيرة ، تشكل وسطاً إنسانياً متماسكاً ، بفضل خضوعها لشروط وضغوطات متشابهة تجعلها متأخرة أو متقدمة بالقياس إلى التاريخ البحري العام الذي يجعل الحياة فيها متأرجحة بين قطبين متناقضين : القديم المتخلف أو الأثري ، والجديد الوافد . فالقِدَمُ الأثري هو من خصائص الحياة في الجزر التي تمتلك ، على مر قرون وقرون ، قدرة المحافظة على أشكال حضارية وفلكلورية قديمة ، من دون أن تكف ، بالرغم من انغلاقها ، عن استقبال شذراتٍ من حيواتٍ وحضارات جديدة ، كعاداتٍ وموض ، وأحياناً لغاتٍ ، تقوم باختزانها والمحافظة عليها على نحو ما وفدت اليها ، فتبقى كشواهد على أزمنةٍ إنقضت . فعزلة الجزر ، في نهاية الأمر ، واقع نسبي . صحيح أن البحر يفصلها عن العالم الواسع ويباعد بينها وبين هذا العالم أكثر مما تفصل العوامل الطبيعية الأخرى وتباعد بين العالم الواسع وبين أي وسط آخر ، لكن الصحيح أيضاً أن شبكة الحياة البحرية ، حين تعبر الجزر وتدخلها في إحدى حلقاتها ، تخرجها من عزلتها وتحملها على الإنخراط في شبكة حياة خارجية عامة ، على نحوٍ يجعلها أقل عزلة بكثير من بعض الجبال . هكذا امتلكت الجزر التي تتصف بعزلتها منافذ على العالم الواسع بالقدر الذي يتيح لنا اكتشاف التاريخ العام للبحرفيها . فالمدن في الجزر كلها متشابهة : تتأثر بأساليب العيش المنتشرة في البحر ،

لكنها بالمقابل تدير دائماً وجهها نحو داخلها ، أي نحو الجهة التي لا ينتبه لها ، للوهلة الأولى ، مقتفي أثر التاريخ الكبير : حياتها الداخلية المنغلقة وبيولوجيتها عديمة التجدد . لكن انغلاق الحياة النباتية والحيوانية في الجزر لن يصمد طويلاً أمام هبوب رياح طرق البحر التي تدخلها وتخلف فيها آثاراً لا تمحى . من هذه الآثار أن سكان الجزر يقيمون ، على نحو دائمٍ ، على خوف من ما يخبئه لهم الغد . فالوفرة في الموارد التي تفِدُ إلى الجزر من طرق البحر التي تعبرها ، ليست إلا وفرةً آنية لا بد من زوالها ، الأمر الذي يهدد الجزر بالفقر والجوع والقحط . ذلك لأن الجزر كلها تعيش تحت رحمة المستعمرين الوافدين الذين يستخدمونها كمحطات لجيوشهم وتجاراتهم وزراعاتهم . فالجزر التي كانت البندقية تسيطر عليها ، كمثل كورفو وكاندي وقبرص ، كانت المجاعة تهددها طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر . وإلى المجاعة والخوف منها ، كانت الجزر تعيش في حال حصار بحري مستمر ، يفرضه عليها إما القراصنة وإما الدول التي كانت تتنازع للسيطرة عليها ، الأمر الذي يُبقي الحياة فيها متأرجحة بين الضيق والعوز والقلق . أما أدوار الجزر الخارجية التي تلعبها على مسرح التاريخ الكبير ، فهي من الأهمية التي لا نتوقعها من العوالم البائسة مثلها . فالتاريخ الكبير غالباً ما يدخل الجزر ويستخدمها كمحطاتِ إتصال ثقافي وزراعي . فقصب السكر الذي انتقلت نبتاته الأولى من الهند الى مصر ، غُرس في قبرص قبل أن ينتقل ، في القرن الحادي عشر ، إلى صقلية ، ومن هذه الأخيرة الى مادير ، أول جزيرة أطلسية عرفت قصب السكر الذي أكمل طريقه من مادير إلى جزر الكناري وأميركا . هذا هو حال الجزر ، إذن ، حين تعبرها طرق البحر وتحملها على المشاركة في العلاقات التي تصنع التاريخ الكبير . لكن هذه المشاركة غالباً ما تحمل النكبات إلى الجزر . فالزراعات الغريبة التي تجتاحها غالباً ما تهدد توازن الحياة في الجزر ، وتكون مسؤولة عن المجاعات المتكررة التي تصيبها . ذلك لأن الخارج - أي السوق المتوسطي وأحياناً العالمي - هو الذي يفرض عليها هذه الزراعات ، لتعيد هي تصديرها اليه . فجزيرة مادير الأطلسية ، مثلاً ، خسرت معظم ثروتها الغابية التي استخدمت أخشابها كمحروقات لتشغيل طواحين قصب السكر فيها . وهذا كله لسد حاجات أوروبا للسكر . أما جزر الكناري فقد انقرض سكانها الأصليون بسبب وحشية المستعمرين الأوائل وانتاج السكر فيها . الأمر الذي أدى إلى جلب اليد العاملة اليها بعمليات خطف لبربر شمال إفريقيا وسكان السودان وغينيا وأنغولا واستبعادهم . وفي القرن السادس عشر حوّل المتوسط جزيرة صقلية ، بزراعته للقمح فيها ، إلى ما يشبه الأرجنتين بالنسبة للعالم الغربي . وما خلفته زراعة القطن والكرمة وقصب السكر في قبرص ، والزيتون في جربه ، من آثار سلبية في حياة هاتين الجزيرتين ، يكاد لا يوصف . فآثار قصور الأرستقراطية الجنوية

والبندقية في نيقوسيا القبرصية ما زالت بادية للعيان حتى اليوم ، كدليل على قهر السكان الأصليين الأرثوذوكس الذين استُعبدوا في زراعة الكرمة والقطن وقصب السكر . لذا أشعل الهجوم التركي على الجزيرة في سنة 1572 حماسة سكانها الذين ثاروا ضد الأرستقراطية الإستعمارية وانتصروا للأتراك . وفي الحقبات التي لا تقع فيها الجزر ضحية للإقتصاد الزراعي الاستعماري ، فإن نشاطاتها المرتبطة بالخارج تبقى مصدر ثروتها الأساسي . هكذا كانت أبيزا جزيرة الملح وألب جزيرة الحديد . وأخيراً علينا ألا ننسى الهجرة باعتبارها السبيل الأكثر شيوعاً لدخول الجزيرة وانخراط في دورة حياة العالم الواسع . فالجزر مثل الجبال مصدرة للرجال . وفي القرن السادس عشر كانت كورسيكا ، المرتفع عدد سكانها قياساً إلى مواردها القليلة ، مثالاً نموذجاً لهجرة أهل الجزر . فالكورسيكيون انتشروا خارج جزيرتهم على نحو بات معه كل حدث متوسطي في القرن السادس عشر لا يخلو من مشاركة كورسيكي فيه . لقد انتشر الكورسيكيون من القسطنطينية الى جنوى الى البندقية الى سيڤيل الى ڤالنسيا الى الجزائر . . . ألم يكن حسن كورسو (نسبة إلى كورسيكا) أحد ملوك مدينة الجزائر ؟! وفي سنة 1568 ألا يتحدث الإسبان عن 6 آلاف مرتد كورسيكي في الجزائر نفسها ؟ ومرسيليا ألم تصبح نصف كورسيكية ؟

4 ـ أشباه الجزر القارية : قوى المتوسط الكبرى

تنتشر على تخوم المتوسط جزر أخرى ، بالرغم من أن المياه لا تحيط بها ، فإنها تعيش كعوالم تعزلها حواجز أرضية لا تُبقي لها مخرجاً فعلياً إلا الى البحر . أليست مملكة نابولي جزيرة ، في هذا المعنى ؟ والمغرب أليس جزيرة أيضاً ، يحاصرها كل من الأطلسي والمتوسط والصحراء ، بحسب ما تصفه كثرة من الكتب العربية ؟ ولننظر إلى كاتالونا التي توجه وجهها إلى البحر كيف يؤرجحها التاريخ بين فرنسا وشبه الجزيرة الأيبيرية والبحر . وسوريا بدورها أليست جزيرة تمتد كهمزة وصل بين الصحراء والمتوسط ؟ سوريا التي كانت مقلعاً للتقنيات والإمبرياليات والحضارات والأديان وأعطت العالم الأبجدية وفنون صناعة الزجاج والصباغة وأباطرة لعروش روما وبيزنطة ، الأمر الذي يحملنا على القول إن البحر الفينيقي كان أول متوسط تاريخي . والعثمانيون المسلمون بدورهم ما كان كتب لهم الإرتفاع الى مستوى هذا التاريخ ، لولا سيطرتهم على سوريا سنة 1516 .

لا شك في أنني متطرف في إطلاقي تسمية الجزر على هذا العوالم ! لكن ألا تبدو البلاد المتوسطية مجموعة من المناطق التي تحملها عزلتها على أن تبحث الواحدة منها عن الأخرى ؟ يؤكد هذه الواقعة العميقة ضعف أهل المتوسط وانتقالهم الدائم من مكان إلى

مكان ، على الرغم من طول المدة التي يستغرقها الإنتقال بحراً كان أم براً بين هذه العوالم . لكن هذه الذبذبات من التنقل والإتصال لا تحدث إلا كشحناتٍ كهربائية عنيفة ومتقطعة . ثم إن تاريخ الجزر يبدو لنا كصورة مكبرة للتاريخ المتوسطي برمته . صورة تساعدنا على فهم كيف حافظت كل منطقة متوسطية على فرادةٍ ونكهةٍ محليتين وسط الإختلاط العجيب للأعراق والديانات والأخلاق والحضارات .

وحياة البحر لاَ تأخذ الجزر والسواحل فحسب في شباكها ، بل هي تخترق الأعماق القارية البعيدة والمقفلة على نفسها . أي أشباه الجزر القارية : شبه الجزيرة الأيبيرية ، إيطاليا ، شبه جزيرة البلقان ، آسيا الصغرى ، وشمال إفريقيا . هذه العوالم القائمة بذاتها تتشابه بجبالها الضخمة وهضابها وسهولها وجزرها وأساليب عيشها وانخراطها في حياة البحر . إنها العوالم المتوسطية الأغنى بعدد سكانها وإمكاناتها . وهي أيضاً الكائنات التي كانت دائماً في محل الصدارة ، وعلى نحو متناوب ، من الإمساك بزمام قيادة المتوسط ، بعد مراكمة كل واحدة منها للقوة والسلطان . ثم إن هذه العوالم متجانسة على المستوى التاريخي ، ولها حدود واضحة تجعل منها « تعبيراً جغرافياً » . أي إن كل عالمٍ منها يشكل جسماً تاريخياً شغلته وتعاقبت عليه الأحداث نفسها ، الأمر الذي أبقاه أسير حدود حيزه الجغرافي . وعلى الرغم من أن الحدود ـ الحواجز هذه غالباً ما كانت تُخترق ، فإن كل واحدة من الجزر القارية المذكورة أعلاه كانت كناية عن « شخص » قائم بذاته (على نحو ما كان ميشليه يقول عن فرنسا) . « شخص » مستقل وممتلك فرادته ونكهته الخاصة . وفي كل مرة استطاعت فيها واحدة من أشباه الجزر هذه من إنجاز وحدتها السياسية ، كان يحدث تغير كبير في المتوسط كله . لنتأمل في نتائج الوحدة اليونانية التي أقامها المقدونيون ، وفي نتائج الوحدة الإيطالية مع الرومان ، وفي نتائج الوحدة الإسبانية مع الملوك الكاثوليك في القرن السادس عشر ؛ لنتأمل في نتائج هذه الوحدات لنرى كيف تصير هذه العوالم ، المقفلة من الجهة القارية والمفتوحة على البحر ، عدوانية حين تقوى ، ويتم إحتلالها حين تضعف . ألهذا كانت تقوم بين هذه العوالم روابط ثنائية تجعلها تعيش كأزواج ؟ فسيطرة إيطاليا لمرة واحدة على مثيلاتها من أشباه الجزر القارية ، بعد سيطرتها على البحر كله ، لم تكن أكثر من استثناءٍ لهذه القاعدة العامة . ذلك لأن الفتوحات كانت تحدث دائماً بين زوجين متقاربين من أشباه الجزر : شمال إفريقيا وإسبانيا من جهة ، والأناضول والبلقان ، من جهة أخرى . هذا مع العلم أن روابط الزوجين الأولين القوية تعرضت لقطيعة في سنة 1492 ، من دون أن تغني هذه القطيعة أن تلك الروابط يمكن لها أن تفني ، لأنها كانت تختصر حياة البحر . وعلى نحو متبادل كان كل واحد من هذه العوالم غازياً ومغزواً، أما في الفترات الصامتة فيكون

كل عالمٍ يحضّر لانفجارات المستقبل . فاحتلال البربر لاسبانيا في القرن الثامن كان قد سبقه نمو ديموغرافي هائل في المغرب ، واحتلال الاتراك للبلقان كان قد سبقه أيضاً إزدياد في عدد سكان آسيا الصغرى الذي رافقه انتقال أولئك السكان من البداوة الى التوطن . لكن هذه الفتوحات كانت دائماً تؤدي إلى إنهاك هذه العوالم . والمثال الأبرز على ذلك الإنهاك هو الفقر البشري الذي أصاب إيطاليا غداة إحكام روما سيطرتها على المتوسط كله .

كانت الهيمنة السياسية والحضارية والإقتصادية تنتقل ، دائماً ، من شبه جزيرة إلى أخرى . لكن عناصر الهيمنة كانت غالباً ما لا تتوافر مجتمعة في شبه جزيرة بعينها . أما إذا توافرت كلها في واحدة منها ، فكانت لا تتوافر إلا في فترات متباعدة . وفي ليل ذلك الماضي الطويل كان هنالك قانون فزيائي يلعب دوره : من الممكن أن تكون حياة البحر قد جذبت اليها أول ما جذبت الأجزاء الخفيفة أو الصغيرة من اليابسة ، أي الجزر وأجزاء من السواحل . لكن الحياة العامة للمجموعة المتوسطية كانت تجذب في حركتها القوية والمتطلبة أجساماً أكثر ضخامة ، كأشباه الجزر القارية . آنذاك كانت ترتفع نبرة تاريخ البحر . والساعات الحاسمة هي تلك التي يحدث فيها أن تقلب حياة البحر نحوها قاراتٍ بأكملها . هكذا رأينا سيزار في الفول ، والاسكندر في الهندوس ، والعرب في الصين ، والمغاربة في النيجر . . . وفي تلك الساعات الكبرى كان يتسع متوسط التاريخ إلى ما لا نهاية . فإلى أين يجب علينا أن نوسّع مجال هذا البحر ، وما هو قدره ؟!

الفصل الثالث

تخوم المتوسط الأكبر

المتوسط حيز متحرك لا تقتصر دائرته على حدوده الجغرافية ، الأمر الذي يحملنا على استبعاد تحديد الجغرافيين والجيولوجيين الشائع عند الحديث عن المتوسط التاريخي الذي تصل حدوده الى البحر الأحمر والخليج الفارسي . هم ، في رسمهم لحدوده ، يولون أهمية قصوى للمناخ ـ وهو عامل يجب عدم إغفاله ـ الذي لا يساعدنا في التعرف على « المتوسط الأكبر » ، متوسط الأبعاد التاريخية الذي صنعه البشر بتجاوزهم للحدود والمناخ . أما المتوسط الذي نعمل على تحديده ، متوسط التاريخ والبشر ، فهو كناية عن حيز ـ حركة ، يمتد دورياً إلى أبعد من شواطىء البحر وفي الإتجاهات كلها ، على نحو ما يمتد حقل مغناطيسي أو كهربائي ، أو على نحو ما تنتشر إشاعات ضوئية تنطلق من بؤرة ويتلاشى نورها شيئاً فشيئاً ، من دون أن نستطيع رسم حدود ثابتة بين الضوء والظل . لذا ينبغي الحديث عن عشرات الحدود في آن معاً : الحدود التي ترسمها السياسة والحضارة والإقتصاد والتاريخ . . . أي الحدود المتحركة التي يرسمها إنتقال البشر والمنتجات المادية وغير المادية .

نستطيع ، في الغالب ، أن نقرأ قدر المتوسط من هوامشه الخارجية بسهولةٍ لا يوفرها قيامنا بالقراءة إنطلاقاً من قلبه الذي تختلط فيه النشاطات كلها ، وحيث كان حدوث اهتزاز أو انهيار في مجال ما ، إقتصادياً كان أم سياسياً أم إجتماعياً . . . إلخ ، يحمل حياة البحر العامة على توسل إستدراك هذا الاهتزاز أو الإنهيار وتعويضه بحسب قانون صَعُب على المعاصرين إدراكه . مثالنا على ذلك أنه بنتيجة التقدم التركي في المشرق ، دأبت التجارة الغربية على إيجاد أسواق بديلة لها في شمال إفريقيا . ثم إن إيطاليا في نهاية القرن السادس عشر ما كان كتب لها أن تحافظ على ازدهارها من دون

توسع الحياة الإقتصادية للمتوسط باتجاه الشمال ، أي باتجاه جنوب ألمانيا ووسط أوروبا .

1 ـ الصحراء : وجه آخر للمتوسط

للمتوسط التاريخي قطبان : القطب الصحراوي في الجنوب والقطب الأوروبي في الشمال . وكانت الطبيعة قد حضرت على مدىً زمني طويل لإحداث هذه الإزدواجية بين عالمين مختلفين يتواجهان على أصعدة عدة : الجغرافيا ، التاريخ ، أنماط الحياة اليومية .

ولكي نرسم شخصية القطب الصحراوي للمتوسط ، يجدر بنا أن نميز بين نوعين من الحدود . هناك أولاً الصحاري الإفريقية والآسيوية الواسعة والممتدة الى مسافات هائلة في عمق كلٍ من القارتين المذكورتين ، وهناك ثانياً الحدود التي ترسمها أطراف هذه الصحاري في إقترابها من البحر ، حيث أقام الإنسان ، ببطءٍ وعلى مدىً زمني طويل ، شبكة من أشجار النخيل . والصحراء تلامس المتوسط من جهات ثلاث : الصحراء الليبية من الجنوب ، والصحراء السورية خلف جبال لبنان ، والصحراء الواقعة شمال البحر الأسود . وعلى هذه المساحات الشاسعة كانت القوافل تلتقي مع تجارة المشرق وتشتبك بها ، ليس فحسب عند بواباتٍ أساسية كمصر وسوريا ، حيث كانت تعبر ، في القرن السادس عشر ، تجارة المشرق كلها ، بل أيضاً عند تخوم الصحاري البعيدة التي كانت تنقل حياة البدو إلى السواحل .

كان يلزم نهار واحد لاجتياز مسافة بين مدينتين متوسطتين ، أما في المساحات الشاسعة المترامية على بعد آلاف الفراسخ من المتوسط ، فكانت تلزم أسابيع أو أشهر للانتقال بين مدينتين . مثال ذلك الإنتقال من نيجيريا إلى النيل الأعلى إلى البحر الأحمر فإيران فتركستان فالهند . لذا كان الانتقال الدائم للتجمعات واقتصادها والحراكية الهائلة في نشاط المدن فضلاً عن الضعف وانتقال القوافل ، كان هذا كله كناية عن رد البشر على عيشهم الموزع أو المنتشر في ذلك الإتساع المترامي . فإذا كانت الهجرة من القرى إلى المدن هي إحدى خصائص مجتمعات القطب الأوروبي من المتوسط ، فإن الرحيل عن المدن هو إحدى أهم علامات تاريخ البلاد الجافة التي تشبه مساحاتها المترامية البحر ، وليس للإنسان فيها مكان إلا بوصفه مسافراً أو منتقلاً ، كأنه في ذلك ضيف عابر لا يقيم إلا على نحوٍ مؤقت . فاليابسة هناك ليست إلا بحراً بلا مياه . وهو بحر أكثر إتساعاً من المتوسط بأضعافٍ مضاعفة . يابسة هائلة الإتساع وفارغة ، والبلاد فيها غالباً ما كانت نهباً للفقر والعوز . أما الموسرة منها ، مثل بغداد ، فكم من فقير فيها كان يحلم كشخصيات ألف ليلة وليلة ، برغيف من خبز الحنطة وقليل من الزبدة ، إذا لم يقتنع برغيف من الشعير . إنها بلاد جرداء قاحلة ، لا مياه فيها ولا شجر ولا خضرة ، إلا في تلك البقع القليلة المسماة « مراعي » . وكم كانت نادرة وثمينة الخزانات المصنوعة من

خشب الأرز في بلاد الإسلام . فبينما كانت الأزمة في المتوسط تتمثل بالحاجة إلى الأخشاب لصناعة السفن ، كانت تلك البلاد تعاني من مشكلة تدبر أواني المطبخ المصنوعة من الخشب الذي كانت المدن الفنية تشكو من حاجتها اليه . وفي تلك المساحات الشاسعة من الفراغ الموحش والمعادي ، لم يكن الرعب فيزيائياً فحسب ، بل بيولوجياً أيضاً . الأمر الذي كان يُحتّم على البشر العيش كجماعات متلاحمة في الواحات ، حيث الصحراء هي وطن الحمار والحصان والجمل الذي كان له الدور الأول في ذلك الوسط ، بينما كان الإنسان كناية عن طفيلية تابعة له . كم كانت الحياة قاسية وصعبة في تلك الصحاري التي لم تكن الحياة فيها من السحر الذي يتمثل في شعرها وأوهامها .

كان البدو المتنقلون في تلك القفار يصارع بعضهم البعض الآخر على الآبار والمراعي . لكن غزوهم للحضر كان أسهل عليهم ، لأنهم كانوا متى أرادوا يصلون إلى أبواب كلٍ من حلب والإسكندرية والقاهرة . أما الحياة الداخلية لمجتمعات البدو الصحراويةِ فكانت تكشف عن تنظيم وتراتب وممارسات معقدة ، وعن تشريع حقوقي مذهل . وذلك على عكس ما كانت صورتها الخارجية التي تبديها كغبار تبدده الرياح . وفي هذا السياق علينا أن نميز بين صنفين من البدو : البدو الجبليون الذين كانوا يتنقلون في دوائر ضيقة مساحاتها ، وكبار البدو الذين كانوا يتنقلون في مساحات واسعة ليصلوا الى شواطىء البحر . فهؤلاء كانوا يبدأون رحيلهم ، في كل سنة ، من الجنوب إلى الشمال ، قاصدين المراعي التي كانت تيبس نباتاتها بالتدريج من الجنوب إلى الشمال . هكذا كان طلبهم للخضرة يقودهم الى شواطىء المتوسط ، حيث لم تكن حواجز الحضر منيعةً بوجه هجماتهم ، من آسيا الصغرى حتى شمال إفريقيا مروراً بسوريا . ففي تشرين الثاني من العام 1573 إستطاع دون جوان النمساوي أن يسيطر على تونس ، لأن البدو كانوا قد رحلوا عن شواطئها . وفي آب من العام 1574 لم يستطع الأتراك من السيطرة على تونس نفسها إلا لأن البدو كانوا في جانبهم . هكذا كانت حركة البدو من السهوب إلى البحر ومن هذا الأخير إلى السهوب إحدى علامات تاريخ المتوسط ودورة من دورات حياته . وإذا كان البدو يتنقلون بحثاً عن المراعي ، فإنهم من وجهٍ آخر كانوا بحاجةٍ إلى أرضٍ يحرثونها ويستنبتونها وإلى مدن يجعلونها مراكز لتموينهم وقواعد لنظمهم السياسية . فقبيلة الشبية ، مثلاً ، نجحت في السيطرة على مدينة القيروان التونسية والإقامة فيها في أثناء انحطاط أسيادها المحليين ، في الخمسينات من القرن السادس عشر . لكن الدولة التي أقامها البدو في تلك المدينة ما لبثت أن توارت في العدم وكأنها ولدت من عدم . ومثل هذه الواقعة كررها التاريخ آلاف المرات انطلاقاً من الشروط نفسها .

وللبدو أيضاً غزواتهم الصامتة ، على نحو ما حدث في الأناضول بنهاية العصر الوسيط . ففي المدن الأناضولية التي كان يسكنها الروم ثار الفلاحون واعتنقوا الدين الإسلامي ، فانضم البدو إلى صفوف الفلاحين ، الأمر الذي أدى إلى سيطرة الإسلام على هذه المدن المسيحية ، وإلى بدء البدو بالتخلي عن بداوتهم لاتباع حياة حضرية متوسطية بسيطة . وهذا دليل على أن علاقة البدوي بالحضري المقيم لا تتسم فقط بالعداوة وتقوم فحسب على الصراع الدائم . فالبدو غالباً ما كانوا يُستَدعون إلى السواحل لاستخدامهم في الزراعة . لكن مجيئهم غالباً ما كان يتزامن مع إنهاك خصوبة الأرض الزراعية وحاجتها إلى الراحة ، كأن العدوين ، البداوة والإقامة ، كانا يتكاملان . فالبدوي كان يستفيد من نقاط ضعف المقيم . ومن دون هذا « التواطؤ » بين الحضارتين ، حضارة البدو وحضارة المقيمين ، لا يمكن فهم شيء من هذه المأساة المترجرجة . لقد كان البدو في شمال إفريقيا يساعدون أحياناً على توفير أسباب الاستتباب لنظام ما ، ويتحالفون حيناً مع المدن ضد الغازي التركي الذي لم يستطيعوا الإنتصار عليه ، بسبب استخدامه لسلاح المدفعية . وببروز هذا السلاح تم ، في نهاية القرن السادس عشر ، طرد البدو من اللعبة التي كانوا طرفاً فاعلاً فيها . هذا ما حصل أيضاً لبدو الكازان على نهر الفولكا ، وللمغول في شمال الصين ، وللبدو في الشرق الأوسط .

في الحديث عن العلاقات التجارية في البادية يجدر ، أولاً ، التمييز بين التاريخ العادي للبدو وبين رحلات القوافل التجارية لمسافات طويلة على تخوم الصحاري . كانت هذه الرحلات الطويلة تصل المتوسط بكل من الشرق الأقصى والسودان . والإختلاف بين تاريخ البدو وتاريخ هذه الرحلات الطويلة كالإختلاف بين الملاحة البحرية والقرصنة . فالقوافل هي من أعمال التجار ، أي المدن ذات الإقتصاد المزدهر على مستوى عالمي . والمدن هذه كانت تعمل دائماً على توفير الحماية لقوافلها التجارية من هجمات البدو النهابين . لذا كانت قوافل التجار والحجاج الضخمة المنطلقة من القاهرة إلى مكة تسير بحماية 600 جندي . ومن المحتمل أن تكون التجارة الصحراوية (تجارة الملح والعبيد والنسيج والذهب) قد نمت وازدهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من دون أن تقوى الاكتشافات البحرية البرتغالية على إيقافها إلا في غضون القرن السابع عشر . والطريقان اللتان كانت تسلكهما هذه التجارة في كلٍ من مصر وسوريا هما المعروفتان بطريقي الذهب والتوابل اللتين كانت القوافل التجارية للشرق الأوسط تستخدمهما : الأولى طريق سوريا والقاهرة المتجهة إلى مكة ، والثانية طريق حلب دجلة . أما الفرات فقد تم إهماله لأنه لم يكن صالحاً للملاحة إلا حين راح الجيش التركي يستخدمه كخط مواصلات عسكرية . والطريقان المذكورتان كانتا تتجهان الى

المحيط الهندي . الأولى مروراً في البحر الأحمر والثانية مروراً في الخليج الفارسي . هذه الطرق كلها كانت مستخدمة منذ القرن الثاني عشر ، بوصفها صلة الوصل بين البحر المتوسط والمحيط الهندي اللذين كانا يشكلان كائناً واحداً بسبب قصر المسافة بين الساحل السوري والخليج الفارسي . والقوافل التجارية في اجتيازها الطرق هذه كان عليها أن تستخدم وسائل كلٍ من النقل البري والبحري في آن معاً . لكن علينا ألا ننسى الجهد المضني الذي كان يتطلبه اجتياز حواجز الصحراء ، للوصول إلى إقامة صلة بين اقتصادين مستقلين التقت مصلحتهما على تبادل الذهب والبهار : الذهب الذي كانت تحتاج إليه بلاد المحيط الهندي ، والبهار الذي كانت تحتاج اليه بلاد المتوسط . الأمر الذي يحملنا على القول إن تجارة المشرق كانت غير « طبيعية » ، خاصة إذا فكرنا بالجهد الهائل الذي كان يتطلبه نقل شوالٍ من البهار من الهند إلى حلب ومن هذه الأخيرة إلى البندقية .

نعود إلى الصحراء التي يبدو مشهدها للغربي كناية عن مساحات مقفرة يتنقل فيها كل من البدو والقطعان . نعود إليها لنلاحظ أنها ليست مساحة نقل فحسب . هنالك المدن الثابتة والأراضي الخصبة التي تحط بالمدن . مدن وأرض خصبة أقامها سكان الشرق الأوسط منذ آلاف السنين . فمصر في القرن السادس عشر كانت ضفتين مزروعتين ، وبلاد ما بين النهرين كانت تحوي 25 ألف كلم^2 من الحدائق المنتجة . وعلى الرغم من أن مثل هذه المساحات تبدو ضيقة على الخارطة ، فإنها كانت مراكز لتراكم السكان الذين أقاموا مدناً زراعية على ضفاف قنوات الري . مدن ذات قوانين دقيقة وأنظمة استبدادية صارمة (لنتذكر شرائع حمورابي) . فمثل هذه المدن كانت أشد استبداداً من الإستبداد الذي عرفته سهول المتوسط ، بالرغم من تشابهها في حاجتها لاستهلاك أعداد لا تحصى من البشر . فالواحات الصحراوية قبل أميركا عرفت استعباد السود ، ومصر حافظت طوال حياتها على علاقة وطيدة مع السودان ، لذا يبدو دم السود واضحاً في بشرة فلاحي النيل . وبلاد ما بين النهرين كانت تستورد البشر من الجبال التي تحيط بها من الشمال والشرق . وحين يُقال إن الأتراك هم من محقوا حدائق ما بين النهرين ، ينسى القائلون الحقيقة التي يؤكدها التاريخ والتي تقول إن تلك البلاد تنقطع عن خزانها البشري الضروري لحياتها حين تنفصل انفصالاً تاماً عن إيران وتنقطع عنها . أضف إلى هذا حاجة بلاد ما بين النهرين الدائمة إلى حماية نفسها من أخطار هجمات البدو عليها . فما من قرية في تلك البلاد إلا وكانت تمتلك برجاً لمراقبة غارات البد وهجماتهم المتوقعة . ومما لا شك فيه أنه من قلب تلك الواحات الخصبة ولدت « الحضارة الشرقية » التي ليس الإسلام إلاَّ استعادة لها بعد مرور آلاف من السنين على

ولادتها . ففي تلك الواحات ـ « الجنات » الأولى في الأرض استخدمت أولى الأدوات الزراعية وأقدمها ، من دون أن يعني هذا أن تلك الأدوات كانت القاعدة التي نهض عليها الشرق . فعلى العنصرين المتعارضين والمتكاملين في آنٍ معاً (الترحال والإقامة) إرتكزت الحياة الصحراوية التي أصرَّ الجغرافيون على اعتماد أحد هذين العنصرين قاعدة لقراءتها وتفسيرها . فما بالهم لم يدركوا أن البدوي يستفيد من ثبات المدن ، وأن المدن تستفيد من ضعف البدوي ! أليس الإثنان عنصرين في تاريخ أشمل من تاريخ كل واحدٍ منهما ؟ إنهما العنصران الضروريان لفهم التاريخ الكبير والفريد للإسلام ، إبن الصحراء .

الصحراء كالبحر ، حركة ، كما هو الإسلام أيضاً حركة . وكما هي المساجد والمنارات والأسواق من صلب حضارة الإسلام ، فإن الصحراء بقوافلها وحراكيتها هي أيضاً من صلب حضارته ، فضلاً عن أنها ركيزة تجانسه البشري . لنتجنب السهولة ، إذن ، ونقول إن الإسلام هو شمول ما تبعث عليه الصحراء من تعدد في عوالم الواقع البشري وفي أوجه نشاطه : لقد اعتاش الإسلام ، وهو كناية عن طريق طويلة من الأطلسي إلى الهندي ، على كبريات القوافل التي كانت تعبر دياره الواسعة ، وعلى المناطق الساحلية بحاضراتها المنتشرة على كل من المتوسط والمحيط الهندي والبحر الأحمر ، وأخيراً على احتمال تحقق تلك الفرصة التاريخية التي أتاحت ، إبتداء من القرن السابع ، إمكانية توحيد العالم القديم الواقع بين عوالم كثيفة السكان : أوروبا ، إفريقيا السوداء ، والشرق الأقصى . قام الإسلام بذلك كله ليمتلك السيطرة على المعابر الضرورية لحياته ، وليتصدى لوظيفته الهامة بوصفه وسيطاً لا يعبر شيء في دياره من دون إرادته . لقد كان الإسلام ذلك العالم الذي ستصيره أوروبا المنتصرة على مستوى الكرة الأرضية كلها ، فيما بعد . ولكن علينا ألا ننسى نقاط الضعف التي كانت تعتري ذلك الجسم الإسلامي الضخم : الحاجة الدائمة إلى البشر ، عدم اكتمال الوسائل التقنية ، الصراعات الداخلية التي كان الدين حجتها بقدر ما كان سببها ، صعوبة السيطرة على الصحراء الباردة التي كانت مصدراً للخطرين التركي والمغولي اللذين يهددانه ويقلقانه ، وأخيراً ذلك الضعف الناجم عن وقوع الإسلام أسير نجاحاته السهلة وأسير إحساسه بأنه في مركز العالم وبأنه وجد حلولاً ناجعة لكل شيء من دون أن يجتهد سعياً وراء إبتكار غيرها . فالبحارة العرب ، مثلاً ، كانوا يعرفون كلاً من جهتي إفريقيا الأطلسية والهندية ، وكانوا يقدّرون أيضاً أن المحيطين متصلان عند سواحلها الجنوبية ، لكنهم قنعوا بمعرفتهم وتقديراتهم ولم يهتموا باستكمالها وتوظيفها في عمليات الملاحة البحرية .

في القرن الخامس عشر إنطلق إسلام آخر : إنه الإسلام التركي « الشمالي » ذو

العاصمة البحرية الواقعة في أوروبا . هذا الإسلام الجديد أصر على « تحضير » البدو إصراره على التنظيم وفق طرازٍ أوروبي . لكن هذا الإصرار المزدوج أدخل السلاطين العثمانيين وولاتهم في صراعات من غير طائل ، أخفت عن بصيرتهم الأهداف الحقيقية التي كان عليهم السعي في سبيلها : توقفوا عن متابعة حفر قناة السويس الذي بدأوه في العام 1529 ، وبدل أن يحسموا صراعهم مع البرتغاليين في سنة 1538 تراجعوا إلى صراعاتٍ داخلية مع الفرس ، استنكفوا عن السيطرة على الفولغا وعن إعادة فتح طريق الحرير في الشمال ، استرسلوا في إشعال حروب في المتوسط ، فيما كان يتحتم عليهم الخروج منه . . . هكذا أضاعت الامبراطورية العثمانية فرصاً كثيرة لا تفوّت .

2 ـ أوروبا والمتوسط

يتردد المؤرخ حين يبدأ برسم خارطة للعوالم المتعددة لأوروبا المتوسطية . فالتاريخ كعادته تدخّل هنا أيضاً في صياغة مصائر الموجودات والكائنات والخبرات . والمتوسط في تأثيره الكبير على جنوب أوروبا لم تكن مساهمته عادية في الحؤول دون وحدتها ، وذلك بسبب جذبه لجنوبها اليه . ففي مقابل أوروبا الشمالية ، بلاد الغابات الكثيفة والمروج الواسعة والأنهار العريضة الصالحة للملاحة ، تعتبر أوروبا الجنوبية بلاد الجنائن والكروم . ثم إن الشمال هو بلاد البيرة بامتياز ، وحيث المشروبات الأخرى التي يحتاج اليها مصنوعة كلها في الجنوب . وبالنسبة للأوروبي المتوسطي كان الشمال ، الذي نادراً ما عرف الأشجار المثمرة المتوافرة بكثرة على سواحل المتوسط ، بلاداً غريبة ، وحيث النبيذ مشروب ترف والسكان بدائيين وبرابرة . فأوروبا هي أيضاً تنوع وتعدد ، دخلتها الحضارة على نحوٍ متفاوت ، وفي تواريخ متباعدة ، ومن طرق مختلفة . دخلتها أولاً من طرق الجنوب التي نقلت الى جسمها روحاً متوسطية واضحة . ثم ما لبثت أن تلقت تأثيرات الغرب المسيحي التي انتشرت فيها وفق خطوط العرض ومن طرق البر والبحر . وبمواجهة أوروبا وجد المتوسط نفسه أمام مناطق ومجتمعات وحضارات غير متجانسة ، في أصولها وفي مستوياتها الثقافية والإقتصادية . أما أسباب عدم التجانس هذا فتعود إلى تلقي أوروبا للخبرات المتوسطية بوتائر وأشكال مختلفة ومتباينة ، الأمر الذي أدى إلى خلق أربع مجموعات أوروبية اختزنت كل واحدة منها التاريخ على نحو يجعلها مختلفة عن الأخرى . وهذه المجموعات الأربع هي كناية عن أربعة برازخ : البرزخ الروسي ، البولوني ، الألماني ، والفرنسي .

ـ لم يشهد البرزخ الروسي في القرن السادس عشر عمليات تبادل واسعة مع المتوسط ، ولم يتصل به . فالجنوب الروسي كان فارغاً إلا من التتار وبعض العصابات البدوية . وفي القرن الثامن عشر وجد الاستيطان الروسي أمامه هذه المساحات الشاسعة

والخالية إلا من تجواب البدو ورعيان الجمال والخيول في أرجائها . لكن الروس لم يرتبطوا بالجنوب لأنهم كانوا منجذبين إلى الشمال ، حيث الإزدهار الإقتصادي المتمحور حول بحر البلطيق ، وإلى بلاد فارس في الجنوب الشرقي ، وذات التأثير البالغ على حياتهم . وروسيا في الأصل ليست أوروبا ، بالرغم من أنها كانت في طريقها إلى الأوربة تحت تأثير استخدام الغرب لطرقاتٍ تمر فيها ، لتسهيل سبل التجارة الشرقية . فللوصول الى توابل الهند والصين اتخذ الإنكليز طريقاً برياً ـ بحرياً تدور حول أوروبا من جهة الشمال ، بدل الدوران حول إفريقيا عِلى نحو ما فعل البرتغاليون . ففي سنة 1553 أرسلت جمعية من التجار الإنكليز باخرة للبحث عن هذه الطريق الشمالية ، فوصلت الباخرة صدفة إلى جون سان نقولا على بحر البلطيق ، بعد عبورها بحر الشمال ودورانها حول الدانمارك . وباكتشاف هذه الطريق بدأ الإنكليز يصلون إلى الشرق لتنقل منه بواخرهم ، مروراً في الحيز الروسي ، بهار كل من الهند والصين وتوابلهما وحريرهما ، بعد عبورها نهر الفولغا . لكن الإنكليز ما لبثوا أن تخلوا عن هذه الطريق في سنة 1575 ، ليعودوا إلى اعتماد طريق المتوسط التي تمر في سوريا . حمل هذا التخلي الروس أنفسهم على القيام بهذه التجارة ، مستخدمين طريق الشمال . كان رد الإنكليز على هذا الأمر عزمهم ، في سنة 1582 ، على الإتفاق مع تركيا من أجل تحويل طريق تجارة المشرق عن مرورها في سوريا باعتماد طريقاً أخرى لها تمر في البحر الأسود ، على أن تكون القسطنطينية محطة من محطاتها . على الرغم من عدم نجاح هذا المشروع ـ المغامرة الذي كان سيعطل نجاحُهُ طرق التجارة البرتغالية والسورية ، فإنه يظل شاهداً على أهمية البرزخ الروسي في تجارة المشرق .

ـ حتى القرن الثالث عشر ظل البرزخ البولوني يحصل على ما يحتاج إليه من البهارات والتوابل من طريق البحر الأسود الذي أدى تقاسم كل من تركيا وجنوى السيطرة عليه في القرن السادس عشر إلى انفكاك صلة البرزخ المذكور الوطيدة بذلك البحر . لكن بالرغم من انجذاب هذا البرزخ إلى تجارة بحر البلطيق ونهر الدانوب غرباً للإفادة من حاجة أسواق البلاد الواطئة للقمح والأخشاب فإن صلة هذا البرزخ بالبحر الأسود لم تنقطع تماماً إلا في القرن السابع عشر . هذا التأرجح أبقى دانتزنغ البولونية مركزاً تجارياً كبيراً ومحدود النشاط في آن معاً ، لصدوعها إلى تقلبات الأسعار في أسواق أمستردام من جهة ولضعف تطور الإقتصاد البولوني من جهة أخرى . وفي غضون النصف الثاني من القرن السادس عشر ، الذي شهد انتقال مركز الثقل التجاري إلى الشمال وشهد أيضاً وحده بولونية في العام 1590 ، إنتقلت العاصمة البولونية من كركوڤي إلى فرصوڤيا التي كانت في الأصل مدينة جد متواضعة . لكن هذا الإنقلاب

الإقتصادي والسياسي وضع بولونيا في مواجهةٍ خاسرة سلفاً مع كل من السويد وروسيا . أما جنوب بولونيا الذي تفوق عليه شمالها ، فقد احتفظ بتجارتين لا يستهان بهما : الأولى تنطلق من هنغاريا وموراڤيا حاملة النبيذ وقطعان الماشية الى بولونيا ، والثانية تتجنب هنغاريا وحروبها لتصدير منتجات بولونيا من الفرو والجلد والعنبر والنسيج إلى كل من البلقان والقسطنطينية . وفي مقابل سماح تركيا بعبور هذه المنتجات البولونية في أراضيها حصل كل من التجار الأرمن واليهود والأتراك الروم على حق الإتجار في بولونيا . لكن تجارة بولونيا الجنوبية ما كان لها أن تُقارَن بالتبادلات التجارية الضخمة على سواحل البلطيق في الشمال البولوني . ذلك لأن هذه التبادلات كانت تربط بولونيا بكلٍ من ألمانيا وفرانكفورت وتجارة ألمانيا الجنوبية التي كانت تصل إلى البندقية في إيطاليا .

في القرن السادس عشر لم تكن بولونيا تحتاج إلى مزيد من الحيوية التجارية لتحافظ على مكانتها ، بقدر ما كانت تحتاج إلى نظام نقدي ناشط ومتحرك ، إذا أضفنا جموده وضموره الى هشاشة نظامها الإجتماعي والسياسي الجمهوري والى انعدام توافر جيش حديث فيها ، نستطيع أن نقدّر لماذا ارتد جنودها المرابطون على حدودها الروسية فاجتاحوها وخربوها في العام 1591 ، بعدما عجزت حكومتهم عن دفع رواتبهم المستحقة . ومن وجهٍ آخر يفسر لنا نهوض الشمال وتفوقه إقتصادياً على الجنوب الأسباب العميقة التي حملت بولونيا على الاتجاه شمالاً في صراعاتها السياسية والعسكرية وعلى اتباعها سياسة سلام مع العثمانيين في الجنوب .

ـ كان البرزخ الألماني يشغل أوروبا الوسطى كلها : من فرنسا غرباً وصولاً إلى هنغاريا وبولونيا شرقاً ، ومن بحر الشمال وبحر البلطيق شمالاً إلى كلٍ من البحرين التيراني والأدرياتيكي جنوباً . لقد كان شكل هذا الحيز الكبير فريداً في إتكّاء جنوبه على إيطاليا الشمالية وفي امتداده على مساحات برية شاسعة تتجاوز جبال الألب . وكانت الطرق التي تخترق هذا البرزخ متقاربة في جنوبه متباعدة في شماله ، بينما كان الألب يقف في قلب أوروبا الوسطى كحاجز طويل يصعب اجتيازه . لكن هذه الصعوبة لم تحل دون عبور الألب منذ الأزمنة الغابرة ، الأمر الذي يفسر قيام مجتمعاته الجبلية وقراه بمحاذاة الطرق التي كانت تخترقه والبالغ عددها 21 طريقاً كان لكلٍ من التجار والمدن الفضل في تحسينها وتسهيل المرور عليها استناداً إلى معطيات جغرافيةٍ سبق اكتشافها وتوارثها . هذه المعابر ـ الطرق أتاحت ربط البحيرات والأنهار بعضها بالبعض الآخر : الرون والراين ببحيرات إيطاليا وأنهارها . وقد أدى هذا الربط إلى تنافس المعابر وتفوق بعضها على البعض الآخر بنتيجة تفاوت حاجات المدن الى عبورها واستخدامها . لذا نستطيع

أن نتبين وجوهاً متعددة لألمانيا : من الجنوب إلى الشمال يبرز تأثرها على نحو متدرج بإيطاليا التي كانت مدنها ، جنوى وميلانو والبندقية ونابولي وروما ، على علاقة وطيدة وقديمة بألمانيا . فالتوابل والبهارات والقطن التي كانت تصدرها هذه المدن باتجاه الشمال كانت تمر في ألمانيا ، لتعج البندقية بالتجار الألمان . هذا ما يحملنا على القول إن ألمانيا نمت من الجنوب الى الشمال على نحو متدرج ، في ظل اتصالها بإيطاليا ، وهو اتصال أتاح لألمانيا الجنوبية القيام بالأدوار الثانوية التي وحّدت الألمان والإيطاليين وحملت إشعاع الحضارة الإيطالية باتجاه الشمال . أما إذا اتجهنا من غرب ألمانيا إلى شرقها ، فإن ألمانيا أخرى ، قليلة الإعمار ، تطالعنا . وحدهَ ازدهار المناجم أقام ، في النصف الأول من القرن السادس عشر ، سلسلة من المدن الجديـدة في تلك النواحي من ألمـانيا . وفي النصف الثاني من القرن نفسه عرفت كل من ألمانيا وأوروبا الوسطى صناعة معدنية مزدهرة ومتنوعة ، بالرغم من منافسة المعادن الأميركية للمعادن المستخرجة من المناجم الألمانية . وفضلاً عن هذين الوجهين لألمانيا هناك وجه ثالث لها يستمد خصوصيته من صلته بالبلاد الواطئة الممتدة كلسان في بحر الشـمال والمستفيدة من انبعـاث الحياة في المحيط الأطلسي .

كان الوجه الأبرز الناجم عن هذه التبادلات التجارية وعما يحف بها ، هو رجحان كفة ألمانيا الجنوبية على كفة ألمانيا الشمالية في الميزان التجاري الألماني العام ، فضلاً عن اجتياح السلع الإيطالية كافة أنحاء ألمانيا ابتداء من العام 1558 . أما التجار الألمان الشماليون فلم يبزغ نجمهم إلا بعد اجتيازهـم مرحلة التتلمذ على أيدي التجار الجنوبيين الذين استغلوا لفترات طويلة جهل التاجر الشمالي وتأخره . هذا ما يفسر شكوى المدن الألمانية من إرسال كميات كبيرة من نقدها إلى إيطاليا وحضور التجار الإيطاليين بكثافة في ألمانيا حتى أواخر القرن السادس عشر ، كما يفسر أيضاً بقاء البرزخ الألماني مشدوداً إلى إيطاليا المتوسطية حتى القرن السابع عشر .

- يمكن تحديد البرزخ الفرنسي باقتفاء أثر الطرق التي كانت تمتد من مرسيليا إلى ليون فمنطقة البورغوني فباريس وصولاً إلى روان . ومن هذه الطرق الطويلة كـانت تتفرع طرق ثانوية تربط جهات فرنسا بكل من إسبانيا وأوروبا الوسطى وإيطاليا وأنفير في الشمال . لكن ليون كانت في مركز القلب من هذه الشبكة الضخمة للمواصلات التي كانت دائماً مشدودة باتجاه الشرق والجنوب الغربي ، حيث كانت تنتقل الأموال الإسبانية التي استفادت منها ليون وليدة الرأسمالية الإيطالية على غرار مدينة جنيف . أما انتقال المركز المالي من ليون إلى باريس في الشمال ، فسيكون حدثاً هاماً في المصير الفرنسي .

كانت مدينة ليون ، بنتيجة احتكارها توزيع كافة السلع التي كانت تصل إلى ميناء

مرسيليا ، تمسك بخناق تجارة هذا الميناء المتوسطي الناشطة . فسفن المتوسط ، في أثناء أزمة البندقية وحرب 1570 ـ 1573 ، كانت كلها تصل إلى مرسيليا وتخرج منها . وسفن مرسيليا التجارية كانت كلها في خدمة مصالح كل من جنوى والبندقية وإسبانيا وشمال إفريقيا . هذا فضلاً عن أن مرسيليا كانت أيضاً بوابة خروج شراشف القماش الإنكليزية الى المتوسط . لكن ليون كانت المستفيد الأكبر من هذه الأدوار الهامة التي كانت تلعبها مرسيليا وكافة مدن فرنسا المتوسطية الأخرى . ونمو بورصة مدينة ليون واستصلاح وادي الرون الذي تقع المدينة في وسطه يذكرنا دائماً بفضل التجار الإيطاليين وتأثيرهم في حياة البرزخ الفرنسي كله .

شكل تأرجح مراكز الثقل بين الشمال والجنوب في كل من هذه البرازخ الأوروبية الخطوط العريضة للتأثير المتوسطي عليها . وبالرغم من شبكة الطرق التي كانت تخترقها وتصل واحدها بالآخر ، فإنها ظلت كتلاً أرضية متفاوتة الاستقلال ، غير وثيقة الصلات فيما بينها ، ولم يعمل المتوسط على دمجها لتقف كأوروبا واحدة موحدة في مواجهته . فلا طرق الشمال ـ الجنوب ، على أهميتها وحيويتها ، نجحت في ربط البلدان التي كانت شعوبها ، بالقدر نفسه ، تستخدم هذه الطرق وتعبرها ، ولا البشر بدورهم تمكنوا من تذليل صعوبات المسافات الطويلة والتضاريس التي غالباً ما كانت تحد من قدرتهم على الانتقال . فالجدران الجبلية الواقفة في قلب أوروبا لعبت دوراً سلبياً في عملية اختراق تأثير المتوسط على أوروبا الشمالية . والتأثير المتوسطي بدوره غالباً ما كان يبث جرعاته في اتجاه وسط أوروبا وشمالها على نحو متقطع وغير منتظم . لكن في المقابل تجدر الإشارة إلى أن الطرق التي كانت تخترق أراضٍ غريبة وبعيدة ، كروسيا مثلاً ، لم تكن ، إلى هذا الحد أو ذاك ، إلا كناية عن هيكلٍ لأوروبا المتوسطية . هذا مع العلم أن تأثير البحر لم يكن عميقاً وفاعلاً إلا في مساحات غير واسعة تمتد على سواحله التي جذبها البحر اليه ومنحها إمتيازاً على غيرها من المناطق الداخلية . لكن أثر جذب المتوسط لمدن ساحل أوروبا الجنوبية اليه وأثر الامتياز الذي منحه البحر لهذه المدن ، كانا غير ثابتين وغير متجانسين ، خاصة إذا أمعنا النظر والتفكير في الدين والثقافة والإقتصاد . فمرسيليا مثلها مثل غيرها من الموانىء المتوسطية كانت تستطيع أية مدينة بحرية متوسطية أخرى أن تلعب دورها وتنوب عنها . وبموازاة خط المدن الساحلية المتوسطية يمكن أن نقتفي أثر خطٍ داخلي آخر للمدن الأوروبية الداخلية التي كانت تشكل صلة الوصل بين موانىء المدن المتوسطية وأوروبا الشمالية . على هذا الخط الداخلي تقوم كل من ليون ، جنيف ، بال ، أولم ، أوغسبورغ ، ڤيينا ، كاركوڤين ، ولـو . . . ألم تكن هذه المدن ، على الرغم من توجيهها وجهها شطر المتوسط ، مدناً وسيطة ، أي جنوبية أوروبية وشمالية

أوروبية في آن معاً ؟ وهل يمكننا القول إن حدود أوروبا المعادية للمتوسط تبدأ من شمال الخط الذي تقوم عليه هذه المدن الوسيطة ؟ وحين نقول أوروبا الشمالية المعادية للمتوسط نعني أوروبا الإصلاح والبلدان الجديدة التي أدت نشأتها وأدى ازدهارها وتوسعها إلى بروز ما نسميه الأزمنة الحديثة . ولكن أليست أوروبا هي أيضاً بحر الشمال والمحيط الأطلسي والاكتشافات الكبرى ؟

3 ـ الأطلسي والمتوسط

في القرن السادس عشر لم يكن المحيط الأطلسي قد عرف بعد تجانسه ووحدته ، لأنه كان ما يزال مجموعة من البحار المتعايشة . كان هنالك أطلسي إنكليزي وآخر فرنسي وثالث إسباني ورابع برتغالي . وهذه البحار الأطلسية المرتبطة بتواريخ قومية وجدت بسهولة مؤرخيها الذين أهملوا الأطلسي الشامل أو الكبير الذي يجمع حيوات هذه البحار الخاصة ويعطيها معناها على مستوى التاريخ الشامل للمحيط الأقدم زمناً ، محيط العصر الوسيط بملاحته وعواصفه العنيفة . إنها الملاحة التي كانت تعبر المحيط من شماله إلى جنوبه مشكلة طريقاً بحرية منافسة للطرق البرية في البرازخ الأوروبية مجتمعة . ومن تلك الطريق المحيطية تفرعت البحار الأطلسية ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وفي قلب تلك البحار الأطلسية ، التي ليس للعنف الذي يجتاحها من مثيل في المتوسط كله ، قامت أوروبا بأقسى تجاربها البحرية وأعنفها ، فاكتسبت خبرات ملاحية هائلة كان لها الفضل الأكبر في إعدادها لفتح العالم كله . لكن في مواجهة التاريخ التقليدي الذي يبالغ كثيراً في إضفائه العدائية على علاقة الأطلسي بالمتوسط ، علينا الإقرار بأن المتوسط سيطر لمدة طويلة على جاره الشاسع ، وبأن انحطاط البحر لم يحصل إلا حين فقد سيطرته على المحيط . وباختصار كانت للمتوسط حصته من الثروات التجارية الجديدة التي عبرت الأطلسي في القرن السادس عشر . هذا فضلاً عن أن المتوسط نفسه هو الذي كان يهيىء لنهضة الأطلسي ويعكس على العالم الجديد صوره . فالبرتغاليون الذين اندفعوا بملاحتهم في اتجاه الهند والصين واليابان ، ونظموا تجارة العبيد بين إفريقيا واميركا ، مروراً في طرق البرازيل الداخلية ، حافظوا على موقع لشبونة الهام في تجارة التوابل حتى ما بعد نهاية القرن السادس عشر . وحين بدأ نمو الملاحة في الأطلسي في أواسط القرن الخامس عشر كانت مدينتا جنوى والبندقية الإيطاليتين سيدتي أسواق كل من إنكلترا والفلامند . أما التدهور الكبير الذي أصاب المتوسط فلم يبدأ إلا في أواسط القرن السادس عشر ، حين بدأت السفن الشمالية تسيطر على المواصلات بين بحر الشمال والبرتغال والأندلس في سنة 1550 . لكن هذه السيطرة الشمالية ما كانت لتدخل إلى قلب المتوسط إلا بعد حوالي عشرين سنة من ذلك التاريخ

(1550) ، أي في أثناء الأزمـة الإسبانية الإنكليزية ما بين 1568 و1569 . وهي الأزمة التي حملت الأيبيريين على التخلي عن رحلات الشمال الذي بدأت سفنه بالدخول إلى قلب المتوسط . وعلى الرغم من أن الخسارة ألمت بالمتوسط بنتيجة هذا الدخول ، فإن البلاد المتوسطية لم تصب بالكارثة إلا بعد دوران السفن الهولندية حول رأس الرجاء الصالح ، ذهاباً في العام 1596 وإياباً في العام 1598 . أما أسباب تدارك الكارثة حتى نهاية القرن السـادس عشر ، فيعود إلى بقـاء الأسواق العـالمية مفتـوحة بـوجه السلع الإيطالية ، فضلاً عن بقاء التمـويل الإمـبراطوري الإسبـاني في يد التجـار الجنويـين الإيطاليين .

الفصل الرابع

الوحدة الفيزيائية ـ المناخية والتاريخ

ليس من وحدة للعالم الذي وصفناه إلا في كونه حيزاً لالتقاء بشر وتمازج تواريخ . ولكن لا بد من أن تكون في أصل هذه الوحدة الإنسانية وحدة فيزيائية ومناخية ، فضلاً عن وحدة المَشاهِد وأنماط العيش . فأن يكون المتوسط كناية عن عوالم متشابهة ، تفصل بينها مسافات طويلة : من اليونان إلى إسبانيا ، ومن إيطاليا إلى شمال إفريقيا ، ومن هذه الأخيرة إلى الساحل السوري ، وهي عوالم ـ بلاد ، بالرغم من طول المسافات التي تقوم بينها ، تتنفس كلها من الرئة نفسها وتتبادل الرجال والمنتجات . . . أن يكون المتوسط على هذه الصورة يحتم أن تكون هنالك وحدة حية للبحر ، لا يمكن أبداً أن تكون ديكورية . فها هو ذا شريط الزيتون الضيق يمتد بمحاذاة البحر ، وخلفه الجبال التي تحد المتوسط الأصغر أو المركز ، ذي الوتيرة الحياتية الواحدة المرتكزة إلى وحدة المناخ ، بينما يترامى المتوسط الأكبر ، متوسط التاريخ ، إلى ما بعد هذه الجبال ، وصولاً إلى الصحاري والسهوب والسهول الواسعة .

1 ـ وحدة المناخ

تتنفس الوحدة المناخية للمتوسط الأصغر من رئتين مختلفتين : رئة الصحاري في الجنوب ورئة الأطلسي في الغرب . أما الحدود الجغرافية لهذه الوحدة المناخية فلا تتجاوز شريط الزيتون في كل من الساحلين الشمالي والشرقي من المتوسط ، وشريط النخيل في الساحل الجنوبي . وهذه الوحدة هي في أصل وحدة النباتات والألوان والمشاهد . . . وأساليب العيش والإنتاج والهموم اليومية . ففي بداية كل صيف تهب الرياح الحارة من الصحاري الجنوبية وتجتاح البحر وتصل طلائعها حتى ساحل المتوسط الشمالي . لذا تظلل البحر كله تلك السماء الصافية الزرقاء التي يرصعها الليل بالنجوم . وفي الشتاء

الذي يدوم ستة أشهر ، بعد دوام الصيف أشهر مماثلة ، تبتعد الصحراء ورياحها الحارة فيتدخل الأطلسي برياحه الرطبة الباردة التي تجتاح المتوسط من الغرب إلى الشرق . لذا يتخذ البحر لون البلطيق الرصاصي ، وتتراكم الثلوج على الجبال ، وتجري السيول مستمدة مياهها الغزيرة من أمطارٍ مصدرها غيوم واطئة ، أما الأنهار التي تكون قد جفت في الصيف ، فتفيض وتجتاح مياهها السهول . وبسبب تدفق مياه السيول غزيرة الى مجاري الأنهار ، يتعاظم فيضان هذه الأخيرة فتصل مياهها أحياناً الى حدود الصحاري ، محولة شوارع مكة إلى مجارٍ لسيول موحلة .

ينجم عن وحدة المناخ هذه تشابه في الإنتاج الزراعي لبلدان المتوسط ، الأمر الذي يحمل هذه البلدان على التزاحم لتصريف منتجاتها : القمح ، الزيتون ، العنب ، والخضار . هذه الحضارة الزراعية الواحدة أو المتجانسة كانت تفرض على بلدان المتوسط الأصغر أن تتزاحم على توسيع شبكات تبادلاتها الزراعية ـ التجارية لتصل إلى المتوسط الأكبر . وبالرغم من أن حركة التبادل كانت بطيئة وقصيرة المسافات في القرن السادس عشر ، فإن مسألة تموين المدن الكبرى هي التي كانت تحتم توسيع دائرة التبادل وتطيل مسافاتها . وإذا كانت الرحلات التجارية الأولى ، الفينيقية منها واليونانية ، مأساوية ، فإنها لم تعد كذلك في الزمن اللاحق . والمتنقل في الحوض وعلى شواطئه غالباً ما يجد نفسه أمام الأشجار والنباتات والمشاهد والمواد الغذائية ذاتها . هذا في حين يشعر أنه غريب إذا تجاوز حدود المتوسط الأصغر واتجه نحو الفرات أو الشمال أو البلاد الواطئة أو الصحاري . هذه الإلفة كانت إحدى أسباب سهولة الانتقال من مرفأ إلى آخر، من دون إحساس بالإقتلاع أو بالإغتراب ، على عكس ما هي حال المهاجر إلى العالم الجديد ، حيث حاول الرحالة الأوائل ، من دون جدوى ، زراعة القمح والزيتون بغية بعث متوسط جديد على سواحل أميركا . وإذا كان المتوسطي هو من اكتشف القارة الجديدة ، فربما لأنه اعتاد سلفاً على العيش في عالمٍ ذي شروط مناخية قاسية ، فالمناخ المتوسطي ليس رحوماً على وجه الإجمال .

تتجلى قسوة المناخ المتوسطي في فصليه الطويلين : في الشتاء تزداد أحياناً نسبة الأمطار وتفيض عما يلزم ، و« سماوات المجد » في الصيف تستتبع نتائج سيئة على الأرض : الجفاف الذي يوقف نمو الأعشاب . لذا كان على الزراعة أن تتأقلم مع قسوة تقلبات المناخ . والسبيل إلى ذلك هو تخزين مياه الري وتوزيعها وفق تقنياتٍ كان الشرق سباقاً إلى ابتكارها ، قبل أن تنتقل إلى المتوسط كله مع زراعة الكرمة والزيتون . وفي حين يعتبر المتوسط بلاد الأشجار المثمرة ، فإن مناخه أبقاه مفتقراً الى الغابات إفتقاره الى المراعي والمواشي ، على عكس الشمال . والمتوسط في الواقع وعلى كثرة من الأصعدة كان

يكافح ضد فقره الذي تضاعفه الظروف . فكائن المتوسط كان عليه أن يبذل جهوداً جبارة للحصول على خبزه اليومي ويعيش في فقر متبعاً إقتصاد زهدٍ وتقشف . فالجندي التركي ، على سبيل المثال ، كان يكتفي بالقليل ، بينما كان جندي بلاد الشمال أكثر تطلباً . وحدها البندقية ربما كانت تعيش وفرة غذائية ، لأنها مدينة امتيازات وترف ، فيما كانت الوجبة المتوسطية بوجهٍ عامٍ لا تعرف الوفرة أبداً . لذا ظل المتوسط حتى القرن العشرين على حدود سوء التغذية . وطبيعة المتوسط مسؤولة عن فقر أهله وزهدهم . فالتربة المتوسطية كلسية ، ومساحات واسعة منها شديدة الملوحة ، وأخرى تصعب حراثتها ، وهي في ذلك كله على العكس تماماً من تربة بلاد الشمال . ثم إن تربة المتوسط تحتاج على نحوٍ دائمٍ للجهد والسهر عليها ، كي لا تتعرض للأمراض والإضطرابات والموات أحياناً . والصحراء في المتوسط تهدد أيضاً التربة وتضيّق المساحات الصالحة للزراعة . ففي حين لم تكن نسبة الأراضي الزراعية في المتوسط الأوروبي تتجاوز ثلث مساحة أراضيه العامة في العام 1900 ، فإن مساحة الأراضي الزراعية في الجهة الجنوبية المقابلة تنخفض وتتضاءل على نحوٍ كارثي . لذا غالباً ما كان أهل المتوسط يعيشون على حافة المجاعة ، بسبب قلة الأمطار حيناً وبسبب إرتفاع درجات الحرارة أحياناً أخرى . وفي المتوسط كانت أمور الحياة كلها تقريباً ، حتى السياسية منها ، تنقلب رأساً على عقب تبعاً للمناخ والفصول . فالحروب كانت تتوقف في أيام الحصاد وحين تمحل مواسم الزرع . هذا ما يبرر حديث المراسلات السياسية عن الحياة اليومية والمطر والطقس ومواسم الحصاد وأسعار الخبز . . . وهذا أيضاً ما جعل المتوسط ، بفقره وبتقلباته وبظروفه السيئة وبعدم إمساكه بزمام أمور غده ، مصنعاً للرجال وموطناً للحكمة وبطناً خصباً لإنجاب الإمبرياليات ، كأن ولادتها فيه كانت أمراً غريزياً يكني عن حاجة البشر الملحة إلى الخبز اليومي والبحث عنه خارج حدوده (حدود المتوسط) ، في بلاد بعيدة تساهم في إطعام سكانه وإنعاش حياته الإقتصادية . . . هكذا كان المتوسط يوسع حقل تاريخه .

2 ـ الفصول

تُختصر الفصول في المتوسط إلى اثنين على وجه التقريب : الشتاء والصيف . الشتاء يُنتظر بقلق : مطر غزير ، سيول ، وفيضانات ، لا توفر الريف ولا المدن ، والبرد يصيب الناس جميعاً ، والفقراء منهم على وجه الخصوص . أما حين تزهر الأشجار ، فمن الصعب التكهن بوفرة المحاصيل ، إذ ربما سيهطل الثلج ويذهب بأزهار الأشجار المثمرة . وفي الشتاء الطويل « يرتاح » الفلاح ويستكين رغماً عنه ، مبتكراً بعض وسائل التسلية والترفيه ، بينما الثلوج تغطي الجبال التي يهبط منها بعض

سكانها للإشتاء في المنخفضات ترافقهم قطعانهم التي لم يعد في المستطاع توفير علفها في الجبال . أما المسافرون فيمتنعون عن التنقل في الجبال ولا سيما في المنخفضات ، حيث تكثر السيول . والبحر بدوره يصبح معادياً فتتوقف الملاحة فيه . وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم يكن أهل المشرق يبحرون إلا ما بين الخامس من أيار والسادس والعشرين من تشرين الأول من كل عام . هذا بالرغم من أن المشرقيين كانوا قد سجلوا انتصارات كثيرة ، منذ العام 1450 ، على أمواج البحر الهائجة في الشتاء ، لكنها ظلت انتصارات جزئية ومؤقتة . يشهد على ذلك غرق كثرة من السفن المبحرة في الشتاء ، وعودة البندقية ، في العام 1569 ، إلى الأخذ بقوانين الامتناع عن الملاحة في فصل الشتاء ، وهي القوانين التي تراجعت عنها في العام 1598 . والإمتناع عن الملاحة شتاءً كان يطال أيضاً الأساطيل الحربية في القرن السادس عشر ، لتتوقف المعارك البحرية . فهذا فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، يفشل ، بسبب رداءة الطقس ، في مفاجأة الجزائر لاحتلالها في العام 1546 .

وفصل الشتاء فصل للثرثرة والأحلام والشائعات والأخبار الكاذبة ، فضلاً عن أنه فصل المشاريع والخطط والنقاش في أروقة دواوين الحكومات ، حول المواقد ، حيث تسوّد صفحات لا تحصى بالأفكار الكبيرة الغائمة ، لأن لا شيء يبدو مستحيلاً في تلك الجلسات المؤنسة ، ولا حتى محاصرة البلاد الواطئة التي قررتها حكومة إسبانيا . والصيف حين يحل لا يأتي بجديد ، ففيه لا تصير المشاريع والخطط أكثر عقلانية ، بل هي تصطدم بالواقع فتصير أكثر واقعية بتخلي راسميها عن أوهامهم الشتوية ، « فتجري الرياح كما لا تشتهي السفن » ، وتسير الأحداث من دون أن تستطيع الدول السيطرة عليها . لكن الشتاء لا ينصرم من دون حدوث أمر إيجابي : معاهدات السلام بين الدول كانت تبرم كلها في فصول الشتاء ، قبل أن يحل الصيف ويحدث ما لا يمكن تداركه ولا تُحمد عاقبته . على وجه العموم يبدو الشتاء المتوسطي ، والأوروبي منه على وجه الخصوص ، واقعاً عديم الجاذبية .

يشهد على ذلك بؤساء المدن الذين يعرّضهم الشتاء للجوع والحاجة إلى الملبس والمأوى اتقاء من البرد الذي يحل فجأة بعد ستة أشهر من الحر . وكم من رحالة كتب من مأواه في إحدى الغرف الجبلية في الجزائر أو في برشلونة أنه لم يشعر بالبرد في حياته كلها على نحو ما شعر به في المتوسط ؟!

في نيسان على وجه التقريب وعلى نحوٍ مفاجىء يبدأ الصيف في المتوسط فتتغير وتيرة العيش وتزداد سرعتها : إنهاء الحراثة ، بداية موسم القطاف ، ثم الحصاد . وفي تشرين الأول تبدأ الحراثة من جديد ، يتلوها البذار . . . هكذا في أثناء بضعة أشهر

تنقلب الرزنامية الزراعية رأساً على عقب . والسرعة دائماً في رأس الأولويات للإفادة من آخر أمطار الربيع وأوائل الخريف . هذا والخوف من الشتاء دائم بدوره في المتوسط حتى في المدن التي يخزّن أهلها المؤونة استعداداً لاستقباله . وفي الصيف تتكاثر السفن في البحر وتبدأ الحروب على نحوٍ مفاجىء ، في البر والبحر ، فضلاً عن التجارة التي كان قيض البر عدو قوافلها ، الأمر الذي كان يحمل المسافرين براً على تأجيل مسيرهم الى الليل أو الفجر . ومواسم قطاف العنب في المتوسط طقوس بهجة مجنونة يجتمع فيها حر الصيف والنبيذ . أما الجنود ، ومن ورائهم حكوماتهم ، فكانوا يقضون الوقت كله في الصيف في حالٍ من الحذر والترقب الشديدين ، فيما الصيادون منتشرين على الشواطىء . وصيف المتوسط كان يجلب معه الوباء والأمراض إلى المدن التي كانت أكثر تعرضاً من غيرها للإصابة بها . ومن روما إلى ميلانو كان الأغنياء والنبلاء يغادرون المدن الحارة قاصدين مناطق وأمكنة أقل حرارة بجوار الحدائق والينابيع والسواقي . وأسطع دليل على تبدل وتيرة الحياة وتسارعها في شتى المجالات هو أن متمولي مدينة نابولي كانوا يوظفون أموالهم في الصيف كديون يستفيدون من فوائدها ، بينما كانوا يستردونها في الشتاء لتوظيفها في شراء المنتجات الزراعية التي كانت تحتاج إليها الإمارة .

3 ـ المناخ والحقبات الطويلة

كل شيء يتغير حتى المناخ ، فاليوم ليس من أحدٍ يعتقد بثبات عناصر الجغرافيا الفيزيائية . والثابت أن مياه البحر المتوسط تسجل إنحساراً مستمراً منذ منتصف القرن السادس عشر ، خصوصاً على طول شواطىء افريقيا . لكن السؤال الملح هو التالي : هل من نظام دوري يحكم مثل هذه التغيرات ؟ يتكلم كثيرون عن حقبات للتغيرات المناخية تدوم ثلاثين عاماً . لكن أليس من حقبات أخرى أوسع أو أضيق زمناً في تتابعها وعلينا أخذها بعين الاعتبار ؟ أليس من حقبات رطبة وأخرى جافة وثالثة حارة ورابعة باردة ؟ هنالك علامات تشير إلى مثل هذه الحقبات : فجبال الألب عرفت ابتداء من العام 1300 حقبة جفاف وسخونة . ثم عرفت بعدها ، ابتداء من العام 1600 ، حقبة برودة ورطوبة وانتشار لمساحات الجليد ، لتبدأ بعد هذه الحقبة حقبة أخرى من الجفاف والسخونة انحسرت فيها مساحات الجليد ابتداء من العام 1900 ، كما نعرف . ألا يفسر هذا الإنقلاب الأخير هجرة الجبليين الإيطاليين إلى مرتفعات الألب ؟ وهنالك دلائل أخرى تشير إلى أن هذه الحقبات الطويلة من الانقلابات المناخية لا تصيب مناطق بعينها ، بل إن المناخ العام للمتوسط سجل ويسجل انقلابات مشابهة . ففي القوقاز حصل انحسار للمساحات الجليدية على نحو ما حصل في الألب . وجبال مونت روزا الألمانية شهدت بدورها حقبة من الجفاف والرطوبة حملت المستوطنين الألمان

على الإقامة في سفوحها الجنوبية . هذا في الوقت الذي تتقدم فيه الصحراء باتجاه شمال إفريقيا . وهنالك دلائل كثيرة تشير إلى ازدياد منسوب هطول الأمطار وشدة البرد غير المعتادة فضلاً عن تكاثر الفيضانات والسيول في أنحاء المتوسط كله ابتداء من نهاية القرن السادس عشر . وهذا ما يفسر دبيب المجاعات والملاريا في كثرة من البلدان المتوسطية في نهاية القرن المذكور . وهذا أيضاً واحد من أسباب استيراد كميات هائلة من قمح الشمال إلى المتوسط .

تثير هذه الانقلابات وغيرها أسئلة لا تحصى . فإذا كان القرن السادس عشر بداية حقبة طويلة من إزدياد هطول المطر وشدة البرد ، فماذا عن التفسير الذي يرد الأمر إلى وجود تيارٍ متنامٍ من الهواء يدور بسرعة هائلة على ارتفاع 20 أو 30 كلم عن سطح النصف الشمالي من الكرة الأرضية الذي يشتد في البرد حين تزداد سرعة التيار الهوائي ويقترب من الأرض ، أما حين تنخفض سرعته فينحسر باتجاه القطب الشمالي ؟ وهل حصل في القرن السادس عشر أن ازدادت سرعة هذا التيار فاقترب من الأرض واتجه نحو المتوسط ؟ وبالتالي بدأ مع ذلك القرن « العصر الجليدي » الذي تحدث عنه الدكتور شوف ؟

الفصل الخامس

الوحدة البشرية : المدن وشبكة المواصلات

الإنتقال من المتوسط الأصغر ، متوسط الوحدة المناخية ، إلى المتوسط التاريخي الأكبر ، هو انتقال من وحدة فيزيائية إلى وحدة بشرية ليست من نتاج الطبيعة أو المياه فحسب . فالمياه ، إلى كونها واسطة نقل وتبادل وتقارب ، هي أيضاً حاجز كان على الإنسان أن يدفع ثمناً باهظاً للإنتصار عليه . ومن المرجح أن الملاحة ابتدأت في أحواضٍ هادئة ، بين جزر إيجة وشواطىء آسيا ، قبل أن تتوغل في عمق البحر الكبير . إذن ليست المياه هي صلة الوصل بين مناطق المتوسط ، بل إن شعوب البحر هي التي دفعت ثمناً باهظاً لاتصالها باجتيازها البحر والبر في آن معاً .

1 ـ طرق البر والبحر

وحدها حركة انتقال البشر وما نجم عنها من روابط أقامت وحدة المتوسط الذي كان كناية عن طرقات بحسب قول للوسيان فيفر . طرقات برية وبحرية ونهرية تشكل مجتمعة شبكة عضوية هائلة من الإتصالات والمواصلات المستمرة . لذا علينا إمعان النظر في ما ينجم عن هذه الشبكة من تقارب وتبادل وتمازج وتواريخ . فحركة السفن والسلع والمواشي والبشر تجعل من المتوسط وحدة ، بقدر ما فيها من اختلافات محلية فيها من التجانس . أما الحروب والموض والتقنيات والأوبئة والمواد فكانت تحملها كلها الشرايين ـ الطرق وتوصلها أحياناً إلى خارج حدود المتوسط « الطبيعي » الأصغر وتوسّع حدوده في اتجاه المتوسط التاريخي الأكبر . ويمكن اليوم تخيل تلك الشبكة من الطرق كأوتسترادات توصل بين المدن من دون أن تمر في القرى . فوحدة المتوسط قوامها شبكة من الطرقات والمدن . مدن وطرقات ، طرقات ومدن ، ليست إلا تجهيزات بشرية واحدة لهذا الحيز : المتوسط . فالمدن المتوسطية ، إلى أية حضارة انتمت ووفق أي مثالٍ

هندسي بُنيت ، هي خالقة طرق بالقدر نفسه الذي هي فيه وليدة الطرق . وفي القرن السادس عشر لم يعرف العالم كله شبكة مدينية بالقوة التي كانت عليها شبكة المدن المتوسطية . فباريس ولندن على سبيل المثال ، كانتا ما تزالان في بداية حداثتهما . أما مدن الشمال فلم تكن بعد لا بحجم ولا بأهمية مدن المتوسط بشبكة إتصالاتها وبمراكزها الكبيرة : البندقية ، جنوى ، فلورنسا ، ميلانو ، برشلونة ، الجزائر ، نابولي ، القسطنطينية ، القاهرة ، ومرسيليا . فالقسطنطينية ، على سبيل المثال ، كان عدد سكانها يبلغ 700 ألف نسمة ، أي ضعفي عدد سكان باريس ، وأربعة أضعاف عدد سكان مرسيليا . وإلى المدن المتوسطية الكبرى يجب إضافة المدن المتوسطية الصغرى التي كانت تلعب دوراً في التبادل يفوق نسبة عدد سكانها . وحيوية هذه المدن الصغيرة الثانوية ، بسبب صلاتها بخطوط مواصلات ناشطة ، تجعلنا نفهم لماذا كانت المدن الكبيرة الضخمة في آسيا والشرق الأقصى كناية عن تجمعات سكانية هائلة العدد ، من دون أن تمتلك شبكة مواصلات مدينية حية ولا تنظيماً اقتصادياً رفيعاً . فنظام العمران والمواصلات هو نظام متوسطي بامتياز ، كان يسيطر على كل شيء ويمد شباكه حتى إلى الزراعة . وفرديناند لوث محق في نقده لإميل غوتييه ، لأن هذا الأخير أغفل الصلة الوطيدة بين الفتح الإسلامي والمدن . وقدر البحر أيضاً مرتبط بانتصار مدينة وطريق على مدينة وطريق أخريين . فطرق المتوسط الأساسية هي تلك التي تمتد على ساحل البحر بين المرافىء ، وتتبعها في الأهمية الطرق الداخلية : تمتد الأولى بموازاة الشاطىء ، أما الثانية فتمدد عامودياً على الأولى في اتجاه الداخل ، كالممرات والمعابر الطبيعية ، مثل وادي النيل ووادي الرون وطرق الألب والطرق التي تصل الفرات بحلب وشمال إفريقيا بالسودان و« طرق البرازخ » كتلك التي تصل سوريا بالقسطنطينية مروراً في جبال طوروس والأناضول . . . وحين نضيف إلى هذه الطرق كلها الطرق النهرية يرتسم أمامنا هيكل الحياة المتوسطية العامة ، من دون أن نلاحظ غير فوارق طفيفة بين كلٍ من متوسط القرن السادس عشر متوسط القرون الوسطى ومتوسط الرومان . فهذه الشبكة من الطرق هي التي ترسم معالم أمبراطورية اقتصادات البحر وحضاراته وتهيمن على قدره ، لأنها تنشر ظلال البحر على مساحات شاسعة بعيداً عن سواحله . لذا تشدد التفسيرات التاريخية للتحولات الكبرى على كوارث وأحداثٍ حميمة الصلة بأحوال الطرق وتطورها . فالملاحة المستقيمة في خوض المتوسط الشرقي هي التي أدت ، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، إلى خراب إقتصاد البلاد اليونانية . وروما آلت حضارتها الى الانحطاط بسبب إزدهار طرق الشرق الأوسط وعدم قدرتها على السيطرة على هذه الطرق وعلى نشاط المحور التجاري للدانوب ـ الرين . وازدهار طرق الشرق كان في أصل انجذاب حقل القوى المتوسطية إلى الشرق المسلم الذي حرم الغرب

المسيحي من سيطرته على شبكة هائلة من طرقه الأساسية . وأخيراً أدت الإكتشافات الكبرى التي ربطت المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي مروراً برأس الرجاء الصالح ، إلى إفقار المتوسط على المدى البعيد . هذا ما يحملنا على القول إن شبكة المواصلات كانت تقوم مقام البنية التحتية في كل تاريخ متماسك للمتوسط .

نعود إلى القرن السادس عشر . لا نحتاج إلى كبير جهدٍ ، بل إلى نظرة سريعة ، لنلاحظ عدم قيام أية ثورة فعلية في مجالي النقل البري والبحري ، لا على صعيد زيادة سرعته ولا على صعيد إصلاح الطرق وتحسينها . بلى لقد حصلت تغيرات وتطويرات في بعض المجالات ، لكن استمرار المدن الصغرى في قيامها بدور الوسيط بين المدن الكبرى ، صرف هذه الأخيرة عن تطوير الطرق التي تصل بينها وعن القيام بثورة تقنية في مجالي آلات النقل والطرق التي يستخدمها هذا الأخير . فطرق روما حافظت على عرضها نفسه منذ العصور القديمة . والدواب ظلت وسيلة النقل الأساسية للمسافات الطويلة في أنحاء المتوسط كله ، بينما لم يشع استخدام العربات إلا في المدن وفي جوارها . وشبكة المواصلات في الامبراطورية العثمانية ، على الرغم من أنها كانت محط إعجاب أوروبا ودهشتها في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فإن تلك الشبكة لم تكن صالحة لمرور العربات عليها إلا في ما ندر . لكن على الرغم من ما تقدم ذكره فإن النقل عرف ، في نهاية القرن السادس عشر ، بعض الإزدهار المضطرد . وسبب ذلك الإزدهار والدليل عليه هو ازدياد عدد البغال على نحوٍ هائل في أوروبا . فهل أدى ذلك الإزدياد إلى غلبة النقل البري على النقل البحري ؟ ما يمكن إثباته هو أن الطرق البرية لم تشهد هزيمة ساحقة وسريعة في صراعها الطويل مع الطرق البحرية . وأسباب إطالة أمد ذلك الصراع تعود إلى إرتفاع أسعار النقل البحري في نهاية القرن السادس عشر . والدليل على انتعاش المواصلات البرية كان قيام البندقية ببناء مدينة سبالاتو لجعلها محطة لقوافلها التجارية المتجهة إلى الداخل البلقاني ، وذلك بهدف استغناء البندقية عن الطريق البحري الذي كان يربطها بكلٍ من سوريا وبلاد فارس والهند . حمل البندقية على تبديل طرق مواصلاتها التجارية تردي الأوضاع الأمنية في البحر (القرصنة) وارتفاع أسعار التأمين على البواخر ، هذا فضلاً عن إنخفاض أسعار النقل البري في الأمبراطورية العثمانية ، في مقابل إرتفاع أسعار الخدمات والسلع كافة في الغرب . ومن ناحية أخرى أدى ازدهار طرق النقل البرية في تلك الحقبة إلى التقليل من أهمية دور كل من مصر وسوريا في ما يتعلق بالنقل البحري بين موانئها وموانىء إيطاليا . وهذا الأمر يدحض المقولة الشائعة التي تعتبر أنه في مقابل افتتاح طريقٍ بحرية تنحط طريق برية . وعلى عكس ما كنت أنا نفسي أظن ، لم يلغِ استخدام الشماليين للمتوسط كحيز

للنقل ، كبريات الطرق البرية الألمانية والفرنسية التي تفضي إلى المتوسط . لكن في المقابل لم يعمل انتعاش النقل البري على إلغاء أهمية طرق المواصلات البحرية وموانئها المدينية . فانحطاط الدور البحري للبندقية لم يحط من نشاط مرفئها . لذا يمكن القول إن النشاط الإقصادي المزدهر قد ضاعف أهمية مجالي النقل في آن معاً وعلى نحوٍ عام . وإذا كانت المزاحمة بين المجالين قد أدت إلى منح واحدٍ منهما أهمية تفوق أهمية الآخر في حقبة زمنية معينة ، فإن الأدوار السابقة لكلٍ من المجالين ، غالباً ما كانت تحافظ على ثباتها واستمرارها وفق توازن بنيوي ثابت للعلاقات بين مجالات المواصلات المتعددة . لذا لا يمكن البت في هذا الأمر على نحو جزئي ، بل يجب إدراج مسألة المواصلات كلها في تاريخ التطور الشامل وعلى مدى تاريخ الحقبات الطويلة التي تشمل قروناً ولا تقتصر على القرن السادس عشر وحده . تشير إلى أهمية الجدال الدائر حول هذا الموضوع فرضية هرمان ڤان ديرواي التي يمكن تلخيصها على النحو التالي : في القرن الخامس عشر لم يعرف كل من المتوسط وأوروبا نمواً يذكر للتبادل إلا في حجم التبادلات التي استخدمت طرق المواصلات البحرية . وفي القرن السادس عشر انتعشت التبادلات الإقتصادية « القارية » التي تستخدم الطرق البرية فجارت هذه الأخيرة في أهميتها طرق المواصلات البحرية . وفي القرن السابع عشر إقتصر التبادل الناشط على القطاعات البحرية ، بسبب دخول بواخر الشمال إلى المتوسط وبسبب انتشار شركات التأمين والمشروعات التجارية الضخمة ، قبل أن يعود التوازن والإزدهار إلى طرفي معادلة النقل والتبادل في القرن الثامن عشر . لكن هذه الوتائر لا يمكن تعميمها على كل زمان ومكان . لذا يجب عدم الأخذ بالترسيمات العامة إلا على نحوٍ حذرٍ وبعد جمع الأدلة والبراهين .

في تصدينا لمعالجة مسألة حمولة السفن علينا ، بعد التشديد على صلة المتوسط بالأطلسي ، أن نضع المسألة في إطار الحقبة الممتدة بين القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر ، أي في إطار تاريخ الحقبات الطويلة . فالملاحة في المتوسط لم تكن مختلفة على نحوٍ مطلق عن الملاحة في الأطلسي . من وجه أول كانت تقنيات الملاحة والسفن المستخدمة في كل من البحر والمحيط هي نفسها . ومن وجهٍ آخر كانت السفن ذات الحمولة الخفيفة (50 ـ 100 طن) تلعب دوراً يفوق دور السفن الكبيرة (ألف طن) بنسبة سفينة واحدة من هذه الأخيرة في مقابل تسعة من سفن الحمولة الخفيفة ، وذلك في كل من البحر والمحيط على قدم المساواة . فسفن الحمولة الكبيرة غالباً ما كانت مرتبطة بدولٍ ومدن تبعاً لكلفتها المرتفعة وتبعاً للمسافات الطويلة التي تقطعها وأخيراً تبعاً لكمية السلع التي تنقلها ونوعيتها . كانت تلك السفن تنقل سلعاً ضخمة ، ثقيلة الوزن ومتدنية السعر الإفرادي للسلعة الواحدة منها . وقد برز دور هذه السفن في القرن

الخامس عشر واستخدمت للنقل التجاري بين انكلترا والبحر الأحمر وبالعكس ، ولنقل القطن من كل من سوريا وقبرص إلى إنكلترا . ومدينة جنوى كانت أيضاً تستخدم ، في ما تحتاج إليه من نقل بحري ، أمثال هذه السفن الكبيرة التي احتكرت أنشطة النقل البحري . ولكي تحمي نفسها من القرصنة غالباً ما كانت السفن الكبيرة هذه تحمل على متنها جنوداً يقومون بمجابهة القراصنة . وفي القرن السادس عشر انتشر استخدام السفن ذات الحمولة الخفيفة من دون أن يزداد عدد السفن ، الكبيرة . فالسفن الصغيرة كانت البندقية قد بدأت في استخدامها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، قبل أن يزداد انتشارها في المتوسط قادمة اليه من المحيط الأطلسي في النصف الثاني من القرن السادس عشر الذي شهد تفوق هذه السفن على السفن الكبيرة . هذا التفوق كان بداية تحول كبير في مجال النقل البحري في كلٍ من المحيط والبحر . ويعود الفضل في تفوق سفن النقل الصغيرة على السفن الكبيرة إلى أن الأولى كانت شراعية وأكثر سرعة وأقل كلفة من الثانية ، خاصة بعد التطور الذي أدخله الهولنديون على الصغيرة وبعد استخدامهم لها في الميدان الحربي لتهاجم السفن الكبيرة لكلٍ من البرتغال واسبانيا في أثناء عبورها الأطلسي متجهة إلى الهند .

2 ـ الوظائف المدينية

لوقوعها في قلب نظام المواصلات كانت المدن المتوسطية تعيش من قدرتها على جذب الطرق والمكان في اتجاهها وجعلهم في خدمتها ، وذلك في أوقات تطورها البطيء أو المفاجىء . فالمدن لا تعيش من دون أسواق وطرق والمدينة والسوق لا قيامة لهما إلا بالحركات والأنشطة المتعددة التي تتناهى إليهما من طريق شبكة المواصلات . ثم إن المدن كلها ليست إلا وليدة حركات وأنشطة تستقبلها المدن وتضبطها وتدخلها في دورة حياتها ، قبل أن تعيد دفعها من جديد إلى خارجها . على هذا النحو كانت حركة « البازار » في قلب القسطنطينية . والمدن تنحط أو تموت حين تُعاق أو تخنق شبكة مواصلاتها . هذا ما أصاب فلورنسا في عام 1528 ، حين تعطلت صلاتها بالجنوب الإيطالي في أعقاب نهب مدينة روما . والدول الشاسعة المساحات والقوية السلطان هي التي يُتاح لها ، قبل غيرها ، تقطيع شرايين المدن ـ الدول الصغيرة (أي طرق مواصلاتها) وكسر توازنها ، أو على العكس من ذلك ، تسمح لها بالعيش والنمو ، إن لم تساعدها عليها وتأخذ بيدها . ألم تحل اسبانيا ، في سنة 1575 ، دون وصول القمح الى جنوى ، بقيامها بقطع الطريق البحرية بين هذه المدينة الإيطالية وبين صقلية مصدر القمح الجنوي كله ؟ وحدها الطرق تجعل المدن غنية بالمنتجات المادية وغير المادية التي تصل اليها . فهل يمكن تخيل نهضة فلورنسا من دون موجة الفنانين التي نزحت اليها من

أنحاء إمارة توسكانا ؟ وهل يمكن أيضاً تخيل روما من دون النظر في دور الفنانين الذين وصلوا إليها من فلورنسا . . . خلاصة الأمر أن حركات الانتقال هذه كانت في أصل النهضة التي عرفتها ايطاليا وخرجت منها لاحقاً . ثم علينا أن نلاحظ أن كبريات المدن في المتوسط الغربي كانت كلها مدناً ساحلية يخترقها الطريق العالمي الساحلي . أما المدن الداخلية فكانت في الدرجة الثانية من حيث أهميتها ، لأنها كانت تعيش على حساب المدن الساحلية وفي خدمتها . يختلف الأمر في جنوب المتوسط وشرقه ، حيث كانت كبريات المدن داخلية ، بسبب صلاتها الوثيقة بشبكة الطرق الصحراوية . وعلى الرغم من أن خارطة المدن تكاد تتطابق على نحو تفصيلي مع خارطة الطرق ، وعلى الرغم من أن المدن تقوم كلها على تقاطع الطرق ، على الرغم من هذا وذاك ، فإن المدن لا تولد بالضرورة من ذلك التقاطع . لكن المدن كلها ، بالضرورة ، تعيش من ذلك التقاطع وتستمد منه ، ومن موقعها الجغرافي ، أهميتها وأدوارها . فحلب مثلاً لا يعود الفضل في ولادتها إلى موقعها الجغرافي ، بل لحاجة قوافل النقل البري إلى قيام محطة إجبارية لها تتيح تبديل وسائل النقل وصيانتها ، الأمر الذي جعل حلب محطة ـ مستودعاً ومعبراً للقوافل التجارية المتنقلة بين المتوسط والخليج الفارسي ، ذهاباً وإياباً . أما المرافىء فهي ، على وجه الإجمال ، ملتقى طرق البر بطرق البحر . ولأن السواحل المتوسطية محاطة في معظمها بالجبال ، لا قيامة لمرفىء إذا لم يكن قريباً من معبرٍ يخترق الجبال . فهذه جنوى عاشت زمناً طويلاً كمدينة من الدرجة الثانية ، حين بدأت تنحسر السيطرة العربية عن البحر ، ثم حين بدأ الشمال يهتم بتجارة أوروبا وبدأ تجاره يعبرون الجبال وينزلون إلى جنوى التي جعلوها محطة في طريقهم الى البحر . هذا الإزدواج (بحر ـ بر) هو الوجه الأبرز في تاريخ المرافىء المتوسطية كلها من مرسيليا إلى الجزائر .

كان تقسيم العمل البطيء الناجم عن حركة التبادل التي أتاحتها الطرق ، في أساس ولادة المدن المتحررة جزئياً من الريف وحصاره . حدث هذا التحرر الجزئي بفضل جهود جبارة آلت إلى تفاوت في مستويات الأنشطة المدينية والى تحويل المدن من داخلها . وفي قلب هذه السيرورة بدأ النشاط التجاري يتصدر أنشطة الحياة الإقتصادية المدينية ويعمل على تنظيمها وفق إولاته ومتطلباته . ولا نغالي إذا تحدثنا في هذا المجال عن نشوء «رأسمالية تجارية » لتعيين شكل حديث وفعال للحياة الاقتصادية في القرن السادس عشر . أما الصناعة فلم تنتعش إلا في فجوات الحياة التجارية وفي تضاعيف الاضطرابات الظرفية التي حلت بها . كان هذا حال الصناعة في المدن الإيطالية ، ومنها صناعة كل من القطن والحرير ، على وجه الخصوص . هذه الواقعة تؤكد الأطروحة الكلاسكية القائلة إن الصناعة المتوسطية ، في القرن السادس عشر ،

نمت في ظل الحياة التجارية . هذا فضلاً عن أن الوظائف التجارية والوظائف الصناعية تتعاقب وتتآزر . فإذا كانت الصناعة في البندقية قد ابتدأت بالنمو في القرن الثالث عشر ، فإن التجارة فيها كانت تتعاظم في الوقت عينه بوتيرة متسارعة ، الأمر الذي أدى إلى اندفاعةٍ في المجال الصناعي في القرن الخامس عشر ، على الخصوص . حدث ذلك بنتيجة انزلاق تدريجي وبطيء للحياة الإقتصادية من التجارة الى الصناعة ، وهو إنزلاق أدت اليه الظروف العامة في القرن الخامس عشر . لذا بدأت البندقية بالتحول من مدينة تجارية بحرية إلى مدينة صناعية ، من دون أن يكتمل هذا التحول ، بسبب نجاح الصناعة في كل من فرنسا وشمال أوروبا . أما الطور الثالث من الحياة الإقتصادية المدينية ، أي المصرف ، فتظل ولادته غير ناجزة في طفولة المدينة التي تبقى وظائفها كلها مختلطة وغير واضحة السمات ، قبل أن تتجاوز طفولتها . يشمل الإختلاط وعدم الوضوح تجارة الذهب وغيرها من التجارات الأخرى فضلاً عن الصناعات الحرفية ووظائف المصارف . فتجارة المال ، أي القروض ، تلك اللعبة المالية المحضة ، لا تولد على نحو مستقل وممتلىء ومنفصل عن المجالات الإقتصادية الأخرى ، إلا في طور ثالث من الحياة الإقتصادية المدينية يلي التجارة والصناعة . هذا ما حدث على نحوٍ مكتمل الصفاء في أمستردام في نهاية القرن السابع عشر . لكن علينا أن نشير ، في هذا السياق العام ، إلى ولادة عدة « ساحات مصرفية » على نحوٍ مفاجىء في مدن أوروبية ، كانت ولادتها مناقضة لهذه الترسمية العامة البسيطة . حدثت هذه الولادات المفاجئة في كل من جنيف وليون وأنفير في غضون القرن الخامس عشر . لكن الثروات المالية التي تراكمت في كلٍ من هذه المدن لم تبلغ ذروتها إلا بسبب هجرة المصرفيين الإيطاليين الجماعية إليها . لذا نسارع إلى القول إن الحياة المدينية التي نمت وفق أطوار متدرجة كانت تتقهقر وتنحط وفق أطوار متدرجة أيضاً . فهل من طريق الصدفة ، مثلاً ، أن تبرز علامات التراجع الأولى في طرق المواصلات ووسائل النقل المتوسطية ، فيما يظل الطرف الآخر من السلسلة ، أي النشاط المصرفي في المدن ، يقاوم لفترة طويلة ؟ وهذه كل من جنوى والبندقية تبقيان مدينتان غنيتان بالذهب في القرن الثامن عشر الذي شهدتا فيه أقصى أطوار انحطاطهما . كأن نمو القطاع الصناعي غالباً ما كان كناية عن ضعف حياة المدينة ووهن حركتها . ألا يشكل نمو الصناعة ، في وجه من وجوهه ، رداً تعويضياً على تعثر طرق المواصلات وتعثر وسائل النقل في المتوسط ؟ على كل حال ليس من طريق الصدفة أن تزدهر الصناعة في المدن البعيدة عن البحر ، أي في المدن التي تمتلك موقعاً مركزياً في شبكة المواصلات الداخلية ، وفي المدن التي تتعرض مواصلاتها وتجاراتها لأزمة ، على غرار ما حصل في كل من فلورنسا والبندقية في القرن السادس عشر . وهل نكمل السلسلة لنقول إن النشاط المصرفي نشأ ونما بفضل الصعوبات التي كانت تعترض الحياة

التجارية والصناعية ؟ هكذا لا ينمو نشاط اقتصادي إلا على حساب تقهقر نشاطات أخرى ، إذ ليس ضرورياً أن تتناغم وتاثر الأنشطة الإقتصادية كلها . لكن هذا كله لا يفسر مجمل دورة الحياة الإقتصادية في المدينة ، بقدر ما يعطينا لمحة عامة عنها .

3 ـ المدن وأصنافها : شواهد القرن

في المتوسط يمكن تقسيم المدن ، بوجه عام ، إلى ستة أصناف : بيروقـراطية ، تجارية ، صناعية ، حرفية ، زراعية ، وعسكرية . لكن هذا التصنيف ليس دقيقاً ولا شاملاً ، بل هو كناية عن مقاربة عامة للوقوف على تنوع شخصيات المدن في علاقاتها الداخلية وفي ظروفها السياسية ، وعلاقة كلٍ منها بالريف ، فضلاً عن علاقة كل مدينة بالأخرى التي تجاورها . ومن وجه آخر يمكننا أن نعتمد تصنيفاً مختلفاً عن الأول يميز بين مدن أساسية وأخرى ثانوية . لكن كلا التصنيفين يظلان غير دقيقين ما إن نشرع في تفحص كل مدينةٍ لنتبين في أي صنفٍ من المدن يمكن إدراجها . وذلك لأن المدينة ، أية مدينة ، لا تلبث أن تخرج عن إطار التصنيفات الجاهزة ، بسبب إختلاط نشاطاتها وتنوع مجالات الحياة والعمران فيها ، لنجد أنها مدينة بيروقراطية وريفية وحرفية في آن معاً ، على النحو الذي كانت عليه مدينة سيڤيل ، مثلاً . وعلى الرغم من هذا التنوع وخروج المدن على النماذج التصنيفية ، لا بد من مساءلة المدن عن الذي تكرره في نشأتها ونموها ودورة حياتها ، بالقدر الذي يتراءى لنا فيه أنها تخضـع للظروف والأحوال نفسهـا في النصف الثاني من القرن السادس عشر . على هذا المستوى يظهر لنا أن المدن كانت تتشابه في وجـوه عدة : النمـو الديمغـرافي ، إزدهارهـا وتوسعهـا على مـدى الحقبات الطويلة ، على الرغم من الصعوبات الآنية التي تواجه كلٍ منها . هذا فضلاً عن ضيقها في مواجهة زحف الـدول وتوسـع رقعتها ، بنتيجـة ولادة عصرٍ جديـد من السياسـة والاقتصاد .

ظل النمو الديمغرافي مستمراً حتى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر ، في كلٍ من المتوسط الاسلامي والمتوسط المسيحي على حدٍ سواء . هذا النمو طاول المدن كلها ، وكان شرطاً في تمركز النشاطات المدينية ومجالاتها . لكن القرن السابع عشر ما لبث أن جلب معه تقهقراً عاماً لم تنـجٍ منه سـوى بعض المدن الكبـيرة المحظوظـة : باريس ، لندن ، ومدريد . هذا فضلاً عن أن النمو الديمغـرافي لم يقتصر فعله ، في الأصل ، على وجهٍ واحد . فهو قوة وضعف ، توازن رهشاشة ، في آن معاً . فالدول ، بنموها البطيء بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر ، كانت تسمح للمدن بالنمو والتوسع . لكن حين اندفعت الدول بقوة بعـد هذه القـرون ، معززة سلطانها عـلى حساب المدن ، بدأت هذه الأخيرة بالـتراجع والإنكفـاء . هذا فضـلاً عن أن القرن

السادس عشر إتسم بتفشي المجاعات والأوبئة في المدن . فبطء النقل وارتفاع أسعاره وعدم الانتظام في المحاصيل الزراعية عرّض المدن كلها لمجاعة ، في أي فصل من السنة . وأمام زحف المجاعات استطاع الفلاحون تدبير الحد الأدنى من الغذاء لاستمرارهم ، لكن القرن السادس عشر لم يوفر حتى الأرياف من المجاعات ، على نحو ما حصل في توسكانا سنة 1528 . أما المدن فكانت ، بسبب قدراتها الضخمة وحاجاتها المتزايدة ، تلجأ إلى تدابير وقائية . ويمكن في هذا الصدد كتابة مؤلف كامل عن السياسة الوقائية التي اتبعتها كل من البندقية وجنوى في كيفية إستيراد القمح وتوزيعه واستهلاكه تداركاً للمجاعات . وفي هذا المجال لم تنجُ مدينة متوسطية واحدة من تطبيق النظام الذي كانت البندقية تسميه «إدارة القمح» . وهذه الأخيرة كناية عن جهاز ضخم كان يسيطر على عمليات استيراد القمح والطحين وتخزينها وتوزيعها وبيعها . هكذا تتشابه إجراءات المدن في مواجهة المجاعات . في مرحلة أولى كان يحظّر إخراج القمح من المدينة ، ثم تقوم « إدارة القمح » بتشديد السيطرة على المخازن ومراقبة التوزيع . أما إذا تفاقم سوء الحال فإن المدينة كانت تعمد الى تخفيض عدد المستهلكين فيها ، بأن تقوم السلطات المدينية بطرد الغرباء وإقفال أبواب المدينة بوجه القادمين ، إلا في حال حيازتهم ما يكفي لاستهلاكهم من القمح . هذا ما فعلته البندقية ونابولي . وفي أثناء تطبيق هذه الإجراءات يكون البحث عن الحصول على القمح من الخارج قد بدأ . أما حين تتعثر الإجراءات وتفشل فتضطر السلطات المدينية إلى أن توجه وجهها ناحية البحر لمصادرة سفن القمح العابرة . وهذا ما فعلته مرسيليا عام 1562 . وإذا لم تنجح هذه الإجراءات كلها في توفير القمح ، فلا بد آنذاك من حلول الجوع الذي يصيب الفقراء أولاً ، قبل أن يتفشى في المدينة كلها ، فتعم الفوضى في المؤسسات وفي أوجه الحياة المدينية كلها .

بعد الجوع يأتي الطاعون الذي كان وباءً « بنيوياً » بامتياز في القرن السادس عشر ، إذ ليس من مدينة متوسطية واحدة نجت من الإصابة بهذا الوباء ، خاصة مدن الشرق . فالقسطنطينية ، لوقوعها على بوابة آسيا ، كانت مركزاً لنقل الطاعون في اتجاه الغرب . وحين يتزامن حدوث الوباء مع حلول المجاعة ، غالباً ما تُرغم المدن على تجديد سكانها : البندقية بين سنة 1575 وسنة 1577 فقدت حوالي 50 ألف شخص (أي ما يعادل ربع سكانها أو ثلثهم) . ونابولي في سنة 1525 فقدت 90 بالمئة من عدد سكانها . وفي سنة 1581 قتل الطاعون 5 آلاف شخص في مرسيليا و60 ألف شخص في روما . لذا تكثر الكتابات التي تتحدث عن الجثث التي كانت تملأ الشوارع . لكن المدن لم تكن تفوت وسيلة للدفاع عن نفسها ولملمة جراحها بسرعات متفاوتة . فالأغنياء غالباً ما كانوا يهجرون المدن خائفين لائذين الى التحصن في منازل كانوا قد بنوها في

الأرياف ، مخلفين وراءهم الفقراء محاصرين في المدن ، لترسل إليهم بعض المؤن من الخارج كي لا يندفعوا الى نهب بيوت الأغنياء ومتاجرهم . والنهب والسلب والتدمير ليس في الواقع إلا سلوكاً طبيعياً أو اعتيادياً في أوقات حلول الجوع والوباء . هكذا هو إذن نظام الأوبئة والمجاعات : كان يرتب أعباء ثقيلة تتحمل المدن أوزارها التي غالباً ما كانت ترمي بكاهلها على الفقراء الذين كانوا ينوؤن أيضاً تحت أثقال « المجازر الاجتماعية » التي لن تتوقف قبل القرن الثامن عشر .

والهجرة بدورها تلعب دوراً هاماً في الملامح العامة للمدن . فالبروليتاريا المدينية لا تتشكل ولا يزداد عددها إلا بفعل الهجرة المتجددة إلى المدن . والمهاجر من الجبال هو المرشح للأعمال على أنواعها في المدينة . هذا فضلاً عن جموع من البروليتاريا المغامرة التي تجتذبها المدن اليها من كل حدب وصوب . فمدن الدولة العثمانية ، على الرغم من مراقبة الدولة وحذر الحرفيين ، كانت موئل هجرات دائمة من الأرياف البائسة التي نافس المهاجرون منها العبيد في الأعمال المدينية الدنيا . وفي سنة 1633 تجاوز عدد العبيد السود في لشبونة الـ 15 ألف نسمة ، مشكلين بعددهم هذا النسبة الكبرى من بؤساء المدينة التي لم يكن مجمل عدد سكانها يتجاوز المئة ألف نسمة . أما البندقية فكان المهاجرون إليها من أصول ريفية وجبلية ومدينية مجاورة ، قبل أن تبدأ الهجرة المشرقية إليها في أواخر القرن السادس عشر ، من بلاد فارس وتركيا وأرمينيا . لكن الهجرة الى المدن لم تكن دائماً وأبداً هجرة فقراء معدمين . فهنالك من كان يحمل إلى المدن تقنيات ضرورية وجديدة تحتاج اليها . فاليهود الذين طُردوا من إسبانيا ـ بسبب دينهم وليس بسبب بؤسهم ـ لعبوا دوراً هاماً في نقل التكنولوجيا إلى أية مدينة حلوا فيها : بعد عملهم في التجارة ومزاحمتهم الأرمن والبيزنطيين في كل من القسطنطينية وسالونيك ، نقلوا الى هاتين المدينتين فن الطباعة وصناعة الصوف والحرير . ويرى بعض المؤرخين أن أولئك المهاجرين اليهود هم من اكتشفوا سر صناعة ركيزة المدافع . والمدن تجذب أيضاً الفنانين والتجار ، خاصة الصيارفة والممولين الإيطاليين الذين يعود لهم الفضل في نمو الحياة الإقتصادية في كل من لشبونة وسفيل ودل كمبو وليون وأنفير . فالمدينة ، إذن ، تجذب الأغنياء والبروليتاريين ، ولأسباب مختلفة تجذب أيضاً الإقطاعيين والمُلاك العقاريين الذين يشيدون فيها قصورهم . أما الهجرة المعاكسة التي كان يقوم بها أغنياء المدن لبناء بيوتٍ لهم في الأرياف يحلون فيها صيفاً ، فيما يظل الفقراء على إقامة دائمة في المدن ، (وهذه العادة جرت مجرى الموضة في القرن السادس عشر ، إلى درجة يمكن الحديث معها عن عودة أثرياء المدن الى التملك العقاري) ؛ هذه الهجرة المعاكسة آلت إلى سيطرة جديدة للمدينة على الأرض في خارجها ، من دون توفير تملك أراضي

الفلاحين الخصبة التي غدت أملاكاً عقارية لأغنياء المدن . على هذا النحو سجل القرنان السادس عشر والسابع عشر غلبة المدينة على الريف .

مع حلول القرن الخامس عشر بدأت التحولات والصراعات السياسية الكبرى تضع المدن في مواجهة أزمةٍ ومصيرٍ مأساويين . كان سقوط مدينة القسطنطينية بيد الأتراك سنة 1453 العلامة الأولى على سقوط المدن بيد الدولة الإقليمية الناشئة ، ثم كرت السبحة : استسلمت برشلونة للملك جان الثاني الأراغوني سنة 1472 . وفي سنة 1480 أصبح ملك فرنسا سيد البروفانس ومرسيليا . ثم سقطت غرناطة بيد الملك الاسباني سنة 1492 . . . إنها حقبة الهزائم التي جعلت تعصف بالدولة - المدينة لتنتصر عليها الدولة الإقليمية الكبرى ، بعد أن كانت مدينة تسيطر على مدينةٍ أخرى ، وتوسع مدينة رقعة سيطرتها على حساب مدينة أخرى في بداية القرن (الرابع عشر) الذي انجلت نهايته عن سيطرة الدول الكبرى على المدن. أما المدن التي ظلت خارج هذه السيطرة فليست إلا استثناء يؤكد القاعدة العامة : راغوز حافظت على « حريتها » لقاء قبولها بدفع الجزية للأتراك ، فاستفادت بذلك من زمن القرن السادس عشر الموقوف . وهذه جنوى تتراجع وتتخلى عن دورها أو تخونه ، فتضيع وتنهار . أما فلورنسا فظلت تصارع مصيرها بلا جدوى وبلا أمل ، فيما استمرت البندقية في صراعها العنيد فبقيت ، ولكن إلى متى ؟! إنه قدر المدن التي لم تستطع البقاء سيدة قدرها ومصيرها بسيطرتها على طرق مواصلاتها وعلى المناطق المتاخمة لها .

لكن الدول الإقليمية الزاحفة لم تستطع ، في المقابل ، أن تلتهم كل شيء وتعمل على تأمين حاجاتها كلها . فهذه الآلات الضخمة (الدول) بقيت عاجزة عن القيام بالمهمات الجديدة التي تصدت لها . فالإقتصاد المسمى إقليمياً لم يستطع خنق الإقتصاد المسمى مدينياً ، لأن المدن ظلت المحرك الفعلي لكل اقتصاد . وكان على الدول الناشئة أن تتأقلم مع هذه الواقعة وترضخ لها ، في مقابل سماحها للمدن بزراعة القمح الذي تحتاج اليه في أراضٍ تسيطر هي (الدول) عليها . هذه المعادلة سمحت للمدن بالمقاومة والعيش . هذا فضلاً عن أن مدن القرن السادس عشر الكبيرة ، برأسماليتها النشيطة والفعالة ، كانت قادرة على الحفاظ على هيمنتها الإقتصادية ومد شباك هذه الهيمنة على العالم كله . فالبندقية يعصى علينا تفسير صمودها إذا لم ننتبه إلى أنها كانت تتغذى من الإمبراطورية العثمانية . أما مأساة جنوى فتتلخص بفقدانها لامبراطورية اقتصادية وبعثها لأخرى لا تشبه الأولى في شيء . فقبل سقوط القسطنطينية وسقوط الأمبراطورية البيزنطية ، تالياً ، بيد الأتراك ، خسرت جنوى مصادر ثرواتها الأساسية التي كانت تحصل عليها من مستوطناتها التجارية القائمة على حدود الأمبراطورية

البيزنطية وعلى سواحل شمال إفريقيا . (وهذه هي الإمبراطورية الإقتصادية الأولى لجنوى) . أما امبراطوريتها الثانية فقد نشأت في الوقت الذي وجهت فيه وجهها ناحية الغرب ، أي في اتجاه المراكز التجارية القديمة في نابولي وميلانو والبندقية . بهذا عوضت جنوى خسارتها لمستوطناتها التجارية في المشرق بانتصارات مالية في الغرب . لكن هذه الإنتصارات ظلت ناقصة لأن الامبراطورية الجنوية التي امتدت شباكها غرباً ، هي امبراطورية عائلات كبيرة وليست امبراطورية المدينة نفسها . وعلى الرغم من هذا الأمر ظلت تلك الارستقراطية العائلية المالية أكبر مفارقة مدينية عرفها القرن السادس عشر ، لتظل جنوى نفسها مدينة الأعاجيب : أعاجيب المال التي جعلتها مركزاً لتوزيع المعدن الأميركي الأبيض طيلة عقد من السنوات(1570 ـ 1580) ، وأتاحت لها تالياً شراء الأراضي والعقارات في كلٍ من ميلانو ونابولي . هذا فضلاً عن اقتطاعها ريوعاً مالية عالية من إسبانيا وروما والبندقية . ففي إسبانيا كان الشعب يكره على نحو غريزي أولئك التجار الجنويين المتعجرفين الذين كانوا مسؤولين عن التأخر الاجتماعي والإقتصادي في مناطق كان يسيطر عليها من خارجها تجار جنويون حالوا دون نمو رأسمالية اسبانية محلية . هكذا ، في ظل عجز الدول الإقليمية عن السيطرة الكاملة على مجالاتها ، كانت تنفتح الأبواب في وجه مغامرات المدن وتجارها الذين جعلوا يراكمون ثرواتٍ هائلة .

هنالك أيضاً نمط آخر من المدن . إنها المدن التي تحالفت مع الدول الإقليمية ـ الشيطان . ونموذج هذه المدن كل من نابولي واسطمبول . أما مدريد فلم تعرف الازدهار إلا في عهد فيليب الرابع ، أي في ظل سيطرة الدولة الاقليمية . هذا فيما كانت روما حالة شاذة ، لأنه كان على أحد أمرائها (سكت كان) أن يكون مجنوناً كي يحول روما ـ هذه الطفيلية المدينية بامتياز ـ إلى مدينة عمل وانتاج . وحين نتحدث عن نابولي ـ هذه المدينة التي لا مثيل لها في الغرب المسيحي ـ يذهلنا عدد سكانها البالغ 280 ألف نسمة في سنة 1595 ، كما يذهلنا أيضاً تجمع كبار الأثرياء فيها إلى جانب الفقراء المعدومين . هذا فضلاً عن إنتاجها أفخم سلع البذخ والترف من دانتيل وحرير ، كأنها كانت باريس القرن السادس عشر التي يؤمها الفقراء من كل حدب وصوب ، هاربين من اضطهاد أسياد الأرض وباحثين عن « الحرية » ليزداد بوفادتهم عدد سكان المدينة ويتضخم وتتوسع رقعتها باستمرار . الأمر الذي جعلها بحاجة مستمرة الى القمح ، مما حمل الملك على تعيين نائبه محافظاً ـ وزيراً بلغة اليوم ـ عليها للإهتمام بشؤون التموين فيها . وفي حين كانت مداخيل نابولي لا تتعدى الـ 25 ألف دوكات في الشهر ، فإن مصاريفها كانت تتجاوز الـ 45 ألف دوكات ! لذا كانت مدينة القلق والضياع ، لا يستتب الأمن

والنظام فيها ليلاً ولا يعبر شوارعها في عتمة الليل إلا من إمتلك القوة أو الحنكة . إنها مدينة الضياع والمغامرة والتشرد . وإذا كانت نابولي في حجم إيطاليا وعلى صورتها ، فإن اسطمبول كانت في حجم الامبراطورية العثمانية الهائلة وعلى صورتها .

غداة فتحها كان عدد سكان اسطمبول أو القسطنطينية لا يتجاوز الـ 80 ألف نسمة . لكن هذا العدد لم يلبث أن ارتفع إلى 400 ألف نسمة بين سنة 1520 وسنة 1535 ، ليصبح في نهاية القرن السادس عشر 700 ألف نسمة . إنها مدينة الامتيازات والترف السياسي الذي سمح بنشوء المفارقات الإقتصادية الغافقة ، إلى الحد الذي أتاح للمدينة ألا تعرف تراجعاً لا في القرن السابع عشر ولا في القرن الذي أعقبه . إنها في الحقيقة لم تكن مدينة ، بل غولاً مدينياً يجمع شتات مدنٍ في مدينة واحدة متعددة ومنقسمة على نفسها . ففي آذار من العام 1581 لم تكن تكفي لإطعامها في يومٍ واحد ثماني سفنٍ من القمح آتية اليها من مصر . ومن البقر كانت تستهلك حوالي 200 ألف رأس سنوياً ، منهم 35 ألف رأس لصناعة البسترما . هذا فضلاً عن سبعة ملايين رأسٍ من الغنم وسبعة آلاف طن من الزبدة ، سنوياً . لقد كانت اسطمبول تغرف بلا حساب من ثروة الامبراطورية المترامية الأطراف ، مستفيدة من نظام حكم سلطوي وموجه : من اختيار طرق النقل إلى تحديد الأسعار الى المصادرة . فاسطمبول كانت تستهلك معظم ما تنتجه الأمبراطورية فضلاً عن سلع البذخ التي كانت تصل اليها من الغرب ، تستهلك هذا كله من دون أن تنتج أي شيء تقريباً ، فيما كانت كثرة من المدن تعمل وتنتج لأجلها . لكن اسطمبول كانت كغيرها من المدن الضخمة ، تتمتع بدورٍ هام هو علة وجودها : إنها وسيلة ثقافية وسياسية تحتاج لها كل حضارة ذات سلطان . هذه هي حالة نابولي في إيطاليا التي كانت ممزقة « أقطابها » المدينية . وربما كان ينقص إسبانيا عاصمة قوية لتقيم وحدة شبه الجزيرة الايبرية . ألم يخطىء فيليب الثاني في اتخاذه مدريد عاصمة له بدل لشبونة ؟ . فالعواصم ، في نهاية القرن السابع عشر ، تصدرت المشهد على نحو نهائي وثابت ، لأن الدول الحديثة كانت الآلات الوحيدة التي تستطيع فرض نفسها في ظل مرحلة من الركود والتراجع الإقتصاديين .

القسم الثاني

أقدار جماعية وحياة شاملة

رمت محاولتنا في القسم الأول الى استخلاص ما هو تكرار وبطء وحركة في قدر المتوسط ، وذلك انطلاقاً من المكان . أما محاولتنا في القسم الثاني فترمي إلى تناول تاريخ أكثر تفرداً وإلى الإمساك به : إنه تاريخ المجموعات البشرية وتاريخ المصائر الجماعية والحركات الشاملة ، أي التاريخ الاجتماعي للمتوسط . وفي هذا التاريخ ينطلق كل شيء من الإنسان ، من البشر ، وليس من الأشياء ، أي مما بناه الإنسان وأقامه في أثناء استخدامه للأشياء .

في الواقع يرمي هذا القسم إلى بيان غايات متناقضة . فهو يهتم ، من وجه أول ، ببنى اجتماعية ، أي بإواليات بطيئة التلف والاستنفاد ، ويهتم من وجهٍ آخر ، بحركة هذه البنى ، مازجاً بين ما نسميه البنى والظروف ، الثابت والمتحرك ، البطء والسرعة . وهذان الواقعان المتناقضان يشتركان في حياة كل يوم التي تنقسم على نفسها إلى ما لا نهاية بين ما يتغير وما يستمر على حاله . هذا هو سبيلنا إلى معالجة المسائل المتعلقة بالإقتصادات والدول والمجتمعات والحضارات وأشكال الحرب ، محاولين توجيه جهدنا في اتجاه إحاطةٍ وإدراك شاملين .

الفصل الأول

الاقتصادات : قياس القرن

لا يسعنا الوقوف على ما قام إنسان القرن السادس عشر ببنائه في المتوسط ولا على ما حاول بناءه ، من دون معرفتنا بحدود الطاقات والإمكانات التي كان يمتلكها ذلك الإنسان ، إن لجهة الوسائل والأدوات المادية وإن لجهة القدرات والأدوات الذهنية . وذلك لتجنب التصورات والأحكام الخاطئة التي تقفز ، عادة ، فوق الإمكانات المتاحة في تلك الحقبة وفوق المستوى الثقافي الذي كان سائداً فيها .

1 ـ المكان عدو وحاجز

لنبدأ بتخيل أبعاد المتوسط في القرن السادس عشر . لا نحتاج إلى كبير جهد حتى نتبين مساحات شاسعة ومسافات هائلة ، هي في آن معاً مجال فائدة واتصال ومجال حواجز ومعوقات . فإنسان ذلك القرن لم يكن يسعه السيطرة على المكان إلا بصعوبة بالغة ، لأن المتوسط كان في نظره مترامياً شاسعاً وليس من السهل التحكم به . وكان حال إنسان المتوسط في القرن السادس عشر كحال إنسان القرن العشرين ، حتى الأمس القريب ، بإزاء المحيط الأطلسي . يكفي للتثبت من هذا الأمر الاستماع للشكاوى المريرة من المدد الطويلة التي كان يستغرقها انتقال الرسائل البريدية . فانتقال هذه الرسائل كان الشغل الشاغل لرجال السياسة والقناصل الذين كانوا يقضون كثرة من الشهور في انتظار رسالة تحمل اليهم الأخبار والتعليمات من دولهم . أما الأموال فلم يكن انتقالها أسهل من انتقال الرسائل . فلا أحد كان يعلم مسبقاً كم يلزم من الوقت لاجتياز المسافات ، لأن تجنب مخاطر الانتقال ظل خاضعاً للصدفة والحظ وشدة الإنتباه والحذر . هكذا ظل ، مثلاً ، سفير البندقية في مدريد ستين يوماً في انتظار خبرٍ يصله من إيطاليا .

لم يكن الانتقال في البحر أحسن حالاً من الانتقال في البر . فإذا نظرنا إلى البحر

المتوسط بعين إنسان القرن السادس عشر لبرز لنا مجالاً مائياً لا حد لاتساعه بالقياس إلى حركة السفن الشراعية وسرعتها التي كانت دائماً تحت رحمة الرياح . كان الانتقال من مضيق جبل طارق إلى اسطمبول يستغرق شهرين على الأقل . أما الانتقال من مرسيليا إلى الجزائر فكان يستغرق أسبوعاً أو أسبوعين . وفضلاً عن هذا البطء كان هنالك أيضاً عدم الانتظام واستحالة تحديد معدل السرعة ، تماماً على نحو ما كان الحال في البر . هذه الأمور كلها كانت بمثابة مسألة بنيوية في عديد من المستويات . فالثورة الحديثة لم تضاعف السرعة فحسب ، بل أدخلت الانتظام والدقة على برامج الرحلات وقضت على التقلب والصدفة التي كانت تتدخل في تلك البرامج حتى الأمس القريب . والطقس الرديء وتقلبات الفصول التي لا معنى لها في هذه الأيام كانت عوامل مؤثرة في نظام الانتقال في القرن السادس عشر . لذا كان البحر المتوسط الذي يبدو لإنسان اليوم حيزاً مائياً ضيقاً ، يبدو لإنسان الأمس حداً وحاجزاً لا مدى لاتساعه وترامية . وحتى نهاية القرن الثامن عشر كانت أحوال النقل على ما هي عليه منذ قرون : كانت السلع والمسافرون ينتقلون بالسرعة نفسها ، الأمر الذي يحملنا على القول إنه لم يكن هنالك سرعة خاصة بالقرن السادس عشر . والمكان بدوره كان ثابت الأبعاد . وهذه الأمور كلها تضعنا أمام بنية طويلة المدى . فمتوسط القرن السادس عشر كان في معنىً ما يحتفظ بأبعاد الحيز الروماني نفسها ، وهي الأبعاد التي كان قد مضى على نشوئها ألف من السنوات . لذا يمكننا تشبيه البحر المتوسط بصورة العالم كله التي كانت سائدة في العام 1939 ، ويصعب علينا نعته بالحيز « الانساني » إلا بمقارنته بالغول الأطلسي الكبير ، فكيف تكون الحال إذن إذا ما قارناه بالمحيط الهادىء ؟! ولتخيل الصورة التي كان عليها البحر المتوسط في أذهان بشر القرن السادس عشر ، علينا استعادة صور مغامرين استمرت رحلاتهم فيه أشهراً ، بل سنواتٍ ، وأعماراً كاملة .

ما يهمنا في هذا المجال هو الإشارة الى تحكم حجم العالم المتوسطي (الذي يمكن تسميته بالإقتصاد ـ العالم) ببنيته السياسية والإقتصادية في أوجهها المتعددة . فحين ندرك كم كانت المسافات عائقاً في وجه البشر نرى بعين جديدةٍ المشكلات التي كانت تطرحها إدارة الإمبراطوريات وتدبير شؤونها في القرن السادس عشر . فالامبراطورية الإسبانية الشاسعة لم تكن إلا كناية عن مشاريع ومنشآت هائلة للنقل البري والبحري . وسياسة أمبراطورها فيليب الثاني كانت تستلزم ، فضلاً عن الجيوش المتحركة ، وسائل اتصالٍ يومي تتيح تبليغ أوامر وأخبارٍ معينة ، وتستلزم أيضاً وسائل لنقل المعادن الثمينة والصكوك المالية . . . هذه الأمور تفسر كثرة من إجراءاته مثلما تفسر أهمية فرنسا لوقوعها في حيزٍ يتوسط شبكتي طرق النقل وطرق البريد . هكذا استهلكت هذه

الأمبراطورية قواها وشتتتها في الصراع ضد المكان ـ المسافة ، في تنوعه وتعدد أبعاده . إنه صراع ضد البطء ، لأن فيليب الثاني كان دائماً بحاجةٍ إلى آراء وأخبارٍ ورسائل هامةٍ كلها في اتخاذ قراراته السياسية والعسكرية . وإذا أضفنا إلى بطء الآلة الإسبانية بطء الملاحة في كلٍ من الأطلسي والهندي والهادىء ، نعرف لماذا كان يخفق قلب الامبراطورية الاسبانية بوتيرة أبطأ من خفقان قلوب الامبراطوريات الأخرى .

في مثل هذه الظروف كان الخبر سلعة ترفٍ لا تقاس قيمتها بغير الذهب . والتفاوت في أسعار نقل الرسائل كان كالتفاوت في السرعة . وحدهم التجار والحكام كانوا يستطيعون تحمل كلفة الإتصالات السريعة . ففي تموز من سنة 1560 كلفت رسالة من فيليب الثاني أكثر من راتب أستاذ جامعي في سنة كاملة . أما السرعة القصوى التي تعهدت باعتمادها في النقل شركة « تاسي » بين روما ومدريد فكانت 24 يوماً في الصيف و26 يوماً في الشتاء . والرحلات التجارية إلى سوريا في الطرف الشمالي من المتوسط كانت لا تخلو من متاعب القرصنة ، لأن الرحالة التجاريين كانوا مرغمين على القيام برحلاتهم محملين بالذهب والفضة لشراء السلع ، والسبب في ذلك يعود إلى أن الكمبيالات لم تكن تستخدم بين عوالم مختلفة ومتباعدة ومتصارعة ولا يثق بعضها بالبعض الآخر .

كانت الأنشطة كلها ، لا سيما الاقتصادية منها ، محكومة بالبطء في المتوسط كله ، بسبب إصطدامها دائماً بمعوقات الحيز المكاني ومقاومته لها . لذا لم يكن شيء ينجو من قانون البطء هذا ، بل الجمود : لا السلع ولا الرسائل ولا الصكوك المالية ولا المعادن الثمينة . ثم إن هذا الجمود كان يتضاعف في حال انتقال السلع التركيبية . فلكي يتم توضيب الزعفران في شرق المتوسط كان يجب انتظار أكياس الكتان الآتية من ألمانيا وبالات الجلد الآتية من هنغاريا . ومثل هذا البطء في الشبكة الإقتصادية المتوسطية كان مرضاً عاماً متفشياً في شبكات الإتصال كافة . ومأساة المصارف الخاصة كان البطء سببها ، لأنها كانت تعمل على توظيف أموال زبائنها معتمدة على كمبيالات يعاني انتقالها أزمة انتقال الرسائل . لذا عمد بعض التجار إلى توزيع أموالهم وسلعهم المنقولة على شبكات نقل كثيرة يمكن أن تختصر المسافات وتؤمن لهم ربحاً سريعاً . وإذا كان التجار الأيطاليون فضلوا القطن السوري على الانكليزي فلكي يتلافوا أخطار الرحلات الطويلة والمضنية في اتجاه إنكلترا أو غيرها . وقد حدث في أيار من العام 1657 أن عادت إحدى السفن إلى أكابولكو قادمة من المحيط الأطلسي ، خالٍ متنها من أي بحارٍ على قيد الحياة . وحدها الثروة وصلت مع السفينة التي قذفتها الرياح إلى الشاطىء . والمخاطرة بالحياة لم تكن وحدها الماثلة في وجه البحارة ، بل كانت المخاطرة بالأموال

هاجساً دائماً للتجار ، الأمر الذي كان يؤدي أحياناً إلى إفراغ المراكز التجارية من النقد . فبسبب توجه أسطولها التجاري نحو سوريا في آذار من العام 1464 ، فرغت البندقية من السيولة النقدية وشُلت الحركة الإقتصادية فيها . وقد تكرر هذا الوضع في أكثر من مدينة ، لينجلي أحياناً عن أزمات خانقة سببها تأخر وصول السفن . هذا كان حال شبكة المواصلات وخطوط التجارة البعيدة المدى ، براً وبحراً ، فكيف كان حال شبكة الحياة الإقتصادية في المدن والداخل ؟

كانت المراكز التجارية للمدن المحركات الأقوى في دفع دورة الحياة الإقتصادية التي كانت تكسر عداء المسافات وتطلق خطوط المواصلات الكبرى . وإلى جانب هذه المراكز التجارية المدينية كانت هنالك نشاطات اقتصادية تنضاف اليها . أبرز هذه النشاطات كانت الأسواق أو المعارض المؤقتة التي كانت تقام في ساحات المدن بحسب متطلبات هذه الأخيرة . وهذه المعارض أو الأسواق كانت تتحول أحياناً إلى أسواق للتبادل النقدي المحض ، من دون أن يتحول هذا الأمر الى قاعدة ثابتة وعامة ، بل كان يقوى ويضعف ويغيب بحسب تقلبات الظروف . وعلى المدى الطويل سوف تلتهم المدن هذه الأسواق وتلغيها ، لكن ليس من غير مفاجآت . فها هي ذي أسواق التبادل النقدي في بليزانس بشمال إيطاليا تبرز في سنة 1579 ، كأكبر حدث في القرن من وجهة تاريخ الرأسمالية . فـ « قلب » اقتصاد المتوسط والغرب كله ظل لسنوات طويلة ينبض في بليزانس وليس في جنوى . فعن تجمع مئات رجال الأعمال في بليزانس ، وعن توزيع الكمبيالات والفوائد والديون والفضة والذهب منها ، كانت تنجم شبكة من الشرايين الإقتصادية التي ستحدد وتيرة الحياة المادية في الغرب كله لاحقاً .

الأسواق المحلية كانت بدورها كثيرة العدد ومنتشرة في أنحاء أوروبا كلها . وكانت طبيعة هذه الأسواق المحلية شبيهة بطبيعة الأسواق الكبرى ، لكنها كانت تقام في فترات محددة تتراوح بين الأسبوع والشهر . والى جانب التجار الكبار الذين كانوا يتعاملون بالكمبيالات كان يقصد هذه الأسواق التجار الصغار الذين كانوا يبيعون منتجاتهم المحلية من المواشي والجبن والنبيذ . أما أهمية هذه الأسواق المحلية فتكمن في أنها كانت تنشّط التبادل وطرق المواصلات ، بفعل تنظيمها اللقاء بين كبريات الطرق التجارية المدينية والأخرى الريفية .

من وجهٍ آخر كان المتوسط مزدهراً بمناطقه الاقتصادية الضيقة أو الواسعة شبه المغلقة . والانغلاق جعل هذه المناطق الاقتصادية تنظم أنشطتها وفق تقاليدها وأزيائها ولهجاتها وأشكال التبادل المتبعة فيها . هنالك مثلاً سردينيا وكورسيكا اللتان كانتا على هامش الحياة الإقتصادية المتوسطية الكبرى وعلاقاتها . فبعض مناطق هاتين الجزيرتين

ظلت حتى القرن الثامن عشر تجهل استخدام العربات كوسيلة للنقل ، كما ظلت أيضاً تجهل النقد وتعيش اقتصاداً اكتفائياً ، حتى القرن السادس عشر . أما البلقان فظلت تعيش مغلقة على نفسها إقتصادياً حتى أصبحت محط أنظار تجار البندقية ، بسبب إنخفاض الأسعار فيها . فالإكتفاء كان هو السائد في مثل هذه المناطق ، أما النقد فكان لا يلبث أن يبرز حتى يختفي على نحو مفاجىء . والمناطق التي كانت تعيش على هامش الاقتصاد النقدي لم تكن خاصية متوسطية ، ففي كل من ألمانيا وفرنسا وإنكلترا وايرلندا كانت تكثر أمثال هذه المناطق . إنها مسألة عامة تخص القرن السادس عشر بضيق اقتصاده النقدي وقِدم نظامه الاقتصادي الذي لم يبدأ في ذلك القرن ولم ينته بانتهائه . ولكن يجب علينا ألا نتسرع في التعميم . فأشد المناطق انغلاقاً كانت تترك حيزاً ولو صغيراً في نظامها التبادلي يتسرب منه السوق . فصقلية مثلاً كانت مركزاً لتصدير القمح ، وسردينيا لم تكن بدورها مغلقة على نحو كلي في وجه العالم المتوسطي . لكنه التفاوت الدائم بين مناطق متقدمة وأخرى متخلفة ، وبين مستويات الحياة الإقتصادية ، ما يحملنا على الحديث عن الإنغلاقِ والإنفتاح . فالتاجر الجنوي كان في كورسيكا ، على نحو ما كان التاجر البندقي في حلب . والإثنان كانا يستفيدان من يدٍ عاملة رخيصة الأجر ومن تدني أسعار السلع ، في كلٍ من كورسيكا وحلب . هكذا كانت المدن بحاجة إلى البلاد الفقيرة المحيطة بها ، وهكذا كانت الحياة الإقتصادية المتوسطية تعيش إختلاطاً وتداخلاً بين اقتصاد حيوي ومتقدم وبين إقتصاد آخر أقل حيوية وتقدماً .

عرف المتوسط تقسيماً جغرافياً واضحاً للعمل ، على الرغم من أن حدود هذا التقسيم لا تبدو لنا على نحو جلي ودقيق . فالمتوسط ، بوصفه اقتصاداً ـ عالماً ، برزت فيه مراكز أو مناطق محددة كانت تلعب دور الدافع للمناطق الأخرى . والمركز المتوسطي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان ذلك الرباعي المديني : البندقية ، ميلانو ، جنوى ، وفلورنسا ، وذلك على الرغم من اختلاف هذه المدن ونزاعاتها وتنقل مركز الثقل بينها . فهذه جنوى ترث البندقية لمعاناً وجذباً بين العام 1550 والعام 1575 . أما البندقية فكانت في القرن الخامس عشر مركز البحر الداخلي ومركز العالم الذي ولد من ربط أوروبا بالمتوسط . إنها مركز متوسطي ولكنها كانت ترتكز أيضاً على أقطاب تصلها بالشمال ، إرتكازها على مدن قوية في جوارها : ميلانو ، فلورنسا ، وجنوى . لم ينشأ هذا التعاون من دون نزاعات . فصراع هذه المدن بعضها مع البعض الآخر وصراعها مع الدول الناشئة ، كانا وجهين لما سمي بحرب المئة عام . وفي أثناء حقبة السلم التي أعقبت هذه الحرب (1454 ـ 1494) ظلت المدن الأربع مهيمنة ، فيما كانت البندقية مسيطرة ، من دون أن تثير السياسة اهتمامها ، بل المال والكمبيالات

والنسيج والتوابل والملاحة . وعلى الرغم من خسارتها لكل من سالونيك (1430) والقسطنطينية (1453) ، فقد عوضت عنهما بالسيطرة على قبرص التي أمّنت لها تفوقاً على جنوى يعادل تفوق انكلترا على فرنسا ، بعدما احتلت انكلترا الهند . لكن القرن السادس عشر حمل معه الويل للمدن الغنية . فجنوى وميلانو وفلورنسا أصيبت في هذا القرن بكوارث كثيرة : جنوى نُهبت واحتُلت ولم يبق فيها من ثرواتها غير أوراق الكمبيالات الأمر الذي أرغمها على الالتحاق بشارلكان . هكذا بدأت تبرز سيڤيل ولشبونة في العام 1530 ، لكن من دون أن تفقد سلسلة المدن الواقعة بين أنڤير والبندقية موقعها ودورها في الحوض الشرقي من المتوسط ، مع العلم أنها خسرت مواقعها في شمال إفريقيا ، ولم يكن لها موطىء قدم في الأطلسي . ولولا نمو صناعاتها لخسرت البندقية دورها وموقعها المتميزين . وعندما بدأ تجار البندقية يتشتتون في نهاية القرن السادس عشر ، أبقوا لمدينتهم ظلاً من « امبراطورية رأسمالية » كانت تمتد من سيڤيل إلى نابولي إلى الجزائر إلى ليون . لكن على الرغم من تعاظم ثروتها فإن البندقية لم تعد مركزاً للبحر الداخلي ، بسبب انتقال النشاطات الإقتصادية الكبرى من شرق المتوسط الى غربه في القرن السادس عشر ، فاستفادت كل من فلورنسا وجنوى من ذلك الانتقال . الأولى جعلت ليون مركزاً لها وعملت على تنميتها ، ومنها مدت شبكاتها الى فرنسا من دون أن تخسر مواقعها في ألمانيا . والثانية وجهت أنظارها نحو اسبانيا وأميركا ، ثم لم تلبث البندقية نفسها أن وقعت تحت سيطرتها الإقتصادية . ومع تأسيس أسواق النقد الكبرى في بليزانس في العام 1579 ، أصبح تجار جنوى أسياد المدفوعات العالمية وأسياد الأموال السياسية الاسبانية وأسياد ثروة أوروبا التي شكلت تدفق الكمبيالات اليها وتنقلها فيها العلامة الأساسية في النصف الثاني من القرن السادس عشر . أما « قرن جنوى الذهبي » فقد أعقب كلاً من سقوط أنڤير ونهبها وأزمة أسواق مدينة دلكمبو وضعف ليون ، وهو لن ينتهي قبل بروز سيطرة الرأسمالية في أمستردام (1620 ـ 1630) ، على أيدي أثرياء البرتغال .

2 ـ عدد السكان

يمكن لعدد السكان أن يعطينا صورة للمتوسط في القرن السادس عشر ، على الرغم من أن الإحصاءات لا تقدم لنا أرقاماً دقيقة ، بل تقريبية . والرقم التقريبي لعدد سكان المتوسط في القرن السادس عشر ، هو ستون مليون نسمة ، 38 مليون منهم في بلدان المتوسط الأوروبية و22 مليون في البلدان الاسلامية ، من ضمنها البلقان . وهذا الرقم الأخير غير دقيق ، لأنه في طبعة هذا الكتاب الأخيرة ارتفع إلى 30 مليون ، مع الإشارة الى قرب هذا الرقم من الصواب استناداً إلى أبحاث المؤرخ التركي عمر لطفي

بركات . أما الرقم الأوروبي فيقترب من الصواب . وفي العام 1850 قفز عدد سكان المجموعة الأولى الى 78,5 مليون نسمة ، وقفز عدد سكان المجموعة الثانية إلى 50 مليون نسمة . أما في العام 1930 فصار عدد سكان أوروبا المتوسطية 113 مليون نسمة ، وعدد سكان المتوسط الاسلامي 83 مليون نسمة . وإذا عدنا إلى القرن السادس عشر لقياس الكثافة السكانية لوجدناها 17 نسمة في الكلم[2] الواحد ، وينخفض هذا الرقم إذا أدرجنا الصحاري في الحيز المتوسطي . ومن المرجح أن تكون الكثافة السكانية أقل من هذا الرقم بكثير ، باعتبار أن المتوسط كان أكثر إتساعاً مما هو عليه اليوم ، بسبب صعوبة السيطرة على المكان فيه ، كما بينا أعلاه . ينجم عن ذلك قفار واسعة يساعد التمركز المديني والجفاف على اتساعها ، ويجعلان من المناطق المأهولة واحات إنسانية متباعدة ، تفصل بينها قفار شاسعة تزداد وتتسع كلما اتجهنا نحو الشرق حيث الصحاري الحقيقية في كل من آسيا وشمال إفريقيا . وكانت تلك الصحاري والقفار مرتعاً للحيوانات البرية المفترسة .

في القرن السادس عشر كانت الكثافة السكانية في الغرب المتوسطي تفوق نظيرتها في الشرق الإسلامي . فالمساحات المقفرة والصحاري في الشرق المتوسطي جعلته خزاناً لتربية المواشي وزادت من قوته العسكرية . وما وقوف بلاد البلقان وشمال إفريقيا حصناً منيعاً في وجه السيطرة الأوروبية المسيحية إلا بفضل إتساع مساحاتها وكثرة الخيول والجمال فيها . فخلف الجيش التركي كانت الجمال تستكمل سيطرتها على شبه جزيرة البلقان لتصل إلى هنغاريا. وخلف حصون ڤيينا كانت الجمال أيضاً تمون جيوش سليمان الحكيم في سنة 1529 . وانتقال الخيول والجمال إلى أوروبا كان مشهداً يومياً في مرفأ اسطمبول . وفي مواجهة أوروبا على طول الحدود الهنغارية كانت الخيول أحد عوامل قوة الإسلام ومحط دهشة المسيحيين الأوروبيين . فالخيول الأوروبية بالمقارنة مع الخيول الإسلامية كانت تبدو ثقيلة الهمة وعديمة المهارة ولا تستطيع الجري أمام خيول الأتراك ولا إدراكها حين كان يفر بها الخيالة المحاربون . وهذا دون جوان النمسا ركب ورجاله البحر وتوجه لاحتلال البانيا حاملاً معه الأموال لشراء الخيول التي تؤمن له النصر حين نزوله الى البر . باختصار كان عدد سكان أوروبا كبيراً ويفوق ما يحتاجون اليه من الخيول ، فيما كان عدد الخيول يفوق بكثير عدد السكان في الجهة الاسلامية المقابلة . وهذا اللاتوازن هو ما يفسر تسامح الاسلام واستقباله الناس الوافدين من كل جهةٍ صوب إلى دياره الواسعة .

في نهاية القرن الخامس عشر بدأ عدد سكان المتوسط يزداد في مناطقه كلها ، من دون أن يتوقف هذا الإزدياد إلا في بداية القرن السابع عشر . أي أن القرن السادس

عشر قد شهد ثورة بيولوجية هائلة ضاعفت عدد سكان المتوسط وكانت الحدث الأكبر في قدره ومصيره . إنها ثورة تفوق أهميتها كلاً من الأحداث التالية : الفتح العثماني ، إكتشاف أميركا واستعمارها ، مستقبل اسبانيا الامبراطوري . ذلك لأن الأحداث المذكورة ما كانت لتحصل كلها بمعزل عن التكاثر السكاني الذي يفسر ، من دون أدنى شكٍ ، « ثورة الأسعار » التي حصلت قبل الوصول الكثيف للمعدن الأميركي الأبيض إلى المتوسط . إن ذلك النمو السكاني كان في أصل انتصارات قرن كامل وكوارثه في آن معاً ، كما كان أيضاً عاملاً مفيداً وناجعاً وشكل عبئاً ثقيلاً . فأعباء إزدياد عدد السكان ألقت بثقلها على الحياة الإقتصادية ، فبدأت تظهر أعمال اللصوصية وأعمال قطع الطرق . وإذا كنا نتكلم عن ما قبل التوازنات الجديدة للقرن الثامن عشر ، أي عن جماعات « النظام القديم » التي كانت تتميز بتذبذبها واضطرابها ، فعلينا أن نقول إن الموت آنذاك كان يأخذ بتلابيب الحياة التي كانت تثأر من الموت في صبرٍ وجلد . ثم علينا أن نقول أيضاً إن تقلبات الظروف « الطبيعية » البيولوجية كانت تخضع للتقلبات الإقتصادية .

لولا انفتاح حدوده في الإتجاهات كلها ، وفي اتجاه الأطلسي بوجهٍ خاص ، كان على المتوسط أن يجد بنفسه حلاً لمشكلة تضخم عدد سكانه ، إما من طريق اختزاله للفائض منهم وحذفه وإما من طريق توزيع ذلك الفائض داخل حدوده . فالمحاولات المتكررة لطرد اليهود ابتداء من مطلع القرن الخامس عشر من المدن الإيطالية ومن توسكانا ومن إسبانيا كانت مؤشراً على التضخم السكاني في المتوسط . وعمليات طرد الموريسك (مسلمي إسبانيا) في عهد فيليب الثاني لم تكن إلا مؤشراً على الأمر نفسه . ولم تكن تشذ عن ذلك سياسة التضييق على البروتستانت التي اتبعها لويس الرابع عشر في فرنسا . وللأسباب عينها حصل النزوح الكثيف من المناطق الجبلية في اتجاه السهول والمدن ، فضلاً عن نزوح مجموعات كبيرة من سكان البلدان المسيحية إلى البلدان الإسلامية . فمدينة الجزائر ، وبوصفها مدينة مهاجرين ، تشير إلى ذلك النزوح الكثيف . أما الهجرة الإيطالية فتوزعت على كلٍ من بلدان الشمال الأوروبي وبلدان الإسلام وصولاً الى الهند . ومن إسبانيا هاجر نحو مئة ألف نسمة عابرين المحيط في اتجاه أميركا . إنها هجرات ذات دلالات هامة قياساً إلى عدد السكان في القرن السادس عشر ، والدليل أن الإسبان أصابهم الخوف من أن يفرغ بلدهم من سكانه . إلا أن فرنسا التي كانت نموذجاً للبلاد المكتظة بالسكان ، جعلت تدفع على نحو مستمر فائضها البشري في اتجاه شبه الجزيرة الأيبرية .

3 ـ نموذج الإقتصاد المتوسطي

لا يخلو بناء نموذج عام للحياة المادية في المتوسط من صعوبات كثيرة . هنالك أولاً نقص في المعلومات وعدم دقة المتوافر منها . وهنالك ثانياً غياب التداول النقدي على نحو فعلي وعميق في المجتمعات المتوسطية ، فضلاً عن تنوع العملات التي كانت موضوعة قيد التداول ، واختلاقها . هذه الثغرات لن تحول دون قيامنا ببناء نموذج للحياة المادية المتوسطية على مستوى القرن السادس عشر برمته ، وليس على مستوى حقبة محددة ، وذلك للوقوف على خطوط عامة لتجارب متلاحقة تتيح جلاء البنى الأساسية لتلك الحياة المادية .

لم تكن الزراعة تؤمن للمتوسط حاجاته اليومية فحسب ، بل كانت تنتج له أيضاً سلسلة من الصادرات ذات السعر المرتفع : الزيت والنبيذ الممتاز الذي كان يُنتج في الجزر ويصدر إلى ألمانيا . هذا فضلاً عن تصديره كمياتٍ من الفواكه والحمضيات . والفائض في المنتوجات الزراعية إضافة إلى الصادرات الصناعية كانا يسدان إما نفقات مشتريات المتوسط من القمح وإما نفقات مشترياته من الأسماك المجففة وإما نفقات مشترياته من السكر الذي كان يَرِدُ اليه عابراً المحيط الأطلسي . فالإستهلاك السنوي للشخص الواحد في المتوسط من القمح كان يبلغ حوالي قنطارين ، أي ما مجموعه 120 مليون قنطارٍ يستهلكها سنوياً سكان المتوسط مجتمعين . أما ما كان يستهلكه أولئك السكان من اللحوم والأسماك والزيت ، فكان يُعد كمالياً بالمقارنة مع الضروري .

كانت الزراعة الصناعة الأولى في المتوسط ، على الرغم من أن العائدات الزراعية للجنوب المتوسطي لم تكن تغطي إلا جزءاً ضئيلاً من العائدات الزراعية المتوسطية العامة . ولكن انتاج القمح وحده كان يبين التفوق الكاسح للانتاج الزراعي في المتوسط على مجالات الانتاج الأخرى . أما القمح الذي كان يدخل الى المتوسط من طريق التبادل التجاري الذي كانت تتيحه طرق البحر ، فلم يكن يتجاوز المليون قنطار سنوياً . أي ما معدله 0,8 بالمئة من معدل الإستهلاك السنوي العام . إنها في وجه من وجوهها تجارة هامة على مستوى القرن ، ولكنها في المقابل ضئيلة الأهمية قياساً إلى مجمل الاستهلاك السنوي من القمح . لذا يمكننا القول إن المتوسط ، في وجه عام ، عاش من زراعاته المحلية أو الخاصة . فالعوالم المدينية المتوسطية لم تكن تسلّم زمام تموينها الغذائي للخارج البعيد ، إذ إن « قمح البحر » كان غذاء الفقراء ، بينما كان الأغنياء يفضلون القمح المنتج في الأرياف القريبة منهم .

كانت بنية المتوسط الانتاجية عديمة الليونة . فالعالم المتوسطي عالم فلاحين وملاكٍ

عقاريين ، الأمر الذي أبقى الأرض المصدر الأول للحياة والانتـاج ، وأبقى أساليب الزراعة ونظام المزروعات من دون أي تطور يذكر . أما ازدهار صناعة كلٍ من الزيوت والنبيذ في الأندلس فكان سببه ازدياد حاجة أميركا إليهما . وقبل القرن السابع عشر ، أي قبل دخول زراعة الذرة إلى المتوسط ، لن يعرف هذا الأخير أية « ثورة » داخلية في أساليب الزراعة ونظامها . فالإستثمار في الأرياف كان قوامه نظام الريوع والديون التي كانت تتنقل وفوائدها بين المدن والأرياف . وتوظيف رجال الأعمال لأموالهم في المجال الزراعي كان عملية فعالة ومضمونة ، لأنه كان في مستطاعهم مصادرة الأرض في حال عدم وفاء المدين بالدين وفوائده ، الأمر الذي جعل الأموال الموظفة في الزراعة هائلة الحجم . لكن الانتاج الزراعي المتوسطي لم يكن خاضعاً للتبـادل النقدي إلا بنسبـة محدودة (30 ـ 40 بالمئة) من المعدل الاجمالي لذلك الانتاج . أضف إلى ما تقدم أن الانتاج الزراعي للمتوسط كان يخضع على نحوٍ دائم لظروف مناخية وتقنية سيئة ، لا تعمل على توفير التهوئة اللازمة للأراضي الزراعية . أما الإستصلاحات التي أدخلت تحسينات جديدة على الحياة الزراعية فلم تقدم لفلاحي المتوسط أراضٍ أكثر إتساعاً من الأراضي التي كانت تُزرع في القرن الثالث عشر . واندفاعة القرن السادس عشر في المجال الزراعي لم تكن في واقع الأمر إلا استعادة لما تم إنجازه في القرن الثالث عشر . هذا ولم تلبث تلك الاندفاعة أن تـوقفت كالأولى بسبب عـدم مرونـة البنى الزراعيـة المتوسطية . فالأرض الجديدة التي استصلحت كانت انتاجيتها متدنية قياسـاً إلى عدد الأفواه الجديدة المحتاجة للغذاء . أي أن مالتوس كان على حق ، في معنىٍ من المعاني ، قبل أن يتكلم .

حدث التحول الكبير في أعقاب العام 1580 . فالأزمـة الكامنـة بدأت تـبرز وتتفاقم في الوقت الذي تسارعت فيه عمليات التبادل النقدي ، أو ما يمكن تسميته بثورة المال . هكذا بدأت الاستثمارات الزراعية تعاني من صعوبات كثيرة ، بسبب صعوبة حصول الفلاحين على قروض تتيح لهم القيام بأعمالهم الزراعية ، الأمر الذي أدى إلى قيام الدائنين الذين لم تُدفع لهم ديونهم بمصادرة الأراضي الزراعية . ومن هذا الوضع الذي كان من الصعب تجاوزه بسبب عدم مرونة الحياة الزراعيـة ، ستولـد في القرن السابع عشر « العودة إلى الإقطاع » ، كثورة زراعية معكوسة .

إذا انتقلنا إلى المجال الصناعي فإننا سنجد أن مليونين إلى ثلاثة ملايين شخصٍ يعيشون من الحرف ، أي ما يقارب ثلث سكان المدن الذي يبلغ 10 بالمئة من إجماليٍ عدد سكان المتوسط . لكن علينا ألا ننسى الحرفيين الريفيين ، لأنه ما من قرية تخلو من حرفيين . هذا فضلاً عن أن ما من مدينـة لم تعمل عـلى بعث صناعـات حرفيـة في

جوارها . وهي صناعات كانت المدن تحتاج إليها ولا تستطيع إيواءها ، إما بسبب ندرة المواد الأولية فيها ، وإما لضعف قواها المحركة . فالمدينة كانت تعيش ، في هذا المجال ، على تدني أجور العمل في الأرياف ، قريبها وبعيدها . لكن من المرجح أن الصناعة الريفية المتوسطية لم تكتسب قوة نظيرتها في أوروبا الشمالية ، مع العلم أن الأولى كانت أكثر توازناً في حياتها الخاصة المستقلة ، من الأخيرة . وربما كانت زراعة الزيتون والكرمة في المتوسط تشكل المكافىء للصناعات الريفية الشمالية . لكن في وجه عام كانت قيمة الانتاج الصناعي الإجمالية متدنية عن قيمة الإنتاج الزراعي ، مع الإشارة إلى أن الانتاج الأول كان مدرجاً في الاقتصاد النقدي بنسبة أعلى من اندراج الثاني في ذلك الإقتصاد .

إبتداءً من العام 1520 وحتى العام 1540 تنامت الصناعات المدينية في المتوسط . وفي الحقيقة شمل هذا التنامي ، فضلاً عن المتوسط ، أوروبا بأكملها ، معوضاً عن التراجع التجاري الذي شهده المتوسط في القرن السادس عشر . هكذا حلّت الرأسمالية الصناعية الصاعدة محل الرأسمالية التجارية المتراجعة . وكانت تلك الصناعات الناشئة ذات نمط رأسمالي ، خاصة في ظل تعاظم التداول النقدي . ودور التاجر في تلك الصناعات كان تقديم المواد الأولية وتسويق السلع التي ينتجها الحرفيون أو تصديرها . وقد برز هذا الدور للتجار في صناعة الحرير على وجه التخصيص . فنتج عن هذه العملية تمركز للمنشآت الصناعية واندفاع في قوتها ، فضلاً عن نزوع إلى تقسيم أفضل للعمل والى ازدياد في الانتاج . هذا ما ظهر جلياً في كل من مدن ساكوفي وكورون وتولاند والبندقية وجنوى ، فيما بدأ ينحط نشاط فلورنسا الصناعي منذ العام 1580 . وقد استمرت اندفاعة المدن المذكورة حتى القرن السابع عشر ، بسبب وفرة اليد العاملة فيها ، فضلاً عن توافر التقنيات الصناعية الجديدة اللازمة لصناعاتها . هذا وذاك الى جانب توافد « رجال جدد » من أصحاب الخبرات المتازة اليها . فإلى البندقية وصلت كثرة من أولئك الرجال الغرباء الذين عملوا في جهد حوالي 15 سنة أو عشرين ، قبل حصولهم على حق المواطنية من أسياد المدينة . وعلى وجه العموم يمكننا القول إن القرن السادس عشر لم يشهد حراكية في أي من المجالات تضاهي حراكية اليد العاملة الصناعية . والدليل أن الصناعة التي كانت منتشرة في أوروبا أعادت توزيع حرفييها على نحوٍ جديد في ذلك القرن . وفي الامبراطورية العثمانية حدثت الحراكية نفسها ، إذ كان العاملون في صناعاتها من المهاجرين والأسرى والمسيحيين ومن الحرفيين اليهود الذين أنشأوا صناعة الشراشف في القسطنطينية .

هذه الوتيرة المتنامية تخللتها بعض الاستثناءات ، والدليل قلة معرفتنا بكثرة من

الصناعات . لكن الثابت أن صناعة كلٍ من النسيج والبناء كانت من أهم الصناعات وأكثرها إزدهاراً ، فلا ينبغي ، إذن ، أنْ تصرفنا الاستثناءات عن تتبع الوتيرة العامة الصاعدة . فالصناعة في الأصل هي بديل عن قطاعات اقتصادية أخرى وتعويض عن تعثرها أو تدهورها . والنمو الصناعي يحدث عادة بحسب خط منحنٍ ، فيما يحدث الانحطاط على نحو مفاجىء وبحسب خطٍ عامودي . المثال على هاتين الحركتين المتعاكستين صناعة كل من الشراشف والأصواف في الامبراطورية العثمانية ، وهما صناعتان استمرتا في النمو والإزدهار حتى العام 1564 الذي شهد انهيارهما بسرعة كبيرة في كلٍ من سالونيك وصفد ، فهجر الحرفيون اليهود هذه الأخيرة سنة 1584 . وهذا المثال نموذجي في تجسيده للحالة الاقتصادية العامة في الامبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر . فبالإضافة الى الصعوبات التي بدأت الأمبراطورية تعانيها للحصول على الأصواف بالتزامن مع وصول النسيج الإنكليزي إلى المشرق في العام 1580 ، هنالك أيضاً نمو الصناعة الإيطالية . هذه الأمور مجتمعة حدثت في ظل أزمة نقدية واقتصادية أغرقت الامبراطورية في التضخم النقدي .

مهما قلّلنا من شأن الإندفاعة الصناعية التي حصلت في المتوسط بين سنة 1520 وسنة 1540 بالمقارنة مع الإندفاعة الهائلة التي ظهرت كقوة بلا منازع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلا بد من الإعتراف بما حققته الإندفاعة الأولى من حيوية خاصة ونجاحات فريدة . فالصناعة مجال لا تتوقف فيه حركة المد والجزر ، وهي أيضاً مجال يُعاد فيه خلط القوى والإمكانات كما يُعاد توزيعها على نحو جديد . والحظ في هذه العملية يحالف أو يكون من نصيب آخر الواصلين . يؤكد هذا الأمر انتصار مدن جديدة في كل من إيطاليا وإسبانيا في القرن السادس عشر ، ويؤكده أيضاً إنتصار الشمال الأوروبي في القرن السابع عشر ، فقِدم صناعة النسيج في البلاد الواطئة لا ينفي حداثتها وشبابها في تلك البلاد بالمقارنة مع قدمها السحيق في الجنوب المتوسطي .

على صعيد النشاط التجاري في المتوسط يصعب علينا حساب الربح أو فائض القيمة الناجم عن التبادل الذي لم يكن يمر غير جزءٍ منه في اقتصاد السوق المحاط من الجهات كلها بأشكال ابتدائية من التبادل . فالتجارة المتوسطية لم تكن تقتصر على القمح والتوابل ، بل تتعداهما الى الفواكه التي كان الفلاح يسوّقها بنفسه . ومع أن الأرقام التي سوف نوردها أدناه تعوزها الدقة بسبب تفلت النشاط التجاري من المراقبة والحساب ، فإن حجم الصفقات التجارية في المتوسط كان يقارب 300 مليون ذهباً في السنة . أما أرباح التجار فكانت تتراوح بين 10 و30 بالمئة من الرقم السابق . وكان يستأثر بمعظم هذه الأرباح أصحاب التجارة البعيدة التي كانت تشغل موضع القلب من الرأسمالية

التجارية . فهذه الأخيرة كانت تجني أرباحها من الفارق الكبير بين أسعار السلع في البلد المصدر وأسعار هذه السلع في البلد المستورد . وقد كان هذا الفارق هائلاً في مطلع القرن السادس عشر الذي جنى فيه تجار لشبونة أرباحاً طائلة جعلتهم المستفيد الأكبر من التجارة البعيدة . وما كان يجذب إهتمام الرأسمالية الرشيقة ليس حجم التبادل ، بل معدل الربح النهائي والتراكم السريع . لكن سرعة التراكم التي بلغت ذروتها مع إزدهار التجارة البعيدة في النصف الأول من القرن السادس عشر ، ما لبثت أن تراجعت في النصف الثاني من القرن عينه ، مع اندفاع كبار رجال الأعمال في اتجاه شكلٍ من أشكال الرأسمالية المالية : قروض الحكومات ، التبادل النقدي . وفي الحقيقة لم يخفف هذا التراجع من التبادل التجاري ، بل خفَّض أرباح كبار التجار .

لن تثنينا احتجاجات بعض المؤرخين عن الشهادة على تفوق تجارة التوابل والبهار والعقاقير على التجارات المتوسطية الأخرى : النبيذ ، القمح ، الملح ، والقطن . . . هذا إذا كان هدفنا دراسة أحوال الرأسمالية الكبيرة ذات المستوى الرفيع ودراسة حجم الأرباح ، الأمر الذي يحتم علينا الاهتمام بمعدلات الربح وبتراكم الرأسمال ، وليس بالجغرافيا الإقتصادية . صحيح أن حجم تبادل القمح كان أضخم من حجم تبادل البهار ، لكن هذا التفاوت في حجم التبادل لا يغير من حقيقة أن القمح . ليس «سلعة مَلَكِيَّة» كالبهار ، وأن الرأسمالية الكبيرة نادراً ما كانت تشارك في تجارة الحبوب والملح التي كان حجم عائداتها يفوق بخمسة أضعاف حجم عائدات تجارة البهار الآسيوية . ولكن هذه الأخيرة كانت تسيطر عليها قلة من الشركات التجارية المراكمة للرأسمال ، فيما كانت تجارة الملح والحبوب في أيدي آلافٍ مؤلفة من التجار . هذا ما يحملنا على الإهتمام بالقطاعات التجارية التي عرفت التمركز والتراكم الرأسمالي . فلولا تجارة البهار والتوابل لما تسنى للتجار البرتغاليين التفوق على الممولين والصيرفيين في جنوى . والقرن السادس عشر عرف تمركزاً رأسمالياً سريعاً للمنشآت العائلية الكبرى ، لأن الشؤون الإقتصادية في المتوسط هي شؤون عائلية كان لكلٍ من الزواج والطلاق والقرابة والصداقة دور فعال في نسيج علاقاتها من أمستردام إلى لشبونة . وربما في هذه الواقعة يكمن اختلاف الشمال الأوروبي عن المتوسط الذي كان على عكس الشمال لا يشعر بالحاجة إلى إقامة الشركات الكبرى التي ستمتلك زمام المبادرة في المستقبل .

كي تكتمل الصورة التي رسمنا خطوطها العامة علينا أن نضيف اليها بعض العناصر الهامة : النقل البحري والبري ، وصعود الدول . فمن صلب حياة المتوسط الإقتصادية سطع ، في القرن السادس عشر ، نجم الدول بوصفها مراكز لتجميع العائدات وتوزيعها من طريق الضرائب والريوع والمصادرات والتحكم بجزء من

« الإنتاج القومي » . والدول في ذلك القرن كانت من أكبر المبادرين في الحياة الإقتصادية : هي التي كانت تخوض الحروب ذات التكاليف الباهظة ، وهي التي كانت تهتم بالمنشآت الإقتصادية الكبرى كالمواصلات مع الهند والبرتغال . أما البنوك العامة فنشأت مع ظهور الدولة ـ المدنية في نهاية القرن السادس عشر ، قبل أن تباشر في إنشائها لاحقاً ، الدول الإقليمية ، من دون أن يمنعها تأخرها ذاك من تمويل المشاريع « العامة » الضخمة . هكذا كانت الحروب ومشاريع الإعمار المتعددة كناية عن منشطات إقتصادية تسرّع من دورة انتقال الأموال التي كانت تدخل خزينة الدول وتخرج منها . كانت الموازنة الإجمالية العامة لدول المتوسط تبلغ حوالي 48 مليوناً ذهباً في السنة . وهذا يعني أن كل مواطن في المتوسط كان يدفع دوكات واحدة للأمير سنوياً . أما توزيع هذه الموازنة السنوية العامة فكان يحصل على النحو التالي : 9 ملايين ذهباً لدولة كاستيليا ، 5 ملايين لدولة فرنسا ، 3,9 ملايين للبندقية ومملكتها ، 6 ملايين للأمبراطورية العثمانية . ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الدول كانت تستخدم النقد في موازناتها ، لأنها بالنقد وحده كانت تقتطع حصتها من دورة الحياة الإقتصادية . وبهذا المعنى كانت هذه الدول تمتلك شيئاً من رشاقة الإقتصاد الحديث . لكن هذه الرشاقة لم تكن تخفي تظافر عنصري القوة والضعف في ولادتها . هي قوية لأنها تمكنت من القيام بوظائفها : الحرب ، المشاريع ، اقتطاع الضرائب . . ، معتمدة على رجال الأعمال والبرجوازيين الطامحين في الترقي الاجتماعي . وهي أيضاً ضعيفة لأنها كانت ملزمة بالاعتماد على هؤلاء أنفسهم .

على صعيد النقل البحري يمكن تقدير الحمولة الإجمالية للسفن المتوسطية في الثلث الأخير من القرن السادس عشر بـ 300 ـ 350 ألف طن ، فيما كانت حمولة السفن الأطلسية الإجمالية تبلغ حوالي 600 ـ 700 ألف طن . هذا الفرق ليس هائلاً إذا عرفنا أن عدد الرحلات التي كانت تقوم بها سفن المتوسط يفوق بكثير عدد رحلات سفن الأطلسي التي كان عليها أن تجتاز مسافاتٍ طويلة . أما حمولة سفن أوروبا الشمالية التي وفدت إلى المتوسط في سبعينات القرن السادس عشر والمقدرة حمولتها الإجمالية بـ 10 ـ 20 ألف طن ، فلا تنفي وفادتها كون المتوسط حيزاً بحرياً يعتمد في الأصل على سفنه الخاصة . ذلك لأن حضور سفن الشمال في البحر المتوسط كان أمراً ثانوياً ، فضلاً عن أن ذلك الحضور كان في خدمة إقتصاد المدن المتوسطية نفسها . وإذا أردنا تقدير القيمة النقدية لحمولات سفن المتوسط فنجدها ستة ملايين دوكات ، تقدر عائداتها السنوية بمليونين دوكات . هذا وكان يبلغ عدد الملاحين حوالي 30 ألف رجل معظمهم من الفقراء والمعدمين .

كان النقل البحري يبلغ ثلاثة أضعاف النقل البري الذي كان قليل المردودية على العاملين فيه ، الأمر الذي كان يحمل هؤلاء العاملين على العمل في ميادين أخرى ، هي في الغالب إما الفلاحة التي كان يعيش العاملون فيها على حافة البؤس ، وإما الأعمال الحرفية أو أعمال التجارة الصغيرة ، وإما تربية المواشي . لذا ظل النقل البري على صلة حميمة بالحياة الفلاحية ولم ينفصل عنها وعن حياة المدن الصغيرة التي منها كانت تتحصل بعض موارد النقل البري وأرباحه . وقد أتاح العمل في هذا النقل لبعض العاملين فيه ـ وجلهم من المنضوين في دورة حياة اقتصادية بدائية ـ أن يتعرفوا على الإقتصاد النقدي الذي آل أحياناً إلى تصدرهم مواقع الوسطاء في قراهم . يبقى أن نشير إلى أن أسعار النقل كانت متدنية في القرن السادس عشر ، ولم تجارِ إرتفاع أسعار السلع ، الأمر الذي شجع حركة التبادل .

في نهاية المطاف نلاحظ أن التداول النقدي لم يكن سارياً إلا بين قلة من البشر . فكمية النقد التي كانت قيد التداول في أوروبا وفي المتوسط مجتمعين ، قبل اكتشاف أميركا ، تقدر بخمسة آلاف طن من الذهب و60 ألف طن من الفضة . أما الكمية التي وصلت من أميركا إلى المتوسط بين العام 1500 والعام 1650 فتقدر بـ 16 ألف طن من الذهب و180 ألف طن من الفضة . لكن وجهة التداول النقدي العامة في المتوسط كانت على عكس جريان الأنهار . لقد كان النقد يتدفق دائماً في اتجاه الفئات العليا الممسكة بزمام الحياة الإقتصادية ، الأمر الذي كان ينجم عنه تفاوت متعاظم بين مدن يتراكم فيها النقد وأرياف فقيرة ، بين مناطق حديثة وأخرى قديمة ، بين بلاد متطورة وأخرى متخلفة ، وبين عدد قليل من الأغنياء وجموع هائلة من الفقراء والبؤساء . وإذا كانت الثورات الإجتماعية كلها قد فشلت ولم تستكمل بوضوح فذلك بسبب تعاظم البؤس واشتداده . فعدد البؤساء المعدمين والمشردين الذين كانوا عرضة للجوع على نحو دائم ، كان يتراوح بين 12 و14 مليون نسمة ، أي ما يعادل خمس سكان المتوسط . كان هذا البؤس إحدى بُنى الحياة الأوروبية والمتوسطية منذ القرن الثاني عشر .

الفصل الثاني

الاقتصادات : المعادن الثمينة ، العملات ، والأسعار

على العكس من الاقتصاديين المعاصرين لم يعد في وسع المؤرخ إضفاء أهمية قصوى على دور المعادن الثمينة في التحول الذي طرأ على الحياة الاقتصادية المتوسطية في القرن السادس عشر . فالعملات ليست ذلك المحرك أو المنشط الشامل للحياة الاقتصادية ، على نحو ما يظن الكثيرون ، بل هي حجاب يخفي الواقع ، على ما يرى الإقتصاديون . أما دور المعادن الثمينة فمرتبط ، أصلاً ، بالمخزون المتوافر منها في فترات سابقة ارتباطه بسرعة انتشارها وسرعة تداولها وبالعلاقات بين البلدان . والذهب والفضة لا تنضاف قيمة أحدهما إلى قيمة الآخر لأنهما يقيمان على حالٍ من الصدام والصراع دائمين .

1 ـ المتوسط والذهب السوداني

للوهلة الأولى لا شيء يبدو أكثر بساطة من انتقال المعادن الثمينة في المتوسط من أية جهة كان مصدرها : من مناجم الفضة في كل من بلاد الصرب والألب وسردينيا ، من مناجم الذهب السودانية أو الأثيوبية مروراً بكل من مصر وشمال افريقيا ، ومن مناجم العالم الجديد ابتداء من السنوات الأولى من القرن السادس عشر . . . ففي أية جهة كانت مصادر هذه المعادن ، فإنها كانت تتجه دائماً نحو الشرق . فالميزان التجاري المتوسطي كان دائم الخسارة في كلٍ من سوريا ومصر ، (بوابتا التجارة الشرقية) . وربما لا نجانب الصواب إذا قلنا مع القائلين إن نزيف المعادن الثمينة هو الذي أدى إلى زعزعة الأمبراطورية الرومانية . لكن المتوسط كان منذ القديم وعلى نحو دائم ، يحاول الحدَّ من ذلك النزيف . فالاسكندرية كانت أيام الامبراطورية الرومانية تصدّر الزجاجيات إلى الشرق الأقصى لتسد عجزها الناجم عن كثرة مشترياتها منه . وفي العصر

الوسيط كانت أوروبا تصدّر العبيد بدل تصديرها الذهب والفضة . وبيزنطة نجحت في الحد من تصدير نقدها في اتجاه الشرق . . . هذه المحاولات كلها وغيرها تشهد على الضرورة المنهكة التي كانت تحمل المتوسط على تصدير عملاته إلى الشرق الأقصى الذي كان يصدر كثرة من السلع إلى المتوسط ولا يستورد منه إلا القليل . لذا كان المتوسط كناية عن آلة لتجميع المعادن الثمينة ومجبرا على التخلي عنها لصالح كلٍ من الصين والهند . وإذا كانت الاكتشافات الكبرى قد قلبت الأسعار والطرق التجارية ، فإنها لم تغير من هذا الواقع شيئاً يذكر ، مثلما لم يغير منه أيضاً إرتفاع القيمة الشرائية للعملات المتوسطية في الشرق عنها في البلاد المسيحية . فلكي تحافظ على أرصدتها النقدية جعلت البندقية تحد من خروج المعادن الثمينة منها بأن راحت تصدر الشراشف والمرايا والنحاس . لكن هذا لم يمنع صيارفتها من الإتجار سراً بالعملات . وحين بدأ الفرنسيون والإنكليز والهولنديون بوضع أيديهم على حيزٍ هامٍ من تجارة المشرق ، بسبب دفعهم أثمان مشترياتهم كلها بالعملة ، ضيّقوا الخناق على بيوتات البندقية التجارية . لكن هذا التضييق لم يعمر طويلاً ، لأن الإنكليز والهولنديين ما لبثوا أن جعلوا يفرضون دفع أثمان مشترياتهم بالنحاس وبالرصاص ، حتى أن إنكلترا أقلعت عن دفع أثمان أكثر من ربع مشترياتها بالنقد .

كان النقد يعبر إسبانيا على نحو كثيف ، لأنها كانت غنية بالذهب والفضة . وعلى الرغم من محاولات إسبانيا الحد من تسرب المعادن الثمينة منها ، لم تحل الإجراءات كافة دون خروج كميات من معادنها تلك . وقد كان خروج هذه المعادن منها في أصل حيوية التجارة المتوسطية كلها ، الأمر الذي شكل حدثاً جديداً وثورياً في المتوسط كله .

قبل القرن السادس عشر وقبل تدفق الذهب والفضة الأميركيين كان المتوسط يجمع من هنا ومن هناك ومن بلاد بعيدة معادنه الثمينة الضرورية لتجارته . لكن معظم فصول هذه العملية(عملية جمع المعادن) ما يزال مجهولاً . وربما كان وصول بودرة الذهب (التبر) من السودان الى شمال إفريقيا قبل القرن العاشر ، آخر هذه الفصول . وقد نجم عن ذلك أمران متلازمان : نشوء دول متماسكة ولامعة في النيجر الإفريقي ، ونشوء مدن جديدة في شمال إفريقيا كالجزائر ووهران . لذا كان شمال إفريقيا قبلة أنظار أسياد اسبانيا الإسلامية بغية حصولهم منه على المادة الخام التي كانوا يستخدمونها في صك عملاتهم الذهبية . لكن الذهب السوداني لم يكن سبب الوفرة في كتلة الاسلام الغربي (شمال إفريقيا واسبانيا) فحسب ، بل كان في أصل أمرين متناقضين ومتلازمين في تلك الكتلة : اضطرارها للعيش منغلقة على نفسها منقطعة عن طرق البحر منذ القرن الثاني عشر لتدارك ضغط التجار الأوروبيين ، ودخول الذهب المتدفق من

السودان إلى شمال افريقيا شبكة تداول واسعة تشمل المتوسط برمته ابتداء من القرن الرابع عشر . وتحول شمال افريقيا إلى مصدّر أساسي للذهب ، وإلى محرك لتجارة المتوسط كلها تالياً ، آلا إلى حمل التجار الأوروبيين على اجتياحه والإقامة في كل من طنجة وفاس وقسطنطينة ووهران وغيرها ، ذلك بعد أن شهدت القرون السابقة محاولات أوروبية عسكرية لاجتياحه ، خاصة وأن التقدم التركي كان قد حدَّ من حركة الأوروبيين في المشرق . أما ما ساعد على اختراق التجار الأوروبيين لشمال إفريقيا فكان الإنقسام وقلة التماسك السياسي في تلك البلاد التي تحولت جزئياً إلى منطقة ترانزيت يعبرها الذهب والعبيد في اتجاه الشمال ، والسلع الأوروبية في اتجاه الجنوب . لكن من الخطأ اعتبار شمال افريقيا كناية عن مجموعة بلدان زراعية . ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر قامت في تلك البلاد مدن كبيرة عدة ، نشأ بعضها على نحوٍ غير متوازن مع محيطه . فوهران وكوتا كانتا جمهوريتين مدينيتين حقيقيتين . وشمال افريقيا لا يعيش ميمماً وجهه في اتجاه المتوسط فحسب ، بل في اتجاه الجنوب أيضاً ، أي إلى بلاد السودان . ذلك لأنه كان مركزاً لتبادل الذهب والعبيد من جهة ، ولتبادل الملح والنسيج والنحاس من جهة أخرى . أما المستفيدان الأكبران من هذا التبادل المزدوج فكانا الإسلام وتجار أوروبا .

كان الحدث الأبرز في عمليات التبادل هذه هو تقدم البرتغاليين على طول شواطىء الأطلسي الإفريقية ، الأمر الذي أدى إلى تصدير الذهب والعبيد والعاج من خليج غينيا إلى أوروبا مباشرة من دون المرور في شمال إفريقيا . ومنذ العام 1520 بدأت ترتسم معالم تراجع عام 1550 الذي تحول إلى أزمة عامة لن تنتهي إلا مع تقدم الهولنديين في نهاية القرن السادس عشر . كانت أسباب هذه الأزمة متعددة : المزاحمة بين كل من فرنسا وانكلترا واسبانيا ، ارتفاع كلفة استخراج الذهب الإفريقي واستثماره ومزاحمة الذهب الأميركي له . ففيما كانت أميركا تصدر بين العام 1551 والعام 1560 حوالي أربعة أطنان من الذهب سنوياً ، كانت إفريقيا لا تصدر ما يزيد عن 700 كلغ سنوياً . لكن تصدير الذهب الإفريقي مروراً في الأطلسي بنتيجة التقدم البرتغالي لم يحل دون وصول الذهب الصحراوي إلى شمال افريقيا ومنه إلى المتوسط . أما الأمر الذي يبقى غامضاً فهو أسباب أزمة المواصلات بين الغرب المتوسطي وشمال إفريقيا في العقدين الثالث والرابع من القرن السادس عشر . ومن المرجح أن تكون أسباب هذه الأزمة كامنة في حدثين إثنين : هجوم الاسبان على شمال إفريقيا ، وموجة الفتوحات الإسلامية الآتية من تركيا .

كانت الوفرة وأزمات الذهب مرتبطتين على نحو وثيق . فالذهب الغيني في لحظة

وصوله الى لشبونة كان يندرج في الشبكات التجارية الكبرى ويلتقي في أنفير بالمعدن الأبيض الآتي من المناجم الألمانية ، الأمر الذي كان يساهم في توازن الموازين النقدية . والذهب الأميركي بوصوله إلى سيفيل كان يندرج في دورة مماثلة . لكن هذا الذهب لن يستمر استثماره على الوتيرة نفسها ، لأنه بدأ ينهار في منتصف القرن السادس عشر ، وربما قبل ذلك بعشرين سنة . هكذا بعد أن لعب التضخم النسبي للذهب دوراً بارزاً في تنشيط الإقتصاد ، أدت وفرته ـ في سيرورة غريبة ـ إلى انتعاش مناجم الفضة والنحاس وارتفاع قيمة كل منهما بالقياس إلى قيمة المعدن الأصفر الذي أدت شحته بعيد الثلاثينات والأربعينات من القرن السادس عشر إلى بلبلة اقتصادية عامة تبعها تضخم فضي استمر حتى وصول الذهب البرازيلي الى المتوسط في العام 1680 .

2 ـ فضة أميركا

في مطلع القرن السادس عشر بدأت الدفعات الأولى من الذهب والفضة الأميركيين تصل إلى إسبانيا . وفي مستهل النصف الثاني من القرن نفسه جعلت تتناقص كميات الذهب الآتية الى هذا البلد ، فيما جعل يزداد تدفق الفضة اليه بكميات كبيرة ، وهو البلد الذي كان يعيش تحت نظام حماية صارمة يحول دون خروج أي شيء منه ودخوله اليه إلا بموافقة سلطاته الحاكمة . لكن ذلك النظام لم يستطع منع خروج الفضة من اسبانيا في اتجاه اوروبا ، خاصة وأن خروجها كان يرفع قيمتها . على هذا النحو كانت المملكة الاسبانية بمثابة أميركا للممالك الأوروبية الأخرى . وفضلاً عن عمليات تهريب العملات بكميات كبيرة منها ، فإن حكومة إسبانيا كانت مرغمة على دفع ثمن القمح الذي تحتاج إليه بالعملة . أضف إلى هذا وذاك حاجة امبراطورية كإسبانيا الى مصاريف خارجية ضخمة ، منها حاجتها إلى استيراد الأسلحة من البلاد الواطئة التي كانت تحصل على القسم الأكبر من الثروة الأميركية ـ الاسبانية وتعيد توزيعه في اتجاه الشمال الأوروبي . هذا كله كان يؤدي الى دفع المعادن الثمينة إلى خارج حدود إسبانيا بدل استثمارها داخلياً . وتدفق الثروات إلى أنفير على نحو منظم في النصف الأول من القرن السادس عشر جعلها عاصمة للأطلسي على قدم المساواة مع كل من لشبونة وسيفيل . كانت شبه الجزيرة الأيبيرية إذن تلعب دور خزان المتوسط كله للمعادن الثمينة . أما إعادة توزيع هذه المعادن فكانت البلاد الواطئة محطته التي ينطلق منها في اتجاه كلٍ من إنكلترا وألمانيا . وهذه العملية سيكون لها دورها المحدد في نمو النشاطات الإقتصادية الأوروبية .

إختل هذا النظام المتوازن في مستهل أزمة 1566 التي إنجلت عن وصول ألبي إلى البلاد الواطئة في أعقاب الانتفاضات التي حصلت فيها وأفقدت طرق المواصلات بين

الشمال الأوروبي وإسبانيا سهولتها ومنعت تدفق المعادن الثمينة الى كلٍ من الشمال وانكلترا التي شرعت في العام 1568 في عمليات قرصنة ضد السفن الاسبانية هدفها السطو على الذهب والفضة للحصول على المعادن التي تصك منها عملتها . أرغم هذا الأمر إسبانيا التي أُقفلت في وجهها طريق المحيط للوصول الى البلاد الواطئة ، أرغمها على الاتجاه نحو فرنسا وطرقها البرية القصيرة وغير الآمنة . لذا كان نقل المعادن الثمينة يتطلب حماية عسكرية مشدّدة ، حتى حصول فيليب الثاني ملك اسبانيا على تعهد رسمي من ملك فرنسا يتيح مرور شحنات هذه المعادن بأمان في الأراضي الفرنسية . لكن شحنات المعادن الاسبانية لم يقتصر تدفقها إلى البلاد الواطئة ، لأنها كانت تنتقل من هذه الأخيرة الى كل من ميلانو وليون وباريس . هكذا ولم تكن فرنسا طريق « الأموال السياسية » الاسبانية فحسب ، بل كانت أيضاً طريق الاتجار بالعملات وتهريبها بكميات كبيرة . وفي العام 1577 دارت أحاديث عن اجتياح النقد الاسباني لفرنسا . لكن سنة 1578 شهدت انتقال طريق المعادن الاسبانية من فرنسا إلى المتوسط ، بعد إتفاق فيليب الثاني مع المولين الجنويين (نسبة إلى جنوى) ، الأمر الذي آل الى تصدر طريق برشلونة ـ جنوى البحرية طرق البحر كلها .

من المرجَّح أن تكون هذه الطريق قد برزت في السبعينات من القرن السادس عشر ، مع بدء الحرب الاسبانية ـ التركية في المتوسط . في البداية لم تكن كمية المعادن الثمينة الآتية إلى المتوسط ، أي إلى كل من جنوى وميلانو وفلورنسا وصقليا ، تعادل الكمية التي كانت تتدفق إلى أنفير وإلى الشمال الأوروبي . فالدلائل التي تشير إلى تواضع ما كان يصل الى المتوسط قبل السبعينات من القرن المذكور كثيرة . لكن هذا الوضع تبدل على نحو كلي لما بدأ يترسخ استخدام الطريق البحرية الجديدة التي راحت جنوى تشكلٍ قطبه بدلاً من أنفير . هكذا راح المعدن الثمين الاسباني الأبيض يتدفق إلى الشمال مروراً بجنوى من غير أن يحول ذلك دون إقتطاع ايطاليا حصتها منه . وستتضاعف حركة التدفق هذه بين العام 1584 والعام 1586 ، على نحوٍ جعل البواخر تنقل يومياً كميات هائلة من الفضة الاسبانية في اتجاه إيطاليا . هذا ما أدى إلى المقارنة بين كلٍ من سفن « الهند » الضخمة والسفن الأخرى التي لم تعد تنقل في أيام السلم الجنود والمسافرين ، بل جبال النقد الفضي الأميركي . كانت هذه الثروة التي تدفقت على المتوسط المقابل الدقيق لتراجع المواصلات الأطلسية ولانحطاط مدينة أنفير ومعظم النشاطات المرتبطة بها . لكن ذلك التدفق كان قد بدأ ، في الأصل ، قبل تهافت البلاد الواطئة وأنفير ونهب هذه الأخيرة في سنة 1576 ، أي في أواخر الستينات التي شهدت توقف عمل مركز صناعة الصوف في هوند ستوت ، ذي المكانة العالمية . ومثل توقف

العمل في ذلك المركز إنهيار صناعة النسيج بالتزامن مع وصول دوق البي الى البلاد الواطئة وتوقف النشاط مع الفلاندر وانهيار بورصة مدينة هوند ستوت ، قبل نهبها . وفي الوقت عينه حصل انحطاط مدينة ليون ليتحول ما تبقى فيها من وظائف مالية كبيرة الى باريس . يشهد على ذلك الفراغ الذي حلّ في ساحة صيرفة ليون وتنامي العشب في جنباتها . ومدينة دل كمبو أصابها ما أصاب ليون .

كان من نتائج استقطاب المتوسط للجزء الأكبر من هذا السيلان النقدي انتعاش برشلونة وازدهارها . وما تنظيمها الجديد لأسواق الصيرفة فيها إلا علامة على هذه المرحلة الجديدة التي مكنتها من استعادة دورها التجاري المعتاد كمركز استقطاب لكلٍ من نابولي وسردينيا وصقلية والاسكندرية . ليس هذا فحسب ، بل إن إيطاليا كلها لمْ تعرف وفرة نقدية شبيهة بالوفرة التي أصابتها في تلك الحقبة . وهي وفرة حملت دوق دوڤريا على القول إن مصلحة إنكلترا تتمثل في خضوعها لسلطة اسبانيا النقدية على غرار خضوع كل من نابولي وصقلية وميلانو لهذه السلطة . ألا يكفي هذا لدحض إدعاءات المتسرعين في الكلام عن انحطاط المتوسط منذ بداية القرن السادس عشر ؟

في العام 1598 بلغ تدفق المعادن الثمينة الى جنوى رقمه القياسي . وبحسب بعض التقديرات كان يصل إلى إسبانيا حوالي عشرة ملايين ذهباً سنوياً ، تصدّر منها ستة ملايين ، ثم لا يلبث أن يتسرب جزء كبير من الملايين الأربعة المتبقية من طريق التهريب . ويعتقد أحد المؤرخين أن الملايين الستة كانت تصل كلها إلى إيطاليا التي كانت تقوم بتوزيع قسم كبير منها في الاتجاهات كلها . إذن ابتداء من ثمانينات القرن السادس عشر غدت إيطاليا مركزاً لتوزيع العملة الاسبانية البيضاء ، بالقدر نفسه الذي كانت فيه إسبانيا مركزاً لتوزيع هذه العملة . وقد مكن هذا الدور إيطاليا من جني أرباح طائلة قبل أن تصدر جزءاً من فائض ذهبها إلى الشرق وقبل أن تموّن بالفضة والحوالات المالية البلاد الواطئة حيث كانت إسبانيا تدافع عن امبراطوريتها وعن الكاثوليكية ، مغذية بالقدر نفسه أتباعها والموالين لها من الجنود والثوار في البلاد الواطئة . وفي هذه المعادلة الجديدة شغلت إيطاليا مركز القلب من نظام بعث توازناتٍ وأقام روابط وتفاوتات في أرجاء المتوسط كله ، مما أحدث تغيراتٍ عدة في مجالات حياته اليومية ، لأن مدينة متوسطية واحدة ، من جنوى الى الاسكندرية ومن الجزائر إلى تركيا ، لم تبق خارج اجتياح العملة الاسبانية المتدفقة الى إيطاليا ومن هذه الأخيرة . ففي الجزائر في العام 1580 أصبح النقد الاسباني عملة رائجة . والنقد نفسه كان أبرز السلع المصدرة إلى تركيا . لكن من وجه آخر نجمت عن هذه الوفرة النقدية نتائج سيئة ، طاولت في الدرجة الأولى عمليات الديون التي كانت تعيش عادة من تقلب حجم كميات النقد

المتداولة في السوق . فالكمبيالات يزداد تداولها حين تكون كميات النقد غير منتشرة ، على نحو كثيف ، بل محصورة في دوائر محددة . في هذه الحال كان يتم عرض الكمبيالات في كل مكان بسبب الحاجة الماسة للنقد ، الأمر الذي كان يسهل لمن يمتلك نقداً شراء الكمبيالات بأسعار رخيصة . أما في الحالة الثانية ، حالة وفرة العملات وانتشارها بكميات كبيرة ، فكان سوق الكمبيالات ، التي يرتفع سعرها ، يصاب بالكساد . وهذا يعني أن رجال المال والمصارف لم يعد في إمكانهم السيطرة على اللعبة ، أي لم يعد في إمكانهم الحصول على الـ 5٪ من الأرباح في كل ستة أشهر . وحين ينعدم الربح تحصل الخسارة .

لكن لنسارع إلى القول إن وقوع إيطاليا على طريق النقد الامبراطوري الاسباني لم يكن وحده في أصل الخطوة التي عرفتها في تلك الحقبة . فنشاطها وديناميكيتها الأقتصاديين تدخلا لإرساء تلك الخطوة على ركائز متينة . الأمر الذي جعل الميزان التجاري يميل لصالحها في تجارتها مع كلٍ من ألمانيا والشرق الأوروبي والبلاد الواطئة وفرنسا وإسبانيا نفسها . وهذا ما سمح لها (لأيطاليا) بمراكمة النقد وسد عجزها التجاري مع المشرق ومع تركيا ، خاصة بعد تضخم الفضة وبروز الذهب كعملة للتبادل العالمي . إن إيطاليا ملتقى كثرة من الطرق : هي من وجهٍ أول ملتقى طرق محور الشمال ـ الجنوب الذي كانت السياسة الإسبانية تحرص على تنشيطه . ومن وجهٍ آخر هي ملتقى طرق محور الغرب ـ الشرق الذي كان يصل أوروبا بالمشرق وبالشرق الأقصى . كان المحور الأول طريق الذهب من أنفير الى جنوى التي كانت مركزه بالرغم من فقدانها شيئاً من أهميتها في ما بعد عام 1627 ، من دون أن يتوقف رجال المصارف فيها عن لعب دور الوسيط بين البلاد الواطئة وإسبانيا ولصالح هذه الأخيرة ، حتى العام 1650 . أما المحور الثاني فكان طريق الفضة الذي يصل الى الصين البعيدة . وليس غريباً أن تنتقل الفضة وتُتداول عبر هذا الطريق وتزداد قيمتها في المشرق لأن تركيا كانت منطقة استقبال الذهب الإفريقي . ثم إن ازدياد قيمة الفضة كان لا يلبث أن يتضاعف في بلاد فارس والهند وصولاً الى الفيليبين والصين . فالذهب الصيني كانت تتم مبادلته بأربعة أضعاف وزنه فضة ، فيما كانت هذه النسبة ترتفع في أوروبا إلى 14 ضعفاً . لقد كان هذا المحور ، محور إيطاليا ـ الصين ، يبدأ من أميركا ليدور حول العالم مروراً في المتوسط أو حول إفريقيا مروراً برأس الرجاء الصالح . إنه محور ـ بنية استمر يشكل علامة هامة في الإقتصاد العالمي لن تمّحي قبل القرن العشرين .

ما سبق وصفه يساعدنا على تحديد عصر رجال المصارف الجنويين ومزامنته لدقات ساعة الرأسمالية الكبيرة . يمتد هذا العصر بين العام 1557 والعام 1627 ، متبوعاً

بعصر الرأسمالية الخليطة في أمستردام . لكن ثروة جنوى لم تتراكم دفعة واحدة وعلى نحو مفاجىء في عام 1627 ، مع الإفلاس الخامس أو السادس للخزينة الكاستيلية ، حين دفع الدوق اليڤاريس الممولين البرتغاليين إلى المرتبة الأولى . ما نود قوله إن جنوى ظلت لأمد طويل أحد أقطاب التمويل العالمي ، لأن ثروتها تحصلت من عوامل وظروف متعددة : قدم ثروتها وانعطافتها السياسية عام 1528 وحضورها في الأندلس ومشاركتها أيضاً سقيل في تجارتها مع البلاد الواطئة . . . . هذه العوامل مجتمعة أدت إلى ازدهار جنوى وحيازتها لثروة هائلة .

كان الملك الاسباني فيليب الثاني سيد معدن أميركا الأبيض في السوق العالمية . لكنه لم يكن سيداً في سوق كل من النحاس والكمبيالات والذهب . فالكمبيالات كانت قيمتها مرتبطة بالميزان التجاري الذي كان يعاني من عجزٍ في إسبانيا . لذا كان على الملك الإسباني أن يتجه نحو بلاد متفوقة الميزان التجاري كالبلاد الواطئة وايطاليا ليشتري كمبيالاتها ذات التغطية الذهبية ، الأمر الذي أتاح لإيطاليا التحكم بشبكة تداول العملة الذهبية . لكن الرأسمالية الجنوية لم تؤكد تفوقها بالاعتماد على كمبيالاتها وذهبها فحسب ، بل باتكائها على مجمَل الثروة الإيطالية ، في وقت لم تكن فيه الفضة قد فرضت نفسها كنقد عالمي بعد . وبنقلها لأسواق التبادل النقدي من بيزانسون إلى بليزانس في 21 تشرين الثاني من العام 1579 ، أكملت جنوى سيطرتها على نظام التبادل النقدي واستطاعت أن تجذب اليها الثروة الذهبية الأوروبية ، معتمدة على موقعها في شبكات التبادل السابقة .

في أيلول من العام 1575 ألغى فيليب الثاني إتفاقاته مع الممولين الجنويين بسبب تنامي ثرواتهم وتضخمها في مدريد نفسها التي استاء فيها الرأي العام الاسباني وحاشية الملك من إثراء أولئك الجنويين على حساب اسبانيا . كان رد الجنويين الذين استبدلهم الملك بتجار وممولين محليين تعطيلهم وصول الذهب إلى الفلاندر التي كانت مسرحاً لاضطرابات اجتماعية منذ العام 1566 . وقد نجح التجار الجنويون في تأخير وصول الذهب والكمبيالات عبر الطريق الفرنسية البرية ، بسبب عدم خبرة التجار الإسبان . الأمر الذي حمل الجنود الاسبان على دخول أنفير ونهبها في تشرين الثاني من العام 1576 ، رداً منهم على عدم دفع رواتبهم . لذا إضطر فيليب الثاني الى العودة عن قراره السابق وجعل يعتمد مجدداً على الجنويين الذين قاموا ، بمساعدة رجال بنوك كلٍ من ميلانو وتوسكانا ، بتنظيم أسواق بليزانس في العام 1579 ، محتفظين لأنفسهم بالدور الأساسي في الإشراف والسيطرة على الثروة العالمية حتى العام 1621 . وبنتيجة هذا التنظيم الجديد اجتمع في بليزانس حوالي ستين من رجال أعمال جنوى وميلانو

وفلورنسا ، فشكلوا جمعية مغلقة أمسكت بزمام تحديد أسعار التبادل النقدي . ولأن ثروة جنوى كانت تعتمد على انتشار الكمبيالات وتعميمها راحت النشاطات الاقتصادية تنفصل الواحدة منها عن الأخرى لترى مهنة رجال البنوك النور كمهنة مستقلة ومنفصلة عن مجمل النشاطات التجارية المتعددة . هكذا إنفصل المال عن السلعة ونشأت لتجارة النقد سوق مستقلة عمادها الكمبيالات التي أتاح تداولها استخدام « الورق » في عمليات التبادل بدلاً من استخدام النقود المعدنية ، الأمر الذي حمل معاصري ذلك الحدث على اعتبار سيطرة الجنويين كناية عن سيطرة «بالورق» وليس بالذهب . حتى أن فيليب الثاني نفسه لم يفقه كيف كانت تُحل المسائل المالية « بلعبة كتابية » . وكان هذا الحدث ـ ولادة العملة الورقية وانتشارها ـ كناية عن قيام بنية جديدة للحياة الإقتصادية . لكن الجنويين ـ أكثر المستفيدين من ولادة ذلك الحدث ـ إستكانوا واطمأنوا إلى تفوقهم وأهملوا السلع الأطلسية التي كانوا يحتفظون بالدور الأبرز في تجارتها في العام 1566 . لا لم تكن هزيمة التمويل ولا تجارة « الورق » ولا إعادة الاعتبار للتاجر التقليدي ، لم تكن هذه الأمور مجتمعة في أصل تفكك سيطرة الجنويين كما يعتبر البعض ، بل إن نهاية تلك السيطرة نجمت عن صعود رأسمالية جديدة نهضت على أكتاف الثورة الجغرافية التي أتاحها اكتشاف أميركا واحتاج إكتمال فصولها لأكثر من نصف قرن . إنه انتصار الممولين البرتغاليين والشماليين وإحدى مراحل الرأسمالية الهولندية التي امتلكت منذ العام 1609 أكثر البنى حداثة ،وبدأت تحل محل الرأسمالية المتوسطية وتستعيد نماذجها كلها دفعة واحدة .

ختاماً لما تقدم نشير إلى أن كل سيطرة ، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية ، لا بد لها من أن تمر في مراحل ثلاث : البدايات ، الأوج ، الإنحطاط . والرأسمالية بانقطاعاتها وتحولاتها تسلك مسارا مماثلاً . فعصر جنوى شبيه بعصر أمستردام الذي أعقبه ودام كل عصر منهما جيلين أو ثلاثة على الأكثر . وهذه نزاعات الدولة الكستيلية مع رجال الأعمال تمر بحقبتين متتاليتين : يبدأ النزاع ليعقبه الإتفاق ، وهكذا دواليك . والدولة الكستيلية كانت تخسر على نحو دائم لأنها لم تكن تمتلك قوة رجال التجارة والأعمال الذين كانوا متقدمين عليها بقرن كامل . أما فيليب الثاني فيبدو شبيهاً بحكومة من حكومات جنوب أميركا في القرن التاسع عشر : حكومة غنية بمنتجاتها أو بمناجمها ، ولكنها عاجزة في مواجهة التمويل الدولي . وفي كل مرة يحصل إفلاس خزينة لا بد من أن يخسر لاعبون متورطون في اللعبة الكبرى ويبتعدون ، إما على نحو مفاجىء وإما شيئاً فشيئاً ، نحو الكواليس . فالاسبانيون كانوا دوماً يتحملون الخسائر ويلجأون إلى فرض الضرائب التي كان ينوء الجميع تحت وطأتها : النبلاء ،

رجال الدين ، المدن ، التجار ، ورجال الأعمال . وفي خضم هذه الصعوبات وحده وصول الذهب من أميركا كان يتضاعف وتستعمل وسائل النقل والمواصلات كلها في نقل المعادن الثمينة الى البلاد الواطئة . وبعد إفلاساتٍ متلاحقة إندثر التجار الاسبان ولم يبق غير التجار الجنوبيين ليزداد كره الاسبان لهم من دون توقف حتى انتهاء عصرهم في العام 1627 .

3 ـ ارتفاع الأسعار

كان ارتفاع الأسعار قد بدأ قبل مستهل القرن السادس عشر الذي شهدت سبعيناته ارتفاعاً جنونياً للأسعار شمل المتوسط كله وظل مستمراً حتى ما بعد القرن السابع عشر ، الأمر الذي أثار تفكير المعاصرين في مسألة النقد المعقدة وفي سلطتها الثورية الجديدة ، بحيث راح الجميع يتحدث عن الزمن اللاإنساني الذي أعقب زمن تدني الأسعار والوفرة . لكن العلامات البارزة التي حفت بتلقي هذا الحدث ـ وكان تأثيره أشد مأساوية في كلٍ من بلاد البلقان والأمبراطورية العثمانية ـ هي ذهول من شهده عن فهمه وتفسيره . وحتى يومنا هذا ما زال يجري الحديث عن تراكم المعادن الثمينة الأميركية كعامل حاسم حكم مجمل أوجه الحياة الاقتصادية المتوسطية في القرن السادس عشر ، ومن هذه الأوجه ارتفاع الأسعار وظهور التداول النقدي . لكن على الرغم من تأثير مسألة تراكم المعادن الثمينة في ما حدث ، فإن أثر تراكمها لم يكن في حجم الدور الحاسم الذي نُسب اليها . لماذا ؟

- مهما كان دور المعدن الأميركي في عملية التضخم النقدي يستحيل علينا عقل ذلك الدور في ذاته ولذاته مستقلاً عن الظروف الأوروبية . فعمليات التنقيب عن المعادن الثمينة في أميركا لم تكن إلا وليدة الانطلاقة الأوروبية ومتطلباتها .

- قبل اكتشاف أميركا لم تكن كمية النقد المتداولة في أوروبا والمتوسط كبيرة : 5 آلاف طن من الذهب و60 ألف طن من الفضة . وبين العام 1500 والعام 1650 يقدر ما وصل من أميركا بـ 16 ألف طن فضة و180 ألف طن ذهباً . أما الاقتصاد النقدي فقد كان شهد اندفاعة قوية في القرن الخامس عشر . وبدخول المعدن الأميركي تصاعدت وتيرة التداول النقدي بالوتيرة نفسها التي ارتفعت فيها الأسعار . أي أن ذلك المعدن اقتصر على مضاعفة التداول النقدي .

- بدأت موجة ارتفاع الأسعار في ألمانيا منذ العام 1470 ، وفي مناطق فرنسية قبل مستهل القرن الخامس عشر . أي أن هذه الموجة بدأت في قلب أوروبا قبل اكتشاف أميركا . أما انتقالها الى المتوسط فلم يحدث إلا في أعقاب العام 1520 .

ـ إن شكل الخط البياني الذي يرسمه تدفق الفضة إلى سيڤيل هو الشكل النموذجي للخطوط البيانية التي ترسمها حركة الانتاج الصناعي . وهي حركة ترتفع سريعاً إلى الأوج ثم تهبط بالسرعة نفسها الى الحضيض الذي وصلت اليه بين العام 1601 والعام 1610 . وفي مثل هذه اللحظة ينعطف قدر العالم كله وليس قدر المتوسط وحده .

أدى ارتفاع الأسعار إلى رفع الأجور الاسمية . وتحويل هذه الأخيرة إلى أجور فعلية ويظهر إنخفاضها الذي أدى إلى بؤس الفقراء . فأجور هؤلاء كانت تُدفع بالعملة النحاسية التي غالباً ما كانت تُسحب من سوق التداول لتُعاد اليه بعد تخفيض وزنها . وفي هذه العملية كانت الدولة هي الرابحة فيما كان الفقراء يزدادون بؤساً . والتضخم النقدي بدوره كان يؤثر على الفقراء وعلى الأغنياء : الصناعيون ، التجار ، والممولون . . . أي الذين كانوا مأخوذين بتيار النقد وتداوله . وحدهم المُلاك العقاريون لم يكن يطالهم أثر التضخم النقدي ، إلا في حدود نسبية ضئيلة . فالأرض سند أكيد يبقى خارج هوة التضخم . وهذا ما يفسر سيطرة الاقطاع على أوروبا في القرن السابع عشر ، كما ويفسر أيضاً إتجاه التجار وأثرياء المدن الى شراء الأرض وتملكها . لكن الأزمة التي لابست التضخم طاولت على نحو رئيسي ومباشر من قطاعات « الأعمال » عمل المصارف . فالعملة الحسابية المجردة المستخدمة في العمليات المصرفية كانت باستمرار تخسر من قيمتها ، الأمر الذي أدى إلى إفلاس كثرة من المصرفيين والتجار ، بسبب ارتباطهم بتقلب الظروف على المدى القصير . وتكاثر الإفلاس والمفلسين بين العام 1550 والعام 1570 دفع إلى إنشاء مصارف دولة بدأت تظهر على نحو تدريجي . أما تأثر الصناعيين بالأزمة فكان سببه الارتفاع الإسمي لأجور الحرفيين ، على الرغم من انخفاضها الفعلي . وتدني أرباح الصناعة أدى إلى ضعف هذه الأخيرة حتى في إيطاليا . هذا ما يفسر ربما عدم قدرة الصناعة الإيطالية على الصمود في وجه صناعة كلٍ من البلاد الواطئة وفرنسا في القرن السابع عشر .

كانت الدول أقل المتضررين من هذه الأزمة . فحياة الدول المالية قوامها دوائر ثلاث : المداخيل ، المصاريف ، والديون . هذه الأخيرة يخف عبؤها بفعل التضخم . أما المداخيل والمصاريف فترتفع بالوتيرة نفسها . ولزيادة المداخيل تفرض الدول ضرائب مرتفعة يتحمل الجميع أعباءها . لكن الواقع يُظهر أن إرتفاع الأسعار أضعَف من قوة الدول ودفعها للبحث الدائم عن مداخيل جديدة .

أخيراً يبقى السؤال الأساسي ماثلاً : هل هزت عاصفة الأسعار الدول المتوسطية أكثر مما هزت غيرها ؟ بالنسبة لإسبانيا يبدو الجواب بنعم محتملاً . هذا حين نتأمل في

المصاريف الحربية التي كانت تتحملها الامبراطورية الاسبانية الواسعة ، خاصة وأنها كانت مجبرة على خوض الصراع في كلٍ من الأطلسي والمتوسط .

4 ـ ثلاثة عصور معدنية

في النصف الثاني من القرن السادس عشر تراجع تدفق المعادن الأميركية الى المتوسط حتى بلغ حده الأقصى ، وكان هذا التراجع أحد علامات التاريخ العالمي . وقد جرت العادة على حصر أسباب التراجع بأحوال أميركا وحدها : إرتفاع كلفة استخراج المعادن الثمينة ، حاجة أميركا نفسها الى هذه المعادن ، التهريب ، والمضاربة . لكن هذه الأسباب غير صحيحة إلا على نحو جزئي ، لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار ارتباط النشاطات الأوروبية الحيوية بالعالم الجديد . هذا فضلاً عن أنها لا تبحث في الظروف الإقتصادية العامة ، ولا تشير إلى الأزمات التي عرفتها أوروبا منذ نهاية القرن السادس عشر ، خاصة الأزمات التي عصفت بإسبانيا .

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر انتهى الدور الكبير للفضة الأميركية ، لتبدأ العملات المزورة . بالانتشار في دوائر ضيقة ما لبثت أن انفتحت وتوسعت في القرن السابع عشر لتصل شبكاتها الى المشرق الذي لم يكن يعرفها من قبل . البلاد الواطئة عرفت هذه العملة عام 1574 ، أي قبل تدني أسعار نقدها عام 1585 . وكان قيامها بصك العملة المزورة يستهدف كسر احتكار اسبانيا للمعادن الثمينة . أما سبيل البلاد الواطئة إلى كسر الاحتكار الاسباني فكان تهريب العملات المزورة إلى إسبانيا لمبادلتها بعملات حقيقية . والهولنديون هم من تولوا بمساعدة الفرنسيين والانكليز نقل كميات كبيرة من النقد المزور إلى إسبانيا . هذه العملية من التبادل كانت تنتج أرباحاً للقيمين عليها تبلغ نسبتها حوالي 18٪ . وابتداء من العام 1613 راجت العملة المزورة المصنوعة من النحاس والمصكوكة في كل من الدانمارك وانكلترا وإيطاليا لترتفع نسبة الأرباح الناجمة عن شيوع تداولها الى ما يتجاوز الـ 500٪ . وفي نهاية القرن السادس عشر راحت هذه العملات المزورة تنتقل إلى المتوسط لتصل إلى المشرق في العقد الأول من القرن السابع عشر . وفي أثناء الأزمة الخانقة التي أصابت الدولة العثمانية انخفضت قيمة النقد المصكوك في القاهرة حوالي 30٪ .

أخيراً يمكننا الحديث عن ثلاث عصور للنقد المعدني : عصر الذهب السوداني ، عصر الذهب والفضة الأميركيين ، وعصر النحاس والعملات المعدنية المزورة منها وغير المزورة لكن هذه العصور ليست مستقلة ولا متتابعة ، بل هي متداخلة .

ـ في العصر الأول كانت المدفوعات كلها تتم بالذهب ، حتى أن ملك فرنسا كان يدفع

رواتب جنوده بالذهب . هذا والمضاربات كلها كانت تتم بالقطع الذهبية التي يسهل نقلها .

- عصر رواج الفضة كان طويلاً (1550 ـ 1650 ، وربما استمر حتى 1680) . وفي هذه الحقبة أصبحت حركة المعدن الأبيض ناشطة ومرئية ، على الرغم من الصعوبات التي كانت تحف بنقله الذي كان يحتاج إلى السفن والقوافل والدواب والحماية . ذلك فيما كانت حركة نقل الذهب غير مرئية خارج الدوائر السياسية والإقتصادية العليا .
- عصر رواج النحاس بدأ في أوروبا بعد تنامي استخراجه من مناجم كلٍ من ألمانيا وهنغاريا واليابان والسويد .

ملاحظة أخيرة : في نهاية القرن السادس عشر ظهر الذهب مجدداً ، ومصدره هذه المرة البرازيل ، ووجهته انكلترا ولشبونة وأوروبا على وجه العموم . بالطبع كان للمتوسط حصته من ذهب البرازيل ، ولكنه لن يكون مركز هذا التضخم الذهبي الجديد ، على نحو ما كان طويلاً مركز التضخم الفضي .

الفصل الثالث

الاقتصادات :
التجارة والنقل

لا يرمي هذا الفصل إلى وصف التجارة المتوسطية بتشابكاتها وتعقيداتها ، بل هو يستهدف الوصول إلى ترسيمة عامة لهذه الأنشطة . لذا نختار مسائل ثلاث تطال أبعاد الحياة الاقتصادية المتوسطية وعلى صلة بكلٍ من المحيطين الأطلسي والهندي . وهذه المسائل هي التالية : أزمة البهار ، أزمة القمح ، واجتياح السفن الشمالية للمتوسط .

1 ـ تجارة البهار

لا شك في أن النجاح البرتغالي في الدوران حول أفريقيا ، بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، قد أثر على تجارة البهار المتوسطية ، خاصة في البندقية التي أصيبت بأزمة خانقة . فالمستورد البرتغالي سيطر بسرعة على قسم من السوق الأوروبية في الجهة الأطلسية من القارة ، ثم ما لبث أن شرع في مزاحمة الايطاليين في كلٍ من ألمانيا وغرب فرنسا وإسبانيا ، قبل أن يصل إلى جنوى في العام 1500 . حملت هذه المزاحمة البندقية على إقفال حدودها في وجه السلع القادمة اليها من جنوى ، في مقابل عزوفها عن تقاضي الرسوم الجمركية والضرائبية عن السلع الوافدة اليها من المشرق . لكن على الرغم من هذا كله فإن الشركات التجارية المتوسطية القوية والمنغرسة شبكاتها عميقاً في المحيط الهندي ، استطاعت أن تواجه على نحوٍ سريع التقدم التجاري البرتغالي وتوقفه وتتوازن وإياه ابتداء من العام 1550 . هنالك مروحة من الأسباب التي مكنت التجارة المتوسطية من المواجهة . فبهار الطرق التجارية البرتغالية كانت تتدنى جودته بسبب طول المدة التي كان يستغرقها نقله بحراً وتفقده نكهته ، الأمر الذي أبقى لبهار التجار العرب ، ذي السعر المرتفع ، أسواقه . أضف إلى ذلك أن البرتغاليين كانوا لا يشترون البهار من بلد المنشأ إلا بأسعار بخسة لتعويض نفقات سفر ونقل طويلين ، فضلاً عن

تعويض خسائرهم التي تنجم عن غرق بعض سفنهم . وقائمة أسباب قدرة المتوسط على مواجهة التجار البرتغاليين لا تتوقف عند هذا الحد . فالذهب المصري والفضة الغربية ما كانتا تصلان إلى المحيط الهندي إلا بفضل تجارة التوابل المتوسطية . هذا والهند والشرق الأدنى كانا بحاجةٍ إلى استيراد الزعفران المتوسطي والأفيون المصري . ويمكن تتويج جملة هذه الأسباب بالتلاشي السريع للسيطرة العسكرية البرتغالية على مصادر البهار ، وذلك بسبب عدم قدرة البرتغال على تحمل أعباء امبراطورية واسعة ، وعلى مواجهة الأتراك في الوقت الذي كانت تحتاج فيه إلى المحافظة على علاقات تجارية حسنة مع الفرس . وبدورهم الأتراك باشروا في العام 1529 بحفر قناة السويس من دون أن يستمروا في حفرها لانشغالهم العسكري في المتوسط . والصراع التركي البرتغالي في الخليج الفارسي وفي الهند ما لبث أن خمد إواره ، الأمر الذي أنعش طرق تجارة التوابل المتوسطية ومكنها من الحد من انتشار البهار البرتغالي في المتوسط . هكذا عاد البهار المتوسطي الى الظهور كسابق عهده في كلٍ من ليون ومرسيليا وتولوز وغيرها من الأسواق الأوروبية بعد منتصف القرن السادس عشر . وهكذا عاد إلى كل من القاهرة والاسكندرية من جهة ، وإلى كلٍ من حلب وطرابلس من جهة أخرى ، الإزدهار والنشاط التجاري . لكن هذا الإزدهار كان يخضع لتقلبات الصراع والتنافس بين الطريقين الرئيسيتين لتجارة البهار : الأول الذي يصل إلى حلب ومنها إلى ميناء طرابلس ، والثاني الذي يصل الى القاهرة ومنها إلى ميناء الإسكندرية . هذا فضلاً عن أن ازدهار هذه المدن ترافق أيضاً مع توغل تجار البندقية في الداخلين المصري والسوري ، في محاولةٍ منهم لإلغاء دور وسطاء تجارة البهار المحليين . هذه الأمور كلها ربما كانت في أصل ردة الفعل البرتغالية التي أشعلت الحرب التركية البرتغالية من جديد . لكن السلطان العثماني لم يكن يولي الشؤون البعيدة المدى الأهمية التي تتطلبها ، فهو لم يستجب للاستغاثات الدورية للوفود الهندية التي كانت تصل إلى القسطنطينية وتدعوه لمواجهة البرتغاليين . وربما حالت دون استجابته لتلك الاستغاثات الاضطرابات التي راحت تركيا تواجهها في كل من الجزيرة العربية واليمن . هكذا أخذ ينتعش البهار البرتغالي في أعقاب توقيع إتفاق السلام بين البرتغال وتركيا في نهاية العام 1563 . لكن هذا الانتعاش لم يوقف تجاة المشرق التي ظلت مزدهرة حتى بداية القرن السابع عشر ، لتشتهر حلب ، الى جانب شهرتها في تجارة التوابل ، بصناعة الحرير وتصديره . لذا اكتسب حرير حلب أهمية متعاظمة في الاقتصاد الاوروبي الى جانب حرير كل من طرابلس واسكندرونة .

حتى العام 1600 لم يكن انتصار الطريق المحيطي (البرتغالي) قد شهد النور بعد . فالصراع بين الطريقين (المحيطي والمتوسطي) دام ما يزيد عن قرن من الزمن .

والمنعطف الحقيقي لم يشهد النور إلا في القرن السابع عشر ، أي لمّا بدأ عصر أوروبي جديد هبت رياحه مع أشرعة السفن الحربية الإنكليـزية والفـرنسية التي وصلت الى المحيط الهندي : إنها كارثة المشرق .

يعود فشل البرتغاليين (أعلاه) إلى كثرة من الأسباب : استبدادهم في أنسلندا وجزر العناقيد (الشرق الأقصى) طريق التوابل الفاخرة المتجهـة نحو آشم وجـزيرة سـومرتـا ملتقى السفن الإسلاميـة المتجهة نحـو البحـر الأحمـر والخليـج الفـارسي ، استبدادهم فضلاً عن سذاجتهم في مقابل حكمة الأتراك ، ثم حروبهم في بلاد فارس والمحيط الأطلسي والتقدم الكبير للإسلام في أنسلنـدا . لكن هذه الأسبـاب لا يمكن فهمها خارج سياق الظروف الإجمالية للوضع العالمي كله : انتقال الفضة من المناجم الأميركية ووصولها إلى جزيرة سومرتا في المحيط الهندي . أي انتقال الفضة والذهب معاً من الغرب الى الشرق ومعهما السلع المختلفة ، وانتقال سلع أخرى ومنتجات ثمينة في الاتجاه المعاكس . فازدهار حركة التبادل هذه في الإتجاهين مروراً بالمتـوسط من العام 1550 وحتى العام 1565 يعود إلى وصول الفضة وانتشارها في المتوسط . وقد تحكمت هذه الحركـة المزدوجـة بمجمل الأمـور ، لأن الفضة تتجـه إلى حيث يتوافـر البهار ، والعكس صحيح أيضاً . لذا لن نستطيع تحديد التاريخ الدقيق لانتعاش المتوسط في القرن السادس عشر إلا إذا حدّدنا بدقة حقبة انتقاله من حال النقص الدائم في النقد في بداية القرن المذكور إلى حال الوفرة النسبية في غضون النصف الثاني من القرن نفسه . باختصار يجب أن نحدد اللحظة التي بدأت فيها الفضة الأميركية المتدفقة إلى أنفير تصل إلى المتوسط الإيطالي بكميات كافية لإعادة الحيوية الى تجارة المشرق . وهذا مثال يطابق ما نذهب اليه : أزمة التجارة المشرقية في ثـمانينات القـرن السادس عشر تتـلازم مع إنخفاض كمية المعادن الثمينة التي كانت تصل إلى المتوسط ، وذلك بسبب اتجاه الفضة الاسبانية نحو المحيط الأطلسي في أثناء سيطرة إسبانيا على البرتغال .

2 ـ توازن القمح وأزماته

تُظهر دراسة مشكلة القمح أن المتوسط لم يعش أبداً وفرة كاملة . فإذا كانت تجارة البهارات تجارة ترف ، فإن تجارة القمح هي تجارة حاجة ، فضلاً عن ضخامتها قياساً إلى الأولى . وعلى الرغم من أن التموُّن بالقمح كان يتم محلياً ، أي داخل اقتصاد مغلق ، فإن المدن الكبرى وحدها كانت تستطيع أن تستورده من مسافاتٍ بعيدة . والقمح ليس صنفاً واحداً . في فلورنسا مثلاً هنالك القمح السيء والأقل سوءاً والحسن . وحين كان القمح يشح كان يستعاض عنه وعن الذرة الصفراء بالذرة البيضاء التي كـانت غذاء الفقراء في إسبانيا ، فيما كان الشوفان غذاء فقراء تركيا ، والفول غذاء فقراء مصر .

دائماً هنالك خبز للفقراء وآخر للأغنياء . والعوامل التي كانت تجعل إنتاج القمح واستهلاكه في المتوسط على حالٍ من التقلب ، كثيرة ومتنوعة : حاجة القمح لأراضٍ زراعية واسعة وجهد كبير بسبب قلة الأمطار وفيضانات الشتاء وجفاف الصيف . هذا ما جعل زراعة الكرمة والزيتون وتربية المواشي تتفوق على زراعة القمح . ثم أضف إلى تقلب المحاصيل المضاربات التجارية والحجم الضخم للأموال التي تدخل لعبة المضاربة وكثرة الوسطاء . هذا كله فضلاً عن تدخل المدن والدول في تجارته ما يجعل القمح كالملح سلعة سياسية ووسيلة لتحصيل الضرائب . ولعوامل التقلب هذه وجهان متناقضان : الوفرة والشح . فحين يشح القمح في منطقة ما يقوم التجار بإغراقها بالقمح ، فيتدنى عندئذٍ سعره . لذا كانت تمر على المنطقة نفسها فترات يشح فيها القمح ويندر وفترات أخرى يتوافر فيها ويفيض عن حاجة المستهلكين . في إيطاليا مثلاً قضى في سنة 1554 عشرات الألوف جوعاً قبل أن يصل القمح الأجنبي المستورد . إذن كانت للتقلب أسباب تتعلق بالنقل . فالقمح سلعة لا تتحمل كلفة كبيرة . ونقلها براً لم يكن يحصل إلا لمسافات قصيرة . أما حين كان يُنقل براً لمسافات طويلة فكان سعره يتضاعف : كان يزداد سعره 30%في عملية نقله من إيطاليا إلى إسبانيا . وفي شتاء (1590 ـ 1591) إزداد سعره أربعة أضعاف بسبب نقله من هنغاريا الى البندقية . هو البحر ، إذن ، وسيلة نقل القمح الناجعة . وهذا ما يفسر ازدهار زراعته في المناطق القريبة من الشواطىء(صقلية مثلاً) ، وازدهار تجارته في مناطق تنشط فيها الملاحة ، أي في المدن البحرية وعلى ضفاف الأنهر الصالحة للملاحة ، حيث كانت تقع أسواق القمح المتوسطية كلها : سهول الدانوب التي يصلها نهر الدانوب بالبحر الأسود ، سهول سواحل بحر إيجة ، النيل ، صقلية المصدرة للقمح منذ قرون ، مما جعلها موضع صراع بين الاسلام والغرب .

كان المشرق يعوض الغرب المتوسطي شحة القمح فيه . فالمشرق غني بزراعة الحبوب ويتميز بقلة عدد سكانه وبتدني أسعار القمح فيه . ويمكن أن نعدد أهراءات ثلاثة للقمح في المشرق المتوسطي : السهول اليونانية ـ البلغارية ، سهول رومانيا الجنوبية ، وجزء من الانتاج المصري . وكلما تقدمنا في سنوات القرن السادس عشر نلاحظ أن الغرب يزداد استيراده للقمح التركي ، بسبب تزايد عدد سكان المتوسط قياساً إلى موارده وسوء الحالة الغذائية ، في الغرب على وجه الخصوص . فنابولي بين العام 1560 و1600 أصيبت بمجاعات ست ، كانت الثلاث الأخيرة منها كارثية .

على وجه عام يمكننا أن نميز أزمات أربعاً للقمح في المتوسط :

ـ أزمة شبه الجزيرة الأيبيرية التي بدأت في البرتغال ، حيث تزامن شح القمح مع

منافسة زراعة الفاكهة لزراعته . لذا سُمي البرتغال بـ « أمبريالية القمح » حين سعى الى السيطرة على السهول المغربية ليستولي على قمحها . لكن الإنفراج جاء من الشمال مع وصول قمح بلاد الفلاندر وقمح منطقة البروتاني الفرنسية اللتين كان سكانها بحاجة إلى كميات من الذهب البرتغالي في مقابل حاجة البرتغال إلى القمح . إنتقلت الأزمة إلى إسبانيا التي كانت زراعتها متقدمة في بداية القرن السادس عشر وجعلت تتدهور ابتداءً من نصفه الثاني . كان سبب التدهور إرهاق الفلاحين بالديون والضرائب وانتزاع ملكياتهم الزراعية . هذا فضلاً عن ازدياد عدد السكان وضيق مساحة الأراضي ، الأمر الذي حمل كثرة من الفلاحين على العمل كأجراء مياومين يتقاضون أجوراً زهيدة ، فيما هاجر قسم منهم إما إلى المدن وإما إلى أميركا . مهدت هذه الأسباب مجتمعة للأزمة العامة الكبرى التي عصفت باسبانيا بين العام 1580 والعام 1590 . وهي الأزمة التي كانت قد ابتدأت بمجاعة أولى في العام 1561 وأعقبتها مجاعة ثانية في العام 1569 . هكذا أصبحت إسبانيا بحاجة دائمة للقمح الأجنبي لتؤمن اكتفاءها الذاتي ، وهذا واحد من العوامل التي تفسر انتشار الأوبئة فيها في نهاية القرن السادس عشر .

ـ أقدمت تركيا على منع تصدير القمح منها في العام 1555 ، وذلك بسبب تدني محاصيله في مصر حيناً وفي القسطنطينية أحياناً ، فضلاً عن إرتفاع أسعاره في سوريا . لكن منع تصدير القمح لم يحل دون عمليات تهريبية ، من قبل التجار الايطالين على وجه الخصوص . كانت هذه الظاهرة مؤشراً على بدء الأزمة في تركيا ، بعد فيض من عمليات تصدير القمح إلى إيطاليا التي أصيبت محاصيلها الزراعية بتراجع خانق في منتصف القرن السادس عشر ، بنتيجة تزايد عدد سكانها وسوء المناخ وتراجع الاستثمارات الزراعية والحروب فيها . هذه الأسباب كلها حملت إيطاليا على استيراد القمح من تركيا التي كانت بحاجة إلى تصريف فائض محاصيلها منه . لكن إنتاج تركيا من القمح ما لبث أن هبط الى درجة عدم قدرتها على سد حاجاتها الذاتية بين العام 1561 والعام 1598 ، فعاشت إسطمبول 94 شهراً من تفشي الطاعون والمجاعات على نحو متقطع ، بنتيجة نقص الحبوب فيها . لكن مسألة أساسية تكمن وراء هذه الكارثة . فالوفرة في إنتاج القمح وتصديره حمل الأمبراطورية العثمانية على الدخول في حياة العالم وتوازناته ، الأمر الذي حتم عليها الأخذ باقتصاد نقدي كسر العلاقات الإجتماعية ـ الإقتصادية التقليدية القديمة فيها . وفي هذا السياق يلاحظ المؤرخ التركي عمر لطفي بركان أن إقدام كل من السلاطين والباشوات والبكوات على تملك الأرض تزامن مع احتكارهم لبيع القمح للتجار الغربيين ومنعهم إياه عن أفواه الشعب . فالتضخم وارتفاع الأسعار والتراكم المالي سمحت كلها بتنامي ملكية خاصة للأرض

وتوريثها ، بعد أن كانت ملكية عامة هشة خاضعة لإدارة الدولة . وهذا التحول في الأمبراطورية العثمانية موازٍ لعودة الاقطاع في الغرب . يبقى أن نشير إلى أننا لا نعلم على وجه الدقة سبب إنفتاح السوق التركي وانغلاقه : هل يكمن السبب في ازدياد عدد السكان أم في الحروب التي جعلت الجيوش تستهلك القمح كالمدن ، أم في الاضطرابات الاقتصادية والإجتماعية ؟

ـ حمل انغلاق سوق القمح المشرقي نهائياً في العام 1570 إيطاليا على الاعتماد على مواردها الداخلية . صحيح أن إيطاليا استطاعت أن تصمد في وجه الأزمة وتواجهها ، ولكن على حساب إيطاليا أخرى . فإيطاليا روما وجنوى وفلورنسا والبندقية ، أي إيطاليا المدن الكبرى الطفيلية ، واجهت الأزمة على حساب إيطاليا صقلية وأبروز وسردينيا التي كانت ما تزال متأخرة وغير منفتحة على النشاط التجاري الكبير . لذا عاش فقراء هذه الإيطاليا على العدس والفول والحمص بدلاً من عيشهم على القمح . لكن العوامل الأهم في مواجهة الأزمة هي أن ايطاليا ضاعفت من انتاجها الزراعي ، وهذه ظاهرة طويلة المدى بدأت ربما في منذ العام 1540 ، حين بُدىء باستغلال الهضاب والسفوح واستصلاح السهول التي كانت تكثر فيها المستنقعات ، بغية زراعتها بالقمح . وهذا ما أدى إلى تغير المشهد الزراعي في إيطاليا : نقص في الأشجار والمراعي ، أدى بدوره إلى نقص في الثروة الحيوانية نجم عنه تقهقر في صناعة الصوف . وقد تطلب إنجاز هذه العملية الأموال فضلاً عن الرجال وجهدهم . وهي العملية التي حملت أثرياء المدن على استثمار أموالهم في الزراعة ، وأدت إلى اقتطاع المُلاك البرجوازيين لـ « فائض قيمة » عمل الفلاحين والسيطرة عليهم ، فنجم عن ذلك توتر اجتماعي طرفاه كل من الفلاحين وأسيادهم . ثم ما لبث أن تحول هذا التوتر الى ثورة اجتماعية كامنة عبرت عن نفسها ببروز العصابات وقطاع الطرق وارتكاب الجرائم .

ـ منذ فترة طويلة كانت صعوبات تزود المتوسط بالقمح ترهص بدخول القمح الشمالي اليه منقولاً على متن السفن الهولندية والانكيزية ابتداء من العام 1590 . ثم لم تلبث هذه الحركة أن نشطت في أعقاب المواسم الزراعية السيئة التي ألمت بإيطاليا . لكن استيراد القمح لم يكن مسألة إيطالية ، بل هو طاول أوروبا الغربية كلها فضلاً عن شمال إفريقيا .

باختصار يمكننا أن نستنتج أن القمح في المتوسط كان يزداد انتاجه مع تزايد عدد السكان ، حتى العام 1550 . أما بعد هذا التاريخ فجعل انتاجه يتناقص قياساً إلى عدد السكان الذي لم يتوقف عن النمو والتضخم . هذا فضلاً عن أن زراعة القمح تعرضت لمزاحمة زراعة الأشجار المثمرة المضمونة المردود كالزيتون والكرمة . ثم أضف

الى العاملين السابقين تقلبات التجارة الكبيرة وتصاعد نشاطاتها وتفاوت أسعار القمح نفسه وولادة ظروف اجتماعية جديدة ، منها رغبة الأغنياء المتزايدة في الخبز الأبيض . لقد كانت عمليات شراء القمح بكميات ضخمة ونقلها لمسافات طويلة إحدى علامات الثروة العامة المتعاظمة التي كانت تحمل معها حالة كارثية يتحمل أعباءها الفقراء وحدهم .

3 ـ أشرعة الأطلسي

المسألة الثالثة والأخيرة التي تدخلت في رسم أبعاد الحياة الإقتصادية في المتوسط هي اجتياح السفن الشمالية لحركة التجارة والنقل فيه . وبادىء ذي بدء يمكننا تحديد حقبتين اثنتين لوصول هذه السفن الى قلب المتوسط . تمتد الحقبة الأولى من العام 1450 حتى العام 1552 . لكن دخول السفن الأطلسية إلى المتوسط في هذه الحقبة كان علامة تشير إلى أمرين مزدوجين ومتلازمين : إزدهار اقتصادي عام في المتوسط وقيام الشمال بزاحمته للاستفادة من هذا الإزدهار . فحتى العام 1550 كانت السفن الأطلسية تدخل المتوسط بمعية سفن شبه الجزيرة الأيبيرية التي كانت منذ القرن الثالث عشر سفن نقل فحسب ، برز حضورها في العام 1450 في خدمة برشلونة وجنوى ، ووصلت إلى المشرق في غضون العام 1495 ، فضلاً عن رحلاتها العادية في نقل نبيذ مرسيليا الى لندن وجلود ايرلندا الى مرسيليا . أما السفن البرتغالية فقد اقتصر حضورها في نهاية القرن الخامس عشر على الحوض الغربي من المتوسط ، ناقلة السكر البرتغالي إلى كلٍ من إنكلترا وإيطاليا ، فيما لم تصل ملاحتها إلى حوض المتوسط الشرقي ولا انتشرت فيه وصولاً إلى كلٍ من مصر والمشرق والقسطنطينية إلا لتنحط سريعاً في منتصف القرن السادس عشر . وهذه أيضاً سفن البروتون والنورمانديين لم تنتقل ملاحتها من الحوض الغربي إلى الحوض الشرقي قبل العام 1540 . والهولنديون بدورهم لم يدخلو المتوسط على نحوٍ كثيف إلا بمعية سفن شارلكان لمهاجمة تونس في العام 1535 والجزائر في العام 1541 ، ليختفوا من المتوسط كله بعد العام 1550 . أما النشاط الإنكليزي الكثيف في نقل الأسماك والأقمشة نحو المشرق على وجه الخصوص ، فما لبث أن توقف على نحو مفاجىء في العام 1552 ، بعد فترة من الإزدهار بين العام 1511 والعام 1534 . وقد علل بعض المؤرخين هذا التوقف بالتقدم التركي ، لكن أسبابه الفعلية تكمن في التراجع العام للإقتصاد العالمي في أواسط القرن السادس عشر الذي إنجلى عن أزمة اقتصادية انكليزية بارزة حتمت على انكلترا الانسحاب من المتوسط .

هكذا راح المتوسط بين العام 1550 والعام 1573 يتحمل بنفسه أعباء النقل كلها ، فعادت سفنه الى الظهور في الأطلسي وفي بحر الشمال . لكن هذا الأمر يحمل في

طياته دليلاً واضحاً على تراجع اقتصادي حمل المدن المتوسطية على تحمل أعباء النقل نفسها بنفسها ، فبرز الأغنياء وحدهم كمنتصرين وتوقفت أعمال كثرة منهم . هذا ما آذن بوقوف الوفرة الاقتصادية في تلك الفترة ـ بسبب انحصارها في أيدي الأغنياء ـ حائلاً دون توجه السفن الأطلسية بكثافة وإصرار نحو الأطلسي ، فما لبثت السفن الأنكليزية والهولندية أن عادت إلى المتوسط ابتداء من العام 1573 . وفي هذا العام بدأت الحقبة الثانية من دخول السفن الشمالية والأطلسية المتوسط بكثافة وقوة هذه المرة . فالسلع التي كانت تحملها السفن الانكليزية من رصاص وقصدير وأسماك كانت مطلوبة في المتوسط من بلاد الاسلام إلى روسيا إلى بلاد المتوسط المسيحية . أما السبب المباشر لعودة الإنكليز الى المتوسط فكان يتمثل في أزمة البندقية (1571 ـ 1573) التي جلبت الثراء لمرسيليا فترة وجيزة ، من دون أن تقدر البندقية ـ بعد عودة الإزدهار اليها في العام 1575 ـ على استعادة موقعها في عمليات النقل . فازدهار البندقية المستعاد وازدهار غيرها من المدن المتوسطية ، جعل النقل وما يستلزمه من بحارة وسفن في أيدي « الأجانب » . وإمارة ذلك منح الأتراك الانكليز امتيازات تخولهم حرية التجارة في الأمبراطورية العثمانية ، بعد مفاوضات عام 1580 . هكذا أنشئت شركة المشرق الانكليزية التي راحت تنافس الايطاليين والفرنسيين لتصل أرباحها الى 300%في العام 1581 ، حين كانت تمتلك 15 سفينة ما لبث عددها أن ازداد في سرعة هائلة . لكن على الرغم من ميل ميزان القسطنطينية التجاري لصالح الإنكليز ، وعلى الرغم من نوعية سفنهم وتنظيمهم الممتازين ، فإن ما أتاح لتجارتهم الاندفاع في المشرق هو انتعاش تجارة التوابل في وقت كانت فيه الصراعات الأطلسية تشغل غيرهم عن الانخراط في تلك التجارة . لقد نجح الانكليز في سوريا ولكنهم فشلوا في مصر بوجه المنافسة الفرنسية ، قبل أن تنفتح في وجه تجارتهم أبواب المتوسط كلها ، بسبب مرونة سياستهم التوفيقية بين المسلمين والمسيحيين . هذا فضلاً عما أتاحته لهم من أرباح قرصنتهم البحرية ، قبل دخول أسطولهم الحربي الى المتوسط في العام 1620 .

لم يقتصر الدخول الشمالي الى المتوسط على الإنكليز . ففي نهاية الثمانينات من القرن السادس عشر دخل الهولنديون اليه من باب شحة القمح في إيطاليا . وفي العام 1579 وصل الهولنديون الى المشرق وحصلوا ، شأن الإنكليز ، على امتيازات تجارية من العثمانيين في العام 1612 ، بعد أن كانوا يقومون بأعمالهم التجارية تحت راية الفرنسيين . وناء المتوسط بثقل الهولنديين قبل أن ينفتح المحيط الهندي بوجههم ، وذلك بسبب وحشيتهم واحترافهم القرصنة البحرية التي كانت شأناً إنكليزياً يستهدف انتزاع السيطرة على المتوسط وتثبيتها بشتى السبل والوسائل . أما سبب توغل الهولنديين على

نحو أكثر عمقاً من الانكليز في كلٍ من البحر (المتوسط) والمحيط (الهندي) فيعود إلى صلة البلاد الواطئة الوثيقة بأسبانيا ، وتشاركهما معاً في استغلال الثروة الأميركية . لذا آل بريق العهد الهولندي في المتوسط الى الأفول مع انتهاء تلك الصلة الوثيقة وشحة الثروة الإسبانية .

لا يمكن تفسير الانتصار الانكليزي ـ الهولندي إلا على مستوى الاقتصاد وعلى مستوى التقدم التقني في العالم كله . فمع ظهور السفن الشراعية الشمالية السريعة التي كانت تتراوح حمولتها بين 100 و200 طن وذات التسليح والتجهيز المتقدمين ، حصلت انعطافة في تاريخ الملاحة العالمي في القرن السادس عشر ، أدت إلى تفوق حربي وتجاري شمالي على المتوسط ، الى حدٍ حمل الهولنديين والانكليز على تسمية السفن البرتغالية بـ « الدجاج المبلول » ، بسبب بطء سرعتها . إنها واقعة هامة في تاريخ الملاحة ، لكن المؤرخين بالغوا في الإعتماد عليها تفسيراً وحيداً حين اعتبروا أن الشمال اجتاح المتوسط لأن شبه الجزيرة الأيبيرية عجزت عن حماية بوابته الغربية في مضيق جبل طارق .

الأمر الهام هو أن هذا التقدم التقني للشمال تزامن مع عامل اقتصادي عام تجلى بتخلي جنوى في العام 1566 عن القيام بتصدير السلع الإسبانية لصالح تجار البلاد الواطئة وشركاتها ، في الوقت الذي تحول فيه الأسبانيون الى مجرد مشاهدين يقتطعون جزءاً من المردود التجاري ويوظفونه في شراء الأراضي والقرى . هكذا تمكن الهولنديون من السيطرة على تجارة سيڤيل كلها لتتحول أمستردام ـ التي جعلت تستقطب الأموال السياسية الاسبانية بدل أنڤير ـ مركزاً لشبكة ضخمة ترمي بثقل سيطرتها على أميركا الاسبانية كلها . وحين قرر فيليب الثاني ضرب السيطرة الهولندية باء بالفشل ، لأن التجار الهولنديين كانوا يحكمون سيطرتهم بواسطة شبكة ضخمة من الوسطاء البرتغاليين والاسبان والفرنسيين والألمان .

4 ـ إنحطاط المتوسط ؟!

حضّر الهولنديون اختراقهم للمتوسط وأعدوا له العدة بدقة متناهية ، ومما قاموا به في هذا المجال تشكيلهم شبكة للتجسس التجاري ، فضلاً عن قيامهم برحلاتهم التجارية تحت رايات مزورة ، فشاعت تسميته سفنهم بـ « السفن المقنعة » . لكن هذه الأمور لن تصرفنا عن التشديد على المسألة الأساسية : ليست الطرق الجديدة هي التي أزاحت المتوسطيين عن مواقع سيطرتهم ونقلت مركز الثقل التجاري إلى الشمال ، بل إن اختراق الانكليز والهولنديين وحدوث « ثورة تجارية » هما ما آذنا بأفول نجم المتوسط الذي لم تنضب ثروته ، بل هي انتقلت إلى أيدٍ غير أيدي أهله . فصادرات لندن ،

مثلاً ، الى المتوسط كانت تمثل 48٪ من صادراتها كلها في العام 1660 . وهذا دليل على أن المتوسط كان لا يزال في موقع الصدارة من المناطق الكبرى التي يزدهر فيها التبادل وتجنى منها الأرباح ، في أواسط القرن السابع عشر . والتفوق الإنكليزي والهولندي في المتوسط لم ينجم عن استخدام الطرق البحرية الجديدة . وفي الحقيقة كانت القوة والتزوير سبيلاً شمالياً ناجعاً لاختراق المتوسط وفتحه : كان الشمال يقلد سلع المانيفاكتورة الايطالية ليبيعها بأسعار متدنية مستفيداً من تدني أجور اليد العاملة الشمالية . والشراشف الانكليزية كانت تباع في المشرق بعد تزوير ماركاتها ورسمها برسوم الشركات الصناعية في البندقية ذات الخبرة والإمتياز والمكانة . وهذا كان يؤدي إلى تشويه سمعة البضائع الإيطالية المتفوقة في جودتها ، وإلى تعريض الصناعة فيها ـ وهي أول مدينة صناعية في أوروبا كلها ـ للإضطراب والتدهور اللذين نجم عنهما هجرة حرفييها إلى كلٍ من هولندا وانكلترا وفرنسا ، حيث تُدفع لهم أجور مرتفعة جداً للاستفادة من خبراتهم العالية . وعلى الرغم من هذا كله ظلت البندقية في القرن السابع عشر أهم مرفىء في أوروبا . لذا يجدر بنا أن نقول إن المتوسط هو الذي غذى أول تراكم رأسمالي في الشمال ، وإنه لم ينحط في نهاية القرن السادس عشر ، بل أصبح مرتبطاً بقدر أوروبا التي كانت آنذاك على عتبة أزمنتها الحديثة . . . إنه سجال مضنٍ وطويل ، ولكنني لا أميل أبداً إلى الأخذ بأطروحة ماكس فيبر القائلة إن الشمال قد نجح بفضل الإصلاح البروتستانتي .

الفصل الرابع

صعود الأمبراطوريات وانهيارها

لا يسعنا رسم صورة شاملة وواضحة للكيانات السياسية المتوسطية في القرن السادس عشر من دون أن نرجع قرنين اثنين إلى الوراء ، أي إلى وقت كان المتوسط فيه مجالاً للمدن ، الدول ـ المدن . فالدول الإقليمية المتفاوتة في تجانسها وفي أهميتها ، والتي تمددت في اتجاه الشواطىء المتوسطية ، كانت في الأصل إمتدادات لمدن قوية فقدت في القرن الخامس عشر مقومات حياتها المستقلة . لكن هذه الأزمة ، أزمة المدن ـ الدول ، لم يُقدّر لها أن تُنجِز وحدة إيطالية لم يكن موعدها قد حان بعد . وكانت هذه الأزمة قد عصفت في أنحاء المتوسط كله ، بسبب عجز الدول المدينية ، لهشاشتها وضيق رقعتها ، عن القيام بالأعباء السياسية والمالية المترتبة عليها . كنتيجة لهذا العجز ظهرت الدول الإقليمية المترامية الأرجاء والكثيرة عدد السكان والقادرة على التصدي لأعباء الحروب الحديثة الكبرى . لكن هذه الدول الإقليمية الناشئة كانت قد أرست ركائز قوتها ، في الأصل ، في الأرجاء الداخلية البعيدة عن الشواطىء المتوسطية حيث كانت تقوم المدن . أما في إيطاليا فقد أدى كل من غنى المدن وقوتها إلى المحافظة على الانقسام والضعف السياسيين ، الأمر الذي آل الى انتصار الأتراك في حروبهم ضد البندقية ، على الرغم من تفوق إيطاليا وتقدمها التقني . وهذا ما يفسر هشاشة البنى السياسية الإيطالية .

1 ـ في أصل الأمبرطوريات

كان من نتائج الأزمة المدينية الطويلة ولادة إمبراطوريتين اثنتين في جهتي المتوسط : الإمبراطورية الإسبانية والإمبراطورية العثمانية اللتان حفّ بولادتها حسٌ صوفي متأجج .

شكل كل من نهوض الحس الديني وعودة فكر الصليبية في أسبانيا القرن الخامس عشر ، شكلا قاعدة الصوفية الأمبراطورية لقيام الوحدة الاسبانية . وقد كان الهابسبورغ وقبلهم الملوك الكاثوليك أول من عمل في سبيل تلك الوحدة . فما قام به هؤلاء الملوك ، بعد حرب المئة عام ، كان صدوعاً لإرادة برجوازيات المدن الباحثة عن استتباب السلام الضروري لازدهار تجارتها . أما اتجاه منطقة كاستيليا الاسبانية إلى التحالف مع أراغونا فلم يكن صدفة بقدر ما كان خياراً متوسطياً حال دون الوحدة مع البرتغال وأتاح وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية . وكما كانت الصوفية الأمبراطورية في أصل الوحدة الإسبانية ، كانت من وجه آخر ضرورية لاحتلال غرناطة في العام 1492 ، وللتوجه نحو شمال إفريقيا الذي أُرجىء واستبدل بالاتجاه نحو إيطاليا قلب المتوسط ومركزه والتي كان الإسلام يهددها . هكذا أصبح الملك الكاثوليكي الاسباني بطل الصليبية الجديدة . وبعد أن خلف شارل كينت ملك اسبانيا فرديناند في سنة 1516 غدت إسبانيا موقعاً ثانوياً في الامبراطورية ، بسبب إتكاء هذه الأخيرة على إيطاليا وعلى البلاد الواطئة اللتين كانتا تقتسمان الثروة الأميركية المتدفقة وتبحثان عن أسواق جديدة لتوظيفها في الصناعة والتجارة ، وذلك عوضاً عن الارتكاز الى اسبانيا نفسها الواقعة على طرف أوروبا . لذا كانت تبدو الأمبراطورية مع ذلك الملك أوروبية أكثر منها إسبانية . ولو لم تقم اسبانيا بتلك المهمة الامبراطورية لكانت فرنسا ، ربما ، أقدمت على القيام بها ، لأنها ، أي فرنسا ، كانت منذ العام 1494 تتجه نحو هذا القدر الذي أحبطته الظروف ، وربما أحبطه تخلف اقتصادها ومميزات حكمها ومزاجها وتعلقها بالقيم المؤكدة . فقيام أمبراطورية كان قدراً أوروبياً وليس قدراً إسبانياً فحسب . لذا اتخذت الفكرة الصليبية في عهد شارل كينت معنىً ومدىً أوروبيين شاملين ، ونحت المملكة الاسبانية نحو توحيد المسيحية في مواجهة الأتراك الذين كان سلطانهم سليمان القانوني نظيراً لشارل كينت في الجهة الأخرى من البحر .

لم يستمر هذا الوضع في عهد فيليب الثاني في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، لأن الامبراطورية راحت في أثناء حكمه تتمركز في اسبانيا ويقل انخراطها في أوروبا ، لتتجه نحو المحيط الأطلسي . وقد رجّحت الثروة الأميركية خلف المحيط هذا الاتجاه . هكذا تحولت كاستيليا إلى مركز متربولي ، فيما أصبحت إيطاليا والبلاد الواطئة مناطق ثانوية في الأمبراطورية ، فنتج عن هذا التبدل عداء ايطالي للإسبانيين . ثم ما لبثت المواجهة مع الشمال البروتستانتي أن برزت بهدف السيطرة على المحيط الأطلسي الذي برز ، منذ ثمانينات القرن السادس عشر ، كمركز للكرة الأرضية في أعقاب ازدياد حجم المعادن الأميركية الثمينة المتدفقة إلى العالم كله . وفي الوقت نفسه الذي كانت

تتجه فيه المملكة الاسبانية نحو الغرب ، كان العثمانيون في الجهة الأخرى من المتوسط يديرون ظهورهم لهذا الأخير ويتجهون نحو الصراع مع إيران . لقد كانت الأمبرطوريتان تبتعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها ، فيما كانت تدق في قلب المتوسط ساعة تراجع الأمبرطوريات .

في الجهة الأخرى من المتوسط كانت هنالك ثلاثة قرون من الجهد الدؤوب والصدامات الطويلة في أصل العظمة الأمبراطورية العثمانية . فسلالة بني عثمان نهضت بين صدف المعارك على حدود آسيا الصغرى المتقلبة ، حيث كان الدين والحروب لا ينفصلان . وفي أعقاب غزو التركمان الصامت والبطيء لآسيا الصغرى أصبحت تركيا بلداً إسلامياً في ظل تحريضٍ ودعاية غريبين لاعتناق الدين الإسلامي ، بعدما كان سكانها من الروم الأرثوذوكس . أما سهولة فتح العثمانيين لبلاد البلقان فيعود إلى أن شبه الجزيرة البلقانية كان نهباً لانقسامات بين البيزنطيين والصرب والبلغار ، الأمر الذي أتاح اندفاع الفتح الجديد وازاحة كبار الملاكين في طريقه . لكن سيطرة العثمانيين على غرب البلقان الجبلي كانت شديدة البطء وشكلية في وجهها الغالب . وهذا كله لم يتيسر له النجاح بمعزل عن شق الطرق وبناءُ الحصون وإيكال تنظيم شؤون الغزو للمدن التي أخضعها العثمانيون أو بنوها أو حصنوها .

وإذا كان الفتح ـ الغزو التركي قد تم على حساب الشعوب التي أُخضعت في البداية (آلاف الصربيين بيعوا كعبيد في أسواق البلدان المسيحية ، بعد معركة كوسوڤو) ، فإن المنتصر العثماني لم يكن ينقصه الحس السياسي ، في أيام محمد الثاني على وجه الخصوص ، وهو السلطان الذي قدم تنازلات لليونانيين وفتح بوجههم أبواب القسطنطينية التي آفتتحت في العام 1453 . لذا اتخذت شعوب شبه جزيرة البلقان مواقع لها إلى جانب المنتصر وأعادت إحياء مآثر الامبراطورية البيزنطية . لكن إعجاب الغرب المسيحي بالامبراطورية العثمانية وانبهاره بها لن يصرفنا عن ملاحظة كره المسيحيين لهؤلاء « الكفار » ، وعن معارضة التفسيرات القديمة . فلا الغزو ولا التوسع العثمانيين كانا في-أصل الاكتشافات الكبرى ، بل إن هذه الأخيرة هي التي أزاحت أنظار الغرب قليلاً عن الشرق ، فاستطاع العثمانيون التقدم غرباً من دون صعوبات كبيرة . ثم إن الحدث الأهم من احتلال القسطنطينية في التاريخ العثماني كان احتلال مصر وسوريا اللتين أتاحت سيطرة العثمانيين عليهما ، فضلاً عن جنيهم خراجاً مرتفعاً منهما ، مشاركتهم في تجارة الذهب الإفريقي وفي تجارة الشرق العالمية . لذا غدت الامبراطورية وسيطاً تجارياً إجبارياً بين الهند والغرب ، هذا مع العلم أن مصر كانت المصدر الأساسي للقمح والأرز والفول . لكن هذه الملاحظات كلها لن تصرفنا عن النظر إلى

الأمبراطورية من الداخل لفهم نقاط ضعفها وقوتها وترجرجها . لقد كان فن الحكم العثماني يستند إلى أسلوب عيش والى تراث معقد يختلط فيه الديني بالإجتماعي ، وتاريخ الامبراطورية استغرق قروناً وتجارب متلاحقة ومتفاوتـة ومتناقضة . إنه ذلـك النسق الإقطاعي الذي خلق أرستقراطية عقارية منقسمة ويصارع بعضها البعض الآخر من غير أن يجمع بينها غير السلطان ، وذلك بحسب وتائر داخلية شديدة التعقيد .

كان صعود الأمبراطوريـات في المتوسط يتلخص بصعـود العثمانيـين في الشرق وصعود الهابسبورغ في الغرب . لكن القرن السابع عشر أظهر على نحو جلي تراجع هاتين الامبراطوريتين . كأن مأساة المتوسط كانت سياسية في الدرجة الأولى ، ابتداء من القرن السادس عشر . فليس صحيحاً أن ،صدفة كانت وراء اكتشاف أميركا وثورة الأسعار وولادة الأمبراطوريات ، وليس صحيحاً أيضاً أن خيط القوة الوحيد هو التطور التدريجي للرأسمالية ، على نحو ما يرى (J. Schampter) ، أحد كبار الاقتصاديين . فثورة الأسعار كانت سابقة على التدفق الكثيف للذهب الأميركي ، ونمو الدول الإقليمية كان سابقاً على اكتشاف القارة الجديدة . وإذا كانت مناجم العالم الجديد قد دخلت في الحسبان فلأن أوروبا في الأصل كانت تمتلك القدرة على استثمارها . أما إذا افترضنا أن مناجم القارة الجديدة المكتشفة لم تكن سهلة الاستغلال ، فإن قوة الدفع في الغـرب كانت ستجد لنفسها متنفساً في الشرق الأقصى وفي الذهب الافريقي وفي فضة أوروبا الوسطى . فالدولة مثلها مثل الرأسمالية نتاج تطور متعدد ومتشابك ، والظروف الطويلة المدى تحمل في داخل حركتها المرتكزات التي تقوم عليهًا السياسة .

2 ـ ضعف الدول

في ظل صعود الأمبراطوريات برز « الموظفون » على مسرح التاريخ السياسي . وفي كلا الامبراطوريتين ، الاسبانية والعثمانية ، كـان الموظفـون من أصول اجتـماعية متواضعة : من أصول مسيحية ويهودية في الأمبراطورية العثمانية ، فمن بين 48 وزيراً (والـوزير في الـدولة العثـمانية كـان يسمى الصدر الأعـظم) تعاقبـوا على الحكم في اسطمبول كان خمسة وزراء فقط من أصل تركي وعشرة من أصـلٍ مجهول و33 من أصول مسيحية . أما في إسبانيا فكان الموظفون يتحدرون من صغار العائلات المدينية ومن العائلات الفلاحية . وفي بداية القرن السادس عشر كان يتهيأ حوالي 70 ألفاً من طلاب الجامعات في إسبانيا للانخراط في أجهزة الدولة . وعهد السلطان سليمان القانوني كان في آن عهد حروب ناجحة وبناءات عدة ونشاط تشريعي قانوني ضخم في مدينة القسطنطينية . وعلى الرغم من الاختلاف في أنماط الحكم والإدارة ، مثير هو التشابه بين الامبراطوريتين . فعمليات سلخ الموظفين أو اقتلاعهم من بيئاتهم المحلية ليست غريبة

عن دول القرن السادس عشر كلها . ففي تركيا كانت فئة الموظفين في غالبيتها من الإنكشارية الذين انتُزعوا صغاراً من بيوتهم وعائلاتهم المسيحية في البلقان . وموظفوا الامبراطورية الاسبانية غالباً ما كانوا يُنقلون من مكان إلى آخر في أرجاء الامبراطورية الواسعة ، فينقطعون في ذلك عن أصولهم وروابطهم المحلية . لكن سرعان ما بدأت الرشوة تتفشى في صفوف هذه الفئة الجديدة من الموظفين ، فأصبحت تُنال الوظيفة ، شيئاً فشيئاً ، بالبيع والرشوة ، في كلا الامبراطوريتين : في الامبراطورية العثمانية تفشت عمليات نهب هائلة يقوم بها الجهاز الاداري من قمته حتى قاعدته . وفي الامبراطورية الاسبانية ظهرت فئة كانت الوظائف مصدر غناها وثرائها الفاحشين . لكن الملفت أن ثروات الوزراء في الدولة العثمانية كانت تنتقل في أعقاب موتهم إلى أيدي السلاطين . لكن هذه الثروات سرعان ما بدأت تجد ملجأ لها في المؤسسات الخيرية (الوقف) التي كانت تتيح للعائلات الاستفادة من جزء منها ، بعد أن تكون الدولة ، وعلى رأسها السلطان ، قد شاركت الموظفين في عمليات النهب التي كانوا يقومون بها .

ساهمت الرشوة في إنحلال الامبراطورية الاسبانية بعد موت فيليب الثاني ، كما ساهمت أيضاً في إنحلال الامبراطورية العثمانية بعد موت السلطان سليمان القانوني . أضف إلى الرشوة تبذير أموال كل من الدولتين في البذخ والترف . وفي هذا السياق تكفي الإشارة إلى الاحتفالات المهيبة الباذخة التي كانت تقام في أيام الأعياد إبان عهد السلطان مراد الرابع ، فيما كانت المجاعات والحروب الانفصالية تقصم ظهر السلطنة . هكذا بدأت دول الامبراطوريات تصطدم بمئات المحاولات والاتجاهات الاستقلالية المحلية المتواترة على أطرافها : غرناطة ، البرتغال ، ومنطقة الباسك في الامبراطورية الاسبانية ، ومحاولات الأمراء المحليين الدائمة للانفصال عن اسطمبول في إماراتهم البعيدة النائية . واستبداد الأمراء والولاة المحليين ربما يفسر تضخم كل من نابولي واسطمبول ، حيث كان البذخ والتبذير والدعة عماد حياة الفئات العليا الحاكمة ، فيما لم يكن شيء يقي الناس في المقاطعات من عسف الأمراء المحليين وظلمهم .

كان النظام الضريبي بدوره علامة ثانية من علامات ضعف الدول . فالدولة الامبراطورية المترامية الأطراف لم تكن على علاقة مباشرة بالمساهمين في تغذيتها بالضرائب ، هذا في حين كانت فيه هذه الدول لا تمتلك خزينة أو مصرفاً تابعاً لها . ففي إسبانيا شجع تشتت عائدات الدولة ومدفوعاتها أصحاب البيوتات التجارية على تطويع النظام الضريبي ليكون في خدمة مصالحهم . وفي الدولة العثمانية كانت لرجال الأعمال يدٌ طولى على مالية الدولة .

في نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بدأ الانحلال يضرب أجسام

الدول الكبيرة . من الخارج كانت الامبراطوريات تبدو قوية ومزدهرة ، لكن القوة والأزدهار هذين ما كانا يتخطيان حدود العاصمتين الامبراطوريتين ، مدريد واسطمبول . ومنذ نهاية القرن السادس عشر بدأ الغربيون يحلمون في تقاسم الامبراطورية العثمانية التي عصفت فيها الثورات واجتاحتها العصابات من الجزائر حتى بلاد فارس ، ومن بلاد التتار حتى مصر . لكن لحظة تحقق هذه الأحلام لم تكن قد حانت بعد ، لأن « الرجل المريض » لم يكن قد شارف على الموت فوق فراش الاحتضار الذي ظل زمناً طويلاً مستلقياً عليه من دون أن يتمكن من استعادة قوته .

على هذا النحو دار دولاب التاريخ لتتراجع الدول الكبرى مفسحة المجال لبروز الدول الصغيرة : فرنسا هنري الرابع ، إنكلترا اليزابت ، هولندا المتمركزة حول أمستردام ، وألمانيا التي نعمت ببحبوحة اقتصادية منذ العام 1550 . إنها دول ذات مساحةٍ صغيرة ويمكن جباية ضرائبها وإدارتها بمهارة . إنه أيضاً زمن انحطاط المتوسط ، لكن ليس انحطاطه فحسب .

الفصل الخامس

المجتمعات وصراعاتها المقنعة

إذا أهملنا التفاصيل والاستثناءات المحلية والفرص الضائعة على كثرتها والإضطرابات الكبرى التي كانت مأساوية أكثر منها عميقة ، إذا أهملنا هذا كله واكتفينا بالأساسي والعام ، بدت لنا مجمل المجتمعات المتوسطية في القرن السادس عشر متشابهة في إرتكازها إلى قاعدة زراعية وفي تطورها البطيء وفي تأخرها عن كل من السياسة والاقتصاد . ففي ذلك القرن لم تشهد المجتمعات المتوسطية إعادة نظر حقيقية في أسسها . والصعوبات المالية الكبرى التي واجهت النبلاء لم تقوَ على تقويض سيطرتهم ونفوذهم . والدول الحديثة بدورها لم تقوَ على القيام بمهماتها ولم تكتمل كثورة اجتماعية ، فاكتفت بالمساومة والتعايش . والبرجوازية استمرت في خيانة نفسها ولم تتعرف على نفسها كطرف اجتماعي مستقل وفاعل . أما قلق الشعب وغضبه فكان ينقصه وعي ثوري حقيقي .

كانت فئات النبلاء في البلاد المسيحية والإسلامية تحتل على حدٍ سواء موقعاً أولاً في الحياة السياسية والإجتماعية ، محتفظة لنفسها بوسائل الترف وتبذير الثروة وتبديدها . وذلك من طريق اعتياشها على النظام الاقطاعيٍ وامتيازاته . وحدها المدن الكبرى والساحات التجارية في مناطق اغتنت باكراً في البلاد الواطئة وفي بعض المناطق الايطالية ، استطاعت أن تشذ عن هذه القاعدة العامة . لكن هذا الاستثناء لم يكن يشكل غير بؤر صغيرة في مجالي أوروبا والمتوسط ، حيث كانت الدول في صراعاتها مع الأسياد تحاول على نحوٍ دائم المحافظة عليهم إلى جانبها فيما هي تغذي انقساماتهم . فالدول لم تكن قادرة على بسط سلطتها على المجتمعات من دون لجوئها إلى التواطىء مع طبقة مسيطرة . وفي القرن السادس عشر لم تكن فكرة خلق نظام إجتماعي جديد قد

نضجت بعد . والنبلاء والأقطاعيون كانوا يستفيدون حتى أقصى الحدود من رسوخ العادات والتقاليد ومن قوة المراكز التي يشغلونها ويتوارثونها منذ زمن طويل . هذا إذا صرفنا النظر عن ضعف الدول وعن فقر المخيلة الثورية في ذلك القرن .

غالباً ما يُقال أن القرن السادس عشر أحال الإقطاعيين إلى بؤساء ، وأن النظام الإقطاعي تهاوى بفعل إنخفاض قيمة النقد وبفعل اكتشاف المعادن الأميركية الثمينة ، وكأن الرأسمالية كان لها فعل الأسيد في تحويل الأطر الإجتماعية . لكن الواقع لم يكن أبداً على هذه الصورة . صحيح أن حال كثرة من النبلاء قد تدهورت ، لكن الصحيح أيضاً أن وزن النبلاء الإجمالي قد إزداد رسوخاً ، لأن امتيازاتهم المفروضة على الفلاحين وحقوقهم عليهم وعلى أراضيهم ظلت سارية على حالها . أما الإقطاعيون فقد استفادوا من التوسع الزراعي ومن استثمار أراضٍ جديدة بنتيجة النمو الإقتصادي والتزايد السكاني اللذين عرفتهما أوروبا في بداية القرن السادس عشر . والأسياد كانوا بدورهم مسيطرين على تسويق القمح والصوف بفعل امتلاكهم قطعان المواشي الكبيرة . وإذا كانت العائدات القديمة ، ذات الطابع الإقطاعي ، قد تدنت ، فإن قيمتها ظلت تتمتع بوزن بارز . والنبلاء حافظوا على علاقتهم الحميمة بالأرض وعلى عائداتهم العقارية متجاوزين عاصفة ثورة الأسعار ، لكن ليس من دون خسائر . وها هي ذي الدولة الحديثة عدوتهم اللدودة ، تحافظ من وجه آخر على حمايتهم بوصفهم شركاءها . فهي قد أخضعتهم لطاعتها بهدف استخدامهم وسيلة للحكم والسيطرة وإخضاع العامة في المناطق التي تقوم فيها أراضيهم وقصورهم . وفي نهاية عهد ملك إسبانيا فيليب الثاني كانت الفئة العليا من النبلاء لا يتجاوز عدد أفرادها الخمسمئة نسمة ، فيما كان عدد أفراد مختلف فئات النبلاء يقارب نصف مليون نسمة . وهذا يعني أن بين هؤلاء النبلاء عدد من الفقراء والبائسين الذين كانوا يسعون إلى العيش على صورة نبلاء من دون حيازتهم الوسائل المادية التي تتيح لهم أن يكونوا نبلاء فعليين . وقد حدث أن بعض المدن منعت أمثال هؤلاء النبلاء من دخولها . لكن الأوضاع العامة السائدة آنذاك كانت تبيح لعموم النبلاء الحق في حيازة نصف المراكز الإدارية في بلديات القرى المجاورة . بالطبع لم يكن المجتمع يخلو في تلك الحقبة من صراع طبقات كانت مأساوية أحياناً ، لكن الصراعات والثورات من توسكانا إلى ميلانو ومن جنوى إلى البندقية . . . آلت كلها إلى انتصار النبلاء .

1 ـ خيانة البرجوازية

كانت البرجوازية المرتبطة وراثياً ، منذ القرن السادس عشر ، بخدمة الملك ، تعيش دائماً على حافة الضياع . فهي ما أن كانت تغتني حتى تمل صدف الحياة التجارية

وتتجه نحو الأعمال التي توفر لها الريوع وشراء الأرض وحيازة ألقاب النبالة . ذلك لأن نمط عيش النبلاء بكسله واسترخائه وفخامته ، كان يستهويها على نحو دائم . لذا مالت في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى شراء الأرض والعيش في كنف القيم التي تنجم عن اقتنائها . وليس من المبالغة في شيء الحديث عن إفلاس البرجوازية وخيانتها حتى في قلب المدن الإيطالية التي شهدت النهضة الحديثة . أما في إسبانيا فقد كان العمل اليدوي والتجارة محتقرين ومن نصيب اليهود ، كما كانت التجارة البسيطة من نصيب المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية بعد سقوط غرناطة في سنة 1492 ، فيما كانت الفئات العليا من التجار تضم كثرة من اليهود معتنقي المسيحية . صحيح أنه كان هنالك أسبانيون بين كبار التجار ، لكن البرجوازية كانت محاصرة بالنبلاء من الجهات كلها . أما الوضع في إيطاليا فكان شديد التعقيد . فالبرجوازية الفلورنسية كانت برجوازية مثقفة نشأت في ظل التطابق بين النهضة الثقافية والفنية والتطور الإجتماعي من التجارة إلى الصناعة إلى البنوك ، الأمر الذي يشير إلى قيام نظام برجوازي متكامل . لكن شيئاً فشيئاً بدأ البرجوازيون يتحولون إلى نبلاء ، فكان إصرارهم على شراء الأرض مقدمة لشرائهم الألقاب النبيلة التي أتاحت لهم الانخراط في النظام الإقطاعي الذي لم يستبعدهم بل استوعبهم . فالبرجوازية ، بهذا المعنى ، خانت نفسها بنفسها خيانة لا واعية ، لأنها لم تكن تعي نفسها كطبقة برجوازية ، بقدر ما كانت تطمح للوصول إلى صفوف الارستقراطية . لذا لم يفوّت أمير ولا دولة في القرن السادس عشر فرصة بيع ألقاب النبالة وشرائها . فعصر العملة المزيفة كان أيضاً بالقدر نفسه عصر النبالة المزيفة . هكذا لم يولّد القرن المذكور طبقة برجوازية ، بل ولّد فئات جديدة قدمت مساهمتها في النظام القائم .

من هذه الزاوية ، وعلى عكس ما هو شائع ، ليس من تضاد بين الواقع العثماني والواقع الأوروبي . فتعدد الحلول للمشكلات والأزمات التي تعيشها مجتمعات زراعية ودول أولية غير مكتملة لم يكن متوافراً . وفي المجتمع العثماني يمكن الحديث عن أربع فئات متعاقبة زمنياً من النبلاء ، كانت الأخيرة منها أكثرها فساداً وطغياناً وتخريباً لأجهزة الدولة ، بعد أن ساد سلطانها في نهاية القرن السادس عشر . أما أولى هذه الفئات فكانت تلك التي نهضت في الأناضول عشية الإنتصارات العثمانية وغداتها . إنها فئة إقطاعية وعبودية في آن وكانت تمتلك حرية واضحة حيال السلطان حين كانت الأرض تباع وتشترى من دون مراقبة الدولة . أما ملكيات الوقف التي كانت تشرف عليها مؤسسات خيرية وتديرها ، فغالباً ما كانت تستثمرها وتشرف على إدارتها فئات عائلية تتوارث المناصب والمواقع في تلك المؤسسات . الفئة الثالثة برزت في مطلع القرن

الخامس عشر في أرجاء الامبراطورية العثمانية كلها ، خصوصاً في بلاد البلقان حيث كان الفتح العثماني كناية عن تحريرٍ للفلاحين . لكن ذلك لم يحل لاحقاً دون تشكل فئة عليا من النبلاء الذين كانوا يتقاضون رواتب مرتفعة وفرت لهم حيازة ملكيات كبيرة جداً تحت ستار مؤسسات الوقف ، الأمر الذي حمل محمد الفاتح على مصادرة هذه الملكيات ، وحمل سليمان القانوني على حصر تعيين كبار الموظفين باسطمبول وحدها ، من دون أن تحول هذه الإجراءات دون توسع الملكيات الكبيرة . الفئة الرابعة برزت مع توسع الملكيات الكبيرة وبلوغه حده الأقصى في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر . وقد حمل توقف الفتوحات التركية النبلاء على استغلال الفلاحين لمراكمة ثرواتهم ، ثم ما لبثت الدولة أن أقامت نظام الإلتزام في تحصيل الضرائب بالتزامن مع التضخم النقدي وارتفاع الأسعار وقيام النبلاء بنهب أموالها . وكان من نتائج ما تقدم بروز أرستقراطية جديدة استتبعت صغار النبلاء ثم همشتهم . أما البرجوازية المدينية التجارية فغالباً ما كانت من الفئات غير الإسلامية وإما من اليهود الذين طردوا من إسبانيا ومن منافسيهم الأرمن في القرن السابع عشر . وهذا ما أرغم الدولة على أن تصبح رهينة في أيدي شبكة من كبار الممولين اليهود والأرمن .

2 ـ البؤس والعصابات

يختلف المتوسط عن الشمال الأوروبي في أن الحروب التي وقعت في هذا الأخير والمسماة حروباً دينية كانت كناية عن سلسلة من الثورات الاجتماعية المتعاقبة ، في حين أن المتوسط لم يعرف ثورة اجتماعية فعلية واحدة غيرت الأنظمة القائمة فيه . فالإضطرابات التي كانت تحصل في أنحاء المتوسط في كل سنة وكل يوم ، بسبب تكرارها وازدياد عددها ، لم تعد تثير انتباه أحدٍ ولا اهتمامه . هذا فضلاً عن أن الأحداث الهامة ظلت غامضة ولا نعرف عنها شيئاً . وإذا ما أمعنا النظر في ركام العصيانات والتمردات والحروب التي حصلت في مدن عدة ، خصوصاً في المدن الإيطالية ، فسوف تختلط أمام أبصارنا الحروب الدينية بحروب الفقراء وانتفاضاتهم بأفعال السرقة وارتكاب الجرائم وغارات العصابات . . . فهل يمكن ، إذن ، إنتشال هذه الاضطرابات التي لا يمكن عدّها وإحصاءها من ركام الأخبار الضائعة والمبهمة ومن غبار الحوادث المشتتة ، وإدراجها في سلكة تاريخ اجتماعي واضح ومقبول ؟ لا بد من أن نعتقد في إمكانية القيام بمثل هذا الأمر ، بدليل أن النظرة الأولى السريعة التي ترينا الفوضى وعدم الانسجام في سلسلة هذه الأحداث ، سوف تنجلي عن انتظام يلابسها ويقيم التراسل والانسجام بين بعضها والبعض الآخر . فحيث لم يكن الحديث يجري إلا عن مجرمين ضالين حلت عليهم لعنة الله ، وحيث كانت السرقة تعم في مدن ابتداءً من ساعات الليل الأولى ،

كان مسرح الحياة الإجتماعية ، من وجهٍ آخر ، نهباً لصراعات وحروب اجتماعية لا نهاية لها ولا حصر ولا عد ، على الرغم من رخصها وفظاعتها ومن الفوضى التي تلابسها ، كانت تصدر عن أهواء وتناقضات شديدة العمق . لكن هل نسمي هذا كله صراع طبقات ؟ ! في الحقيقة يمكننا أن نطلق عليه هذه التسمية إذا ما قمنا بضرب من الصفح عن الثأر والكذب والعدالة المزيفة التي كانت تلابس هذه الصراعات وتغذيها . أما إذا كان المقصود بصراع الطبقات أن يعي المتصارعون الحقيقة الطبقية لما يقومون به ، فإن حال تلك الصراعات لن يكون واضحاً على هذا النحو إلا لمؤرخ يتأملها بعيني القرن العشرين ومفاهيمه . وإلا ما معنى أن يكون النصف الأول من القرن السادس عشر نهباً للإضطرابات والانتفاضات المتلاحقة ، فيما تراجعت هذه الأخيرة وخمدت حدتها في النصف الثاني من القرن نفسه ، من دون أن ينجم عن ذلك تغيرات إجتماعية واضحة أو فعلية . إنها ثورات وانتفاضات كانت تنفجر آنياً وموضعياً ثم تخمد وتتراجع ، من دون أن يكون المستهدف منها أصحاب الامتيازات وحدهم ، بل الدولة ، صديقة الكبار وجامعة الضرائب من غير رحمة ولا هوادة .

وفي ظل غياب انفجارات اجتماعية شاملة يبرز شكل صامت من البؤس ينجم عنه تكاثر الفقراء والمشردين والتائهين وقطاع الطرق والمتسولين والمجانين والمتبطلين . والأضواء التي يسلطها التاريخ على هؤلاء نادرة ، بحيث لا يمكن الفصل بين قسوة كلٍ من الأغنياء وأصحاب السلطان وبين ظاهرة الإفقار . والسبب الأساسي في ذلك يكمن في تزامن الإزدياد السكاني مع التراجع الإقتصادي وتظافرهما ، الأمر الذي حمل المدن الأوروبية كلها على تنفيذ إجراءات صارمة تتيح لها التخلص من فقرائها ومشرديها ومتبطليها ومتسوليها الذين كانت شوارعها تغص بهم . وقد نجم عن ذلك ما يشبه لعبة الشرطي والسارق التي ظلت تتردد كمشهد دائم بلا بداية ولا نهاية في تلك المدن . ثم ما لبثت مشكلة الفقر هذه أن تجاوزت المدن وانتقلت الى الدول على مستوى أوروبا كلها . فأعمال السلب واللصوصية وقطع الطرق لم تكن جديدة على المتوسط ، لكنها توسعت وتفشت وتفاقمت في غضون القرن السادس عشر . وفي كل مكان من المجتمعات المتوسطية انتشر العنف مقنعاً بأوجهٍ سياسية واجتماعية واقتصادية ، في نابولي وفي البندقية ، كما في كل من حلب والاسكندرية . فأعمال النهب وقطع الطرق التي كانت تقوم العصابات بها ، كانت كناية عن عمليات ثأرٍ تستهدف الدول القائمة والحامية للنظام السياسي والاجتماعي السائد . لذا كان السكان يغتبطون بهذه الأعمال الخارجة على القانون ويرون فيها ثأراً لهم من العدالة العرجاء . أما ملجأ رجال العصابات فكان المناطق الحدودية والبعيدة والجبال ، حيث تضعف سلطة الدولة التي غالباً ما كانت تلجأ

إلى مصالحة أولئك الخارجين على قانونها وخداعهم أو حملهم على الانخراط في جيشها . هذا ولم يكن رجال العصابات وقطاع الطرق من أصول فلاحية غير معدومة العلاقة بكل من الأسياد والنبلاء والإقطاعيين فحسب ، بل إن الفئات المتنازعة من هذه الشرائح الأخيرة كانت تجد في رجال العصابات وقطاع الطرق عوناً لها في صراعاتها بعضها مع البعض الآخر وفي صراعاتها مع الدولة . فأبناء العائلات النبيلة الذين أصيبوا بانهيار إقتصادي ، غالباً ما كانوا يشكلون عصب هذه الحروب الاجتماعية المقنعة . لذا كانت العصابات أرستقراطية وشعبية في آن معاً . فهي وليدة البؤس والكثرة السكانية وحياة المدن المنقسمة فئاتها الإجتماعية بين أغنياء لا حدَّ لثرواتهم وفقراء معدمين لا حدَّ لفقرهم . إنه البؤس الذي كان سبباً في عدم تبلور ثورات إجتماعية ، والذي سيصيب على نحوٍ تدريجي الدول والمجتمعات والحضارات كوباء لا رد له . لماذا ؟ ألأن المجتمعات المتوسطية أخفقت في توزيع منتجاتها وثرواتها وفرح العيش فيها ، أم لأن شعوب البحر استهلكت مخزونها واستنفدته ، أم لأن العالم كله والمتوسط معه كان يتجه نحو تأخر وتراجع مذهلين على عتبة القرن السابع عشر ؟؟

الفصل السادس

الحضارات :
فردوس البشر وجحيمهم

الحضارات هي شخصيات المتوسط الأكثر تعقيداً وتناقضاً لامتلاكها خصائص متعارضة : فهي أخوية ليبرالية من وجه أول واستبدادية شرسة من وجه ثانٍ ، فضلاً عن أنها مسالمة ومحاربة في آن معاً ، وتمتلك ثباتاً مذهلاً يلابسه التموج والحركة . ويعود الفضل لمرسل موسى في إظهار الخصائص الحراكية للحضارات ، مهملاً التشديد على استمراريتها وثباتها . فالحضارات في طبقاتها أو أعماقها أو أغوارها السحيقة القدم التي لا قاع لها ، وفي علاقاتها البنيوية والجغرافية ، تمتلك تاريخاً في غاية البطء ، الأمر الذي يتيح لها تجديد وجوه من حياتها الإجتماعية على نحوٍ شبه كامل ، من دون أن يطال التغير أو التجدد خصائص بناها العميقة والسحيقة القدم . كأنها في هذا ، وفيما هي تعبر التواريخ ، تبقى في مكانها وتنتصر على الزمن . وكما تداخِلُ الحركةُ الثباتَ وتلازمهُ ، فإن كلاً منهما(الحركة والثبات) يفسر الآخر ويكمّله . فلنحذر إذن من الذين يدّعون معرفة الأصول والقوانين كلها حذرنا نفسه من الذين ينفون كل تغير واستعارة واقتباس . وفي المتوسط كل شيء كان عرضة للتبادل والانتقال والاستعارة ، من الناس إلى الأفكار إلى أنماط العيش والمعتقدات وأساليب الحب وأشكال السكن والأخلاق والمآكل . . ويكفي في هذا المجال أن نعدد أنواع الخضار والفواكه والأشجار التي انتقلت الى المتوسط من كافة أصقاع العالم ، لتنتقل منه تالياً في اتجاهات شتى . وكثيرة هي أخبار انتقال البشر من مجتمع إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى . فبالآلاف انتقل المسيحيون إلى بلاد الإسلام واعتنقوا الدين الإسلامي الى درجة راحت معها الحكومات تحول دون انتقال أبناء مجتمعاتها ، حتى أنها في القرن السادس عشر جعلت تعمل على استعادة أبنائها الضالين . أما العداء بين الديانتين المسيحية والاسلامية فلم يقف حاجزاً لا يمكن اختراقه ، لأن الناس لا يأبهون بالحدود وبالدول وبعقائدها ، بسبب ضرورات

الملاحة والتجارة وصدف الحروب والخيانات . لكن الحضارات ، على الرغم من هذا التبادل والإختلاط والانتقال والاقتباس ، تبقى منفصلة ومحتفظة بشخصيتها العميقة والثابتة . صحيح أن هنالك مناطق مزيج وخليط كأبواب المشرق التي كانت تتمازج فيها الديانات والأجناس والأخلاق على اختلافها ، على نحو يحملنا على عدم الاعتقاد بثبات الحضارات حين نتأمل في مشاهد الحياة في كل من القسطنطينية وجنوى وبرشلونة والاسكندرية أو نتخيلها . لكننا سوف نكون مخطئين في اعتقادنا أن المتوسط برمتّه أو بحذافيره كان مجالاً للإختلاط والتمازج اللذين لم نكن نجدهما إلا في مرافئه وفي مدنه التجارية التي كلما ابتعدنا عنها نجد أن العناصر المختلفة والمتنوعة التي يقوم عليها التمازج والاختلاط أو يفترضها متمايزة متغايرة ، منفصلة ومعزول واحدها عن الآخر .

يحوي المتوسط ثلاث حضارات هائلة ، ثلاث مجموعات ثقافية ، ثلاث أنماط أساسية في الإعتقاد والتفكير والعيش والأخلاق والمأكل . . . متجسدة في ثلاث شخصيات لا نهاية لأقدارها وكانت دائماً قائمة منذ قرون وقرون ، متجاوزة حدودها وحدود الدول التي لا تشكل إلا لباساً لها . وهذه الحضارات هي الأقدار الوحيدة ذات النفس الطويل والتي يمكن تتبعها من دون انقطاع عبر تقلبات الزمن وأحداث التاريخ المتوسطي .

الحضارة الأولى هي الحضارة الغربية ، وعلى الأصح اللاتينية أو الرومانية . إنها الحضارة الأشد مقاومة بين حضارات المتوسط . فهي ما كانته الأمبراطورية الرومانية بمركزها روما التي ظلت مركز العالم اللاتيني حتى بعد أن صار كاثوليكياً . الحضارة الثانية هي الحضارة العربية ـ الإسلامية . والغرب والإسلام هما كالهر والكلب ، يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والإقتباس . إنهما عدوان متكاملان . الأول ابتكر الصليبية وعاشها ، فيما ابتكر الثاني الجهاد وعاشه . أما الحضارة الثالثة فهي الحضارة اليونانية التي لا تكشف اليوم عن وجهها في وضوحٍ ، بل تحافظ فقط على جوهرها .

وكما يمكن التعرف الحضارات من إشعاعاتها ومن قدرتها على الإقتباس ، يمكن أيضاً التعرّف عليها من ما ترفض اقتباسه . وليس غير الطوباويين من يحلم في ذوبان الحضارات والديانات . فالديانات أكثر ما في الحضارات تفرداً ومقاومة . وأبرز الأمثلة على هذا الأمر هو رفض الكاثوليكية للبروتستانتية ولإصلاحاتها التي عمّت ، في القرن السادس عشر ، الشمال من إنكلترا الى ألمانيا فالبلاد السكندنافية . فالشمال وأوروبا المتوسطية كانا أبداً عاملين وثيقي الصلة ومتفارقين ، ولكلٍ منهما سماؤه وقلبه وروحه . لذا لم تحظ اللوثرية والكالفينية باهتمام العالم اللاتيني الذي ابتدع شيئاً خاصاً به هو ما

نسميه بالإصلاح المعاكس . وهذه الحضارة اليونانية ترفض الانضمام إلى الكنيسة اللاتينية في القرن الخامس عشر ، رغم أن الموت كان يتهددها . وقد تجلى ذلك الرفض مجدداً في القرن التالي حين فضل العالم اليوناني تسليم أمره للأتراك بدل خضوعه للكاثوليكية ، لأن خضوعه لها كان يعني موت الأرثوذوكسية التي وجدت في تسامح الأتراك الديني خلاصاً لها . وهذا ما يفسر « الخيانة » التي كان يتهم الغرب اليونان بها .

وتبقى الحضارات عبر الأزمنة المتعاقبة تحمل سيرة حيزها الخاص الذي يمكن أن تبتعد أطرافها عنه تبدلاً وتغيراً ، ليبقى القلب في البؤرة المركزية منها حياً ثابتاً في الزمان . يغترب الأفراد أو « يخونون » ويعبرون الحدود ، لكن الحضارات تستمر منغرسة ولا يمكن أن تنتقل بحذافيرها من مكان إلى آخر ، الأمر الذي يقيم حدوداً أو فضاءات ثقافية مذهلة في استمرارها وفي استعصائها على الإختلاط والتمازج . وهذا الثبات يجذّر الحضارة في ماضٍ سحيق القدم . فكما لم تبدأ الرومانية مع المسيح فإن الإسلام لم يبدأ مع النبي محمد ، فضلاً عن أن الأرثوذوكسية لم تبدأ بتأسيس القسطنطينية . وحين طرأ تغير يطال الأعماق التي تفترضها الأديان فإن الحضارات تلون قيمها القديمة وتستمر في تشكيل جوهرها . فالحضارة اليونانية التي ولدت في القرن السابع قبل الميلاد وانهزمت في أيام الرومان ، عادت الى النهوض بعد خمسة قرون مع تأسيس القسطنطينية واستمرت حتى القرن التاسع عشر ، أي حتى قيام صليبية جديدة بمساعدة الأرثوذوكس الروس والأوروبيين كان هدفها تحرير بلاد البلقان .

ما يصح في العالم الأرثوذوكسي يصح أيضاً في كل من الشخصيتين الحضاريتين الأخريين : الرومانية والإسلامية . ومما لا شك فيه أن منبت الشخصية الحضارية الإسلامية هو صحراء شبه الجزيرة العربية . لكن مداها أو أفقها هو البلاد التي افتتحها الفرسان العرب بسهولة فائقة . فقلب الاسلام هو الحيز الضيق الممتد بين كل من مكة وبغداد ودمشق والقاهرة ، لكنه أكد نفسه كوريث فعلي للشرق الأوسط وتراثه ، حيث امتد قديماً العالم القرطاجي الذي كان مهيأً لاستقبال حضارةالإسلام أكثر من تهيُّئه لتمثل القانون الروماني . وعلى الرغم من أن الدين يشغل مركز القلب من كل نسق ثقافي ، فإن الحضارة ليست ديناً فحسب . لذا هضم الإسلام ، فضلاً عن تراث النبي إبراهيم ، ثقافات وسلوكات وعاداتٍ تعود إلى أزمنة سحيقة . وكما هي الحضارة الغربية مشتقة ومطعمة أو من الدرجة الثانية ، كذلك هو الإسلام حضارة اشتقاق وتطعيم ومن الدرجة الثانية أيضاً . وربما الحضارة الصينية وحدها حضارة من الدرجة الأولى .

لكن كل واحدة من حضارات المتوسط الثلاث هي في الواقع مجموعة من الحضارات الفرعية التي يجمعها قدر واحد . فالبلقان يتألف من ثلاث مجموعات

ثقافية . وفي إسبانيا يبرز الفرق جلياً بين جنوب وشمال . وفي شمال افريقيا واضح هو الحد الفاصل بين إفريقيا العرب ، أي تونس اليوم ، وبين إفريقيا المغرب الأوسط الجبلي . فافريقيا العرب ، أي تونس ، قائمة على أرض منبسطة تتاجر مدنها ، منذ القرن السادس عشر ، مع الاسكندرية والقسطنطينية وتقيم صلات وثيقة مع لغة المشرق وثقافته . وهذا ما يحمل الكثيرين على تشبيه مدن تونس ، على نقيض مدن المغرب ، بمدن المشرق : القاهرة وبيروت . والجغرافيا هي التي حضرت منذ أزمنة طويلة لإقامة هذا الحد بين إفريقيا العرب وإفريقيا المغرب . وهذا المثال يبرهن أن لكل حضارة حيزها الجغرافي الخاص الذي يفرض عليها خصائصه ويرسم حدودها . إنه حيز يلجم الإنسان الذي يصنعه بنفسه بإتقان ومن غير توقف .

1 ـ تداخل الحضارات وثباتها

تبدو الحضارات في آمادها الطويلة كناية عن واقعاتٍ تاريخية منغرسة بصلابة في حدودها الجغرافية ، لكنها في مدى تاريخي قصيرٍ نسبياً تعيش صراعات عنيفة بعضها ضد البعض الآخر . وها هو ذا المتوسط في القرن السادس عشر حافل بمثل هذه الصراعات : الإسلام المتمثل بالامبراطورية العثمانية سيطر على بلاد البلقان المسيحية الأرثوذوكسية . وإسبانيا الملوك الكاثوليك اجتاحت غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في إسبانيا . وفي المشرق ظلت السيطرة التركية « خارجية » على نحو سيطرة الانكليز على الهند في الأمس القريب . وفي إسبانيا أيضاً قام المسيحيون بسحق المسلمين من دون رحمة . هذان السلوكان يخضعان على نحوٍ أساسي للشروط الديمغرافية : الكثافة السكانية في البلاد المسيحية والفقر الديمغرافي في الأمبراطورية العثمانية .

في القرن السادس عشر بسط العثمانيون سيطرتهم على جهة من المتوسط ، وهي سيطرة شملت معظم المساحة التي كانت تقوم عليها الحضارة البيزنطية . وقد استمرت هذه السيطرة حوالي 500 سنة . وبالرغم من طغيان النزعة القومية الحادة على مؤرخي البلقان ، يمكننا استخلاص تجربة هذه الحقبة الاستعمارية الغنية ، بحيث يمكن التمييز بين منطقتين في البلقان : هنالك أولاً الغرب البلقاني والجنوب اليوناني ، حيث لم تستطع الحضارة الإسلامية من التوغل عميقاً ، فظل اعتناق أهل هذه المناطق للدين الإسلامي شكلياً . والسبب في ذلك هو الطبيعة الجبلية لتلك المناطق ، على المستويين الجغرافي والبشري . وهي طبيعة وقفت ، على نحوٍ دائم ، حاجزاً في وجه الغزوات « التحضيرية » . المنطقة الثانية هي الشرق البلقاني ، حيث تكثر السهول كما في بلاد البلغار . وهنا يصعب ألا نلحظ أثر الحضارة الإسلامية التي نقلها الأتراك في أثناء إقامتهم في تلك المناطق السهلية التي ما تزال تتلون حتى اليوم بألوان آسيوية تبديها

مشبعة بمعالم الشرق في أزقة المدن وأسواقها . لكن شعوب هذه المناطق لم تذب في الامبراطورية العثمانية ، على الرغم من أنها كانت مرغمة على الخضوع لسلطانها وعلى التعايش والحوار معها في سبيل الحفاظ على بقائها واستمرارها ، الأمر الذي أتاح لها (لشعوب الشرق البلقاني) المحافظة على العناصر الأساسية من هويتها : الدين واللغة اللذان شكلا شرط النهضة اللاحقة . فالحضارات الناضجة لا تخضع إلا على نحوٍ شكلي أو برّاني ، ثم لا تلبث أن تعي ذاتها مع هبوب رياح قومية متشددة ، فتنهض لأنَّ التغير لا يطال بناها العميقة .

على الجهة الأخرى من المتوسط وفي القرن نفسه(السادس عشر) جاء سقوط غرناطة في يد الإسبان الكاثوليك تتويجاً لانتصارات كانت قد بدأت تتلاحق منذ القرن الحادي عشر في كلٍ من أراغونا وڤالنسيا والأندلس ، كوجهٍ من وجوه الصراع الديني ، أي الحضاري ، بينَ المسيحية والإسلام . وقد اتخذ هذا الصراع شكلاً استيطانياً ضد شعب « الموريسك » ، أي المسلمين ، من دون أن يكون مثل ذلك الصراع قابلاً للمساومة . فڤالنسيا الإسلامية انتقلت من الاستعمار الاستيطاني إلى استعمار استقلالي في ظل سيطرة الاقطاعيين المسيحيين الذين حوّلوا شعبها ، الموريسك ، إلى جيش من البروليتاريا الفلاحية ، بعد تمزيق نسيج حياته الاجتماعية . وهذا ما حصل في المناطق الإسلامية الأندلسية المتطورة والغنية التي راحت تنهزم في فترات متلاحقة بسبب قلة مدافعها وضعفها السياسي ونزاعاتها الداخلية . أما ما تبقى من الموريسك في المدن التي أصبحت مسيحية فأقاموا في ضواحٍ أو غيتوات تقع على أبواب المدن ، على نحو ما حصل في مدريد . لذا نجد كل ماً يمكن أن يقال في الاستعمار مجسداً في إسبانيا : النهب ، الاعتداء ، القتل ، الاستبداد ، المجازر ، والاضطهاد الديني . . . . ومثل هذا الاستعمار ليس ثمرة تحولات اقتصادية واجتماعية ، بل هو نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية . في كاستيليا وغرناطة أرغمت الدولة المسيحية المنتصرة المسلمين على اعتناق الدين المسيحي . وفي كاتالونا تم طرد المسلمين على نحوٍ شامل . وبعد سقوط غرناطة لم يبق رسمياً مسلمون في إسبانيا ، لأنهم أرغموا كلهم على اعتناق المسيحية . وهذا كله لم يمنع فيليب الثاني من الحكم بالإعدام على حضارة الموريسك بأكملها ، فقام بمنع أهل هذه الحضارة من ارتدائهم أزياءهم وأقفل حماماتهم والبيوت التي كانت تقام فيها احتفالات إسلامية سرية . ذلك فضلاً عن منعه المسلمين من التحدث باللغة العربية . وكانت انتفاضات كلٍ من غرناطة والحمراء من نتائج هذا الإضطهاد الشامل الذي انتهى بالمجازر والسبيِ والأشغال الشاقة بعد مصادرة أملاك المسلمين وطردهم منها وإسكان 12 ألف عائلة فلاحية مسيحية فيها . ولأن هذا كله لم يحل دون تكاثر من تبقى

من الموريسك في إسبانيا ، فقد أمر الملك بإجبار الرجال منهم على الخدمة في البواخر للحؤول دون تناسلهم . والحقد على الموريسك لم يتوقف إلا بعد طردهم نهائياً من إسبانيا كلها بين العام 1609 والعام 1614 ، ويقدر المؤرخون عدد الذين طردوا بـ 300 ألف نسمة .

لم يكن الحقد العنصري مصدر السلوك الإسباني وموجهه ، بل كان الحقد الديني أو الحضاري في أصله . وما يعنينا من أمر هذا السلوك ليس محاكمة إسبانيا في ضوء عواطف راهنة ، ولا معرفة ما إذا كانت إسبانيا محقة في سلوكها ذاك أم غير محقة . هذا في حين أن المؤرخين كلهم يتعاطفون مع الموريسك . لكن علينا أن نتساءل لماذا فعلت إسبانيا ما فعلته بالموريسك ؟ لأن الموريسك واجهوا الحضارة الغربية المفروضة عليهم بالرفض متوسلين المحافظة على دينهم وأزيائهم وروابطهم العاطفية التي كانت تشدهم الى عوالم الإسلام . وفي المقابل كان يستحيل على إسبانيا التعايش مع مركز إسلامي يقوم في قلبها ـ وهذا إعتراف بعجزها ـ فوجدت نفسها في مواجهة خيارين اثنين : إما إقتلاع ذلك المركز من جذوره ، وإما التعايش معه بغية دمجه وهضمه على نحو شامل . وقد تأرجح السلوك الاسباني بين هذين الحدين ، لتختار أخيراً الحد الأكثر جذرية أو راديكالية : إقتلاع الموريسك ونفيهم من المدن أولاً ومن الأرياف ثانياً . لكن ما حصل لم يمحُ أثر الإسلام من إسبانيا التي تشربت كثرة من العناصر الحضارية الإسلامية . ويجدر بنا القول في هذا السياق إن الحروب « الاستعمارية » كلها هي في الأصل صدام بين حضاراتٍ أكثر تطلباً من المجتمعات التي تنتمي اليها ، حضارات تتغذى من الحقد والغضب ولا تعرف الرحمة ، الأمر الذي يتيح للعنف الأعمى الطغيان على كل حس عقلاني . هكذا هو حال الموريسك ، ليس إلا فصلاً من صراع حضاري يستمر قروناً طويلة بين الشرق والغرب اللذين يتبادلان الغنى والفقر ، التفوق والتأخر ، ويتناوبانهما .

حصل الانقلاب الأول لصالح الغرب في عهد الاسكندر المقدوني ، فكانت الهيلينية كأول « أوربة » للشرق الأوسط ومصر استمرت حتى العهد البيزنطي . وفي نهاية عهد الامبراطورية الرومانية إنهار الغرب فورثه الشرق المسلم والبيزنطي ، أي الشرق الذي أخذ يصدّر إزدهاره في إتجاه الغرب المتخلف أو المتأخر . لذا لا يكتمل تاريخ العصر الوسيط الغربي من دون إحصاء الكتب العربية التي قرأها مثقفو القرن الثالث عشر . ولذا ليس غريباً أن نجد مصادر اسلامية في الكوميديا الإلهية التي وضعها دانتي . وفي عهد الصليبيين بدأ انقلاب جديد بالحدوث إبان السيطرة المسيحية على البحر وطرقه التجارية ، فاتخذت رحلات كل من التجار والقناصل ورجال البعثات

العلمية والدينية شكل غزو غربي للشرق . ثم جاء القرن السادس عشر حاملاً معه رياح تفوق الغرب على الإسلام ، جرياً وراء المغامرة والتجارة والأرباح ، في حين كان فيه الأتراك بحاجة إلى حرفيين وحائكين وبحارة وأخصائيين في بناء السفن وصناعة المدافع. وربما كانت الكثافة السكانية في البلاد المسيحية وعدم انفتاحها جيداً على المغامرة الأميركية في أصل توجه أنظار المسيحيين نحو الشرق ، وفي أصل إغراء من كانوا على صلة وثيقة بالشرق بالتخلي عن دينهم ونكرانه . ففي شمال إفريقيا كان الفرار من الحصون الاسبانية ينتشر كالوباء . ومن صقلية غالباً ما كانت السفن تتجه نحو تركيا حاملة مجموعات من المسيحيين المرتدين . ثم ما لبثت العدوى أن وصلت إلى رجال الدين . لذا راجت في سنة 1630 دعوة هدفها عودة الكبوشيين المقيمين في المشرق إلى بلادهم في الغرب ، خشية اعتناقهم الدين الإسلامي .

في الاتجاه المعاكس ، أي من الشرق إلى الغرب ، لم يشهد التاريخ حركة انتقال مشابهة للأولى . ففيما كان الأتراك يشرعون أبواب امبراطوريتهم للغرباء القادمين إلى ديارهم ، على نحوٍ غير مقصود أو لاواع ، كان المسيحيون يغلقون أبواب بلادهم . فاللاتسامح المسيحي ، ابن الكثافة السكّانية ، كان يدفع البشر خارجاً . لذا كان المطرودون من اليهود في العام 1492 ، ومن الموريسك في غضون القرن السادس عشر ، يتجهون إلى ديار الإسلام . وبهؤلاء المطرودين كانت تركيا تستكمل ميلها الى الأخذ بعناصر من التربية الغربية . لكنها ما أن كانت تمتلك واحداً من عوامل التفوق الغربي حتى يستجد عامل آخر . هذا فضلاً عن أن النقل الثقافي شبيه بالتطعيم الذي لا يحالفه النجاح على نحوٍ دائم . إلا أن « الرجل المريض » صمد في وجه الغرب ، وسبب ذلك الصمود كان انقسامات الغرب ، على الرغم من أن القرن السابع عشر كان حافلاً بمشاريع الصليبية الجديدة .

2 ـ قدر اليهود

في خضم الصراع والحوار والتنافس بين هاتين الحضارتين (القائمتين في الشرق وفي الغرب) يبرز اليهود بوصفهم خصماً صغير الحجم ، ولكنه يمتلك إمكانات هائلة وغريبة . فحين كان يضطهد أميرٌ اليهودَ كانوا هم لا يعدمون أميراً آخر يحميهم . وحين كان يخونهم نسق اقتصادي كانوا يسارعون في لجوئهم إلى غيره . وحين كانت تقذف بهم حضارة ما خارج حيزها الجغرافي كانوا لا يعدمون حضارة أخرى تستقبلهم . فاليهودي يمتلك ، عادة ، القدرة على استخدام الضغوطات السياسية والمالية الملتوية التي يحسنها ويجيدها ، أي أنه يتقن استخدام أسلحة الضعفاء : الاستكانة والخضوع والحيلة ، فضلاً عن الشجاعة والبطولة . وهو يمتلك أيضاً قدرة عجيبة على التأقلم حيثما حلَّ

وأقـام ، من دون أن يتخلى عـما يسميه علماء الاجتماع والأنثربـولوجيـا « الشخصيـة الأساس » . والعناد والرفض اليائس هذان هما إثنان من العلامات الرئيسية في القدر أو المصير اليهودي .

هنالك قطعاً حضارة يهودية ، ولكنها من الخصوصية إلى حدٍ يعدمنا التعرف على حضارة أو شخصية أصلية فيها . هذا مع العلم أنها تقاوم وتخضع ، ترفض وتقبل ، تشع وتقتبس . إنها تحوي الخصـائص التي تشكل شخصيـة حضاريـة ، ولكنها غـير منغرسة ولا متجذرة ولا تخضع لمعطيات جغرافية ثابتة . وما يدعونا اليه الجسم اليهودي الموزع كبقع زيت على صفحة ميـاه الحضارات العميقـة الغور ، هـو القبول بـوجود حضارات شتاتٍ كثيرة : الأرمن منذ عهد النهضة ، مسيحيو شمال إفريقيا حتى القرن الثالث عشر ، النساطرة في آسيا . . . . إلخ . وهذه الجزر ما أن كانت تتلامس أو تتـلاقي حتى يتغيركـل شيء بالنسبـة لها . لـذا نحت الجـماعـات اليهـوديـة في إسبـانيـا إبـان العصر الوسيط نحو تشكيل ما يشبه أمة طائفية . وفي بولونيا ابتداءً من القرن الخامس عشر أدى تعاظم عدد اليهود وقوة شوكتهم الى تشكيل أمة ودولة يهوديتين . أما حين لم تكن تُتاح لليهود مثل هذه الفرص ، فإن وحداتهم الأولية كانت تتصل من طريق التعليم والمعتقد والانتقال الدائم للكتب ورجال الدين والمشردين والمتسولين . لكن اليهود لا يشكلون عرقاً ، لأن جماعاتهم الموزعة مرتبطة بيولوجياً بالشعوب التي تقيم في كنفها قروناً طويلة . وذلك بفعل تمازج الأعراق ، ولأن الجماعات اليهودية غالباً ما نشأت من اعتناق جماعات محلية للدين اليهودي ، ولم تعش منغلقة على نفسها . ثم إن اليهود لم يعيشوا دائماً على انفـراد ولا حملوا دائماً شـاراتٍ تميزهم ولا سكنـوا دائماً في أحيـاء خـاصـة (الغيتو) ، حتى حين كانوا يرغمون على الإقامة في تلك الأحياء المغلقة عليهم ، لم يكن الأمر يخلو من مخالفات . وفي إسبانيـا كان اليهـود مختلطين بالأرستـوقراطيـة أكثر من اختـلاطهم بالشعب . وفي الأمـبراطوريـة العثمانيـة كـانت كـثرة منهم تمتلك عبيـداً مسيحيين .

لا ، ليست روابط الدم ـ وهذه القوة غير صحيحة ـ هي ما حملت الجماعات اليهودية على البقاء والاستمرار ، بل هو عداء الآخرين لها وعداؤها للآخرين ما أتاحا بقاءها واستمرارها . والمسألة اليهودية ليست مسـألة ديـانة فحسب ، بـل هي نتيجة مجموعة متراصة من المعتقدات والعادات والموروثات . لكن الجماعات اليهودية كانت مرغمة دائماً على الاتصال والحوار مع محيطها ، وأحياناً في ظروف مأساوية ، حين كان ينقلب من حولها مشهد الحضارة المسيطرة . ففي إسبانيا تناوبت على اليهود حضارتان هما المسيحية والإسلامية . وكان شأنهم في إسبانيا شأنهم في هنغاريا إبان القرن السادس

عشر ، أي ورثة حضارات قُدّر لهم نشرها في هذا الاتجاه أو ذاك . لكن وراثتهم هذه لحضارات مختلفة كانت تجعل منهم أحياناً فئات متباينة ومتناقضة ، على نحو ما حصل لهم في البندقية بين العام 1516 والعام 1633 ، حين ظهرت ثلاث جماعات يهودية تقيم كل واحدة منها في غيتو منفصل عن الآخر .

لقد حُكم على اليهود أن يكونوا كبار حرفيي التبادل . فها هم ، حتى ما بعد القرن الثالث عشر ، محترفو نقل الفكر والعلوم العربية إلى الغرب . وفي القرن السادس عشر كانوا نقلة تقنيات وصناعات كثيرة من الغرب إلى الدولة العثمانية التي حملوا إليها فن الطباعة ، بعد أن كانوا ناقلي هذا الفن من ألمانيا إلى كل من البرتغال وإسبانيا . فما كانت مدينة تطرد اليهود منها حتى كانوا يبحثون عن مدينة أخرى يحطون فيها رحالهم . وبحثُهم الدائم عن موطىء قدم لهم نشرهم بالضرورة في كل مكان . لذا أدار اليهود ظهورهم للأرض وزراعتها منذ قرون ليصبحوا ممولين وتجاراً ومرابين وأطباء وحرفيين وحائكين . في الأمبراطورية العثمانية سيطروا على جزء من تجارة المشرق ، وكان لهم فيها دور مالي بارز ، فضلاً عن التزامهم تحصيل الضرائب التي كانت تفرضها على سكانها . وفي ألمانيا كان للممولين اليهود دورهم البارز . وفي البرتغال كانوا أسياد تجارة السكر والتوابل . وفي هولندا كان لهم دورهم في ازدهار أمستردام ، ثم تخطت شباكهم هذه الأخيرة فوصلت إلى أميركا . هذا كله لا يعني أبداً أن اليهود كانوا أغنياء كلهم ، ولا يعني أيضاً أنهم « اخترعوا » الرأسمالية ، بل يعني أنهم أدركوا كيف يتأقلمون مع الجغرافيا والظروف المتحركة للأحوال الاقتصادية . وبفعل توجههم الدائم نحو المناطق النامية للإستفادة من ازدهارها ، كانوا يساهمون في ذلك الازدهار . أما الحقد عليهم والعداء لهم فسببهما أنهم كانوا يشكلون شبكة تجارية هامة في العالم الذي انتشروا في أرجائه كلها .

3 ـ لنفهم إسبانيا

إن العلامة الأساسية في التاريخ اليهودي هي التلازم بين الإضطهادات والمجازر والطرد وبين حركة الظروف وتقلبات الحياة الإقتصادية . فالإجراءات ضدهم كانت تُتخذ في فترات التراجع والأزمات الإقتصادية في الغرب . هذا ما حصل في اسبانيا في فترة التراجع الطويلة إبان حكم الأمراء الكاثوليك . وفي إيطاليا اتخذت في حقهم إجراءات الطرد بين العام 1350 والعام 1450 . لكن على العكس من ذلك كانت أحوال اليهود في أثناء الحقبات الطويلة التي كانت تشهد إزدهاراً ونمواً إقتصاديين ، على نحو ما حدث في القرن السادس عشر الذي كان « قرن التجار اليهود » ، كما يُقال « قرن التجار الجنويين » ، نسبة الى مدينة جنوى الايطالية . فالقدر اليهودي يستحيل

فهمه بمعزل عن سياق التاريخ العالمي وتاريخ الرأسمالية . أما حصرنا تتبع تقلبات قدرهم في المثال الاسباني ، فربما يجعل المسألة أكثر وضوحاً ، شرط عدم إقحام جدالات اليوم وعواطفه وحساسياته في نقاش هذه المسألة ، فضلاً عن تجنب الأخذ بأحكام الأخلاقيين المبسطة التي ترسم خطاً فاصلاً بين الصالح والسيء وبين الخير والشر . إنني أرفض اتهام إسبانيا بالإجرام في حق اليهود ، لأنه ليس من حضارة في التاريخ كله قامت بتفضيل الآخر على نفسها . أقول هذا في الوقت نفسه الذي أقف فيه ، ومهما حصل ، إلى جانب جميع الذي يُسلبون حريتهم وممتلكاتهم وتنتهك أجسامهم وتُحتقر معتقداتهم ، أي إنني أقف الى جانب كل من اليهود والموريسك والبروتستانت في إسبانيا . لكن موقفي هذا ، فضلاً عن أحاسيسي ومشاعري ، لا علاقة لها البتة بحقيقة المشكلة التاريخية المطروحة . فليس عقلانياً ولا مجدياً الحديث عن إسبانيا بوصفها بلداً « توتاليتارياً عنصرياً » في القرن السادس عشر . فما جرى فيها كان يجري في الوقت عينه في كلٍ من فرنسا وألمانيا وإنكلترا والبندقية .

إنها الظروف ، هذه القوة العمياء ، التي تتحمل جزءٍ من مسؤولية ما جرى . فالحضارات تعيش ظروفاً طويلة تكون فيها مرتعاً لحركاتٍ جماهيرية تدفعها جاذبية التاريخ في اتجاه منحدرات لا يملك أحدٌ التأثير فيها ولا يكون أحدٌ مسؤولاً عن سقوطها فيها . ومن أقدار الحضارات أن ترسم « خط القسمة » الذي تحدث عنه ميشال فوكو وأن تخضع للعمل الشاق على الذات . والحضارة الأيبيرية خضعت لذلك العمل الشاق أكثر من غيرها ، بوصفها شكلاً خاصاً من الحضارة الغربية . فبعد أن غمرت واجهتها وأطرافها مياه حضارة غريبة عنها هي حضارة الإسلام ، كان على إسبانيا ، لكي تعود أوروبية من جديد ، أن تصنع من نفسها ، في القرن الخامس عشر ، مسيحية محاربة ومصارعة ، وأن ترسخ « خط القسمة » بينها وبين الديانتين الدخيلتين : الإسلامية واليهودية ، رافضة بذلك أن تكون إفريقيا أو المشرق . ولربما كان عليها أن تبقى جسراً بين إفريقيا وأوروبا ، كما كان قدرها الجغرافي والتاريخي في قرون غابرة ، وكما جاء في أطروحتي عنها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب . ولكن كيف كان يمكنها أن تكون كذلك في الوقت الذي كان فيه الحيز الإسلامي يتعرض لغزو مسيحي إسباني ، وتتعرض هي نفسها (إسبانيا) لغزو أوروبي ؟! ثم لم تلبث الاكتشافات الكبرى أن أقامت حداً نهائياً بينها وبين قدرها المفترض ، واضعة إسبانيا في مركز العالم الحديث ، أي في واجهة غزو أوروبا للعالم كله .

كانت اللحمة القوية التي عاشتها إسبانيا في القرن الخامس عشر لحمة شعب كان الأضعف والأقل لمعاناً وذكاءً وغنىً في مواجهة الحضارة الإسلامية . ثم ما لبث أن تحرر

وأصبح الأقوى في مواجهتها من دون أن يمتلك يقيناً عميقاً بقوته ، فاستمر في الصراع وأقام محاكم التفتيش تحت سطوة خوف ظلامي يتملكه . لذا علينا أن نقبل صاغرين بأن كل حضارة تسير في اتجاه قدرها ، شاءت ذلك أم أبت . وعلينا أن نقر أيضاً أن أقدار الحضارات تتقاطع ، لكن من دون أن يفهم بعضها البعض الآخر . هكذا فيما كانت إسبانيا تسير في اتجاه الوحدة السياسية التي لم يكن في وسعها أن تتصورها إلا على صورة وحدة دينية ، كان بنو إسرائيل يسيرون في اتجاه قدرهم : الشتات . وهو قدر وحدوي أيضاً ، لكن على مستوى العالم كله . أما الشيطان فيظل دائماً الآخر ، الحضارة الأخرى . تقبل الحضارات أن تفصح عن حقيقتها بنفسها ولنفسها ، ولكنها ترفض في المقابل أن يقول الآخر تلك الحقيقة . فقدر اليهود يتمثل في بقائهم نواة صلبة ترفض الذوبان ، أي في بقائهم حضارة أمينة لنفسها . والحضارات كلها هي في آن معاً فردوس البشر وجحيمهم .

4 ـ الإشعاعات الخارجية

يبقى أن نشير إلى إشعاعات الحضارات وعطاءاتها الملازمة أبداً لقوتها وسيطرتها . فواقعة الهبة تنطبق على الأفراد انطباقها على المجتمعات والحضارات . وإن جلب العطاءُ الفقرَ وأفضى إليه على المدى الطويل ، فإنه يبقى (العطاء) امتيازاً وعلامة تفوق ما دام ممكناً . هكذا بقي المتوسط قرناً كاملاً ما بعد كريستوف كولومبس وڤاسكودوغاما مركزاً للعالم ودنيا ساطعة وقوية . والدليل أنه ، بقطبيه المسيحي والإسلامي ، ظل يُربي الآخرين ويلقنهم فن العيش مرسلاً أضواءه بعيداً عن شواطئه . فإسلام شمال إفريقيا بقي يشع فوق الصحراء وصولاً إلى السودان . والإسلام التركي أضاء حيزاً ثقافياً من البلقان حتى أعماق آسيا وصولاً إلى المحيط الهندي . والفن الأمبراطوري العثماني الذي تمثل « السليمانية » (نسبة الى سليمان القانوني ، بانيها) تحفته ، سطع بعيداً مؤكداً تفوق العثمانيين في فن العمارة الذي لم يكن إلا عنصراً في شبكة أكثر إتساعاً وشمولاً . أما إشعاعات الغرب المتوسطي فتبدو أكثر تميزاً ، لأنه سار في إتجاه معاكس للتاريخ لتسطع إشعاعاته في الشمال الأوروبي الذي سيصبح مركز القوة العالمية . فاللاتينية المتوسطية كانت بالنسبة لأوروبا البروتستنتية ما كانه اليونان بالنسبة لروما . وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر إجتازت إشاعات الغرب المتوسطي المحيط الأطلسي فوصلت إلى أميركا . إنها إشعاعات الحضارة المسيحية المتوسطية المسماة ، لتسهيل المسألة ، حضارة الباروك ، لكن هذه الإشعاعات تتجاوز من حيث الكمية والحجم إشعاعات النهضة بنت المدن الإيطالية . وفي إندفاعتها ارتكزت تلك الحضارة على القوة الروحية الهائلة للأمبراطورية الرومانية وعلى القوة الزمنية للأمبراطورية الاسبانية . وعلى نحو ما نتحدث

عن طبقة جيولوجية يمكننا الحديث عن الباروك بوصفه طبقة فنية تنضاف إلى طبقات الفن الروماني والقوطي وفن النهضة . فالفن الباروكي بموضته وأنماطه القائمة على التكلف والتصنع والتقليد والمغالاة والفخامة والإثارة العاطفية ، شع وازدهر فيما كانت النهضة تنهار وتتراجع بانهيارها هذا إيطاليا ، الأمر الذي حوّل روما إلى مدينة أبدية للعالم المسيحي . مدينة شع منها فن جديد اغتذى من دعاية الكنيسة الكاثوليكية وتبشيرها ضد البروتستانتية ، كوسيلة صراع وتعليم قوامها توكيد قداسة مريم العذراء وتصدير صورتها ، فضلاً عن توكيد قيمة القديسين وفعاليتهم . وإذا كانت صور الموت والعذاب والشهداء هي التي طغت على ذلك الفن الجديد وفق أسلوب واقعي ، فلأنه كان يبحث عن التفاصيل المأساوية التي تقنع المؤمنين وتجذبهم وتؤثر فيهم . لذا كان ذلك الفن فناً مسرحياً اغتذى من عيش وتدين متوسطيين . هذا من جهة روما . أما من جهة إسبانيا التي راحت تشع مروراً في فرنسا وصولاً إلى أوروبا المتوسطية ، فإن إشاعاتها نجمت عن قوة شعب وعن قوة امبراطورية هائلة وعن حضارة كانت أشد صفاء من الحضارة الفرنسية . لذا كان على كل فرنسي محترم أن يجيد اللغة الاسبانية ، فيما كانت النساء في فرنسا يلبسن ويتزينَّ على الطريقة الاسبانية . وتأثير إسبانيا لم يقتصر على هذه الأمور وحدها ، بل تعداها الى الأدب والى غيره من مجالات الثقافة والاجتماع ، خصوصاً في النصف الأول من القرن السابع عشر ، أي عهد لويس الثالث عشر .

وعلى الرغم من أن تحديد هوية الباروك تبقى خاضعة للنقاش ، فإن تلك الحضارة ، مهما تعددت ألوانها ، كانت تسطع من قلب البحر الداخلي بفن عيشه وأذواقه ، لتصل بعيداً عن شواطئه ، مؤكدة حضوره وقوته . وهذا دليل على أن المتوسط لم يكن منهكاً في أعقاب النهضة ، على نحو ما يسود الإعتقاد ، بل هو دليل على منعته وقدراته ودوره الأساسي في صياغة العالم الحديث وبنائه ، منذ مطلع القرن السابع عشر .

الفصل السابع

أشكال الحرب

بالرغم من ميلنا إلى عدم تضخيم أهمية تاريخ المعارك ، فإننا لا نستطيع إستبعاد تاريخ الحرب التي لا تكف عن خلخلة حياة البشر وتمزيقها . وفي القرن السادس عشر كانت الحرب تطبع الوتائر والفصول بطابعها ، تفتح أبواب الزمن وتغلقها . أما حين كان دبيبها يخفت ويتلاشى أو يتوقف ، فإن ضغطها لم يكن يحول ويزول ، بل يبقى ماثلاً .

1 ـ الأساطيل والحصون

نستطيع الحديث عن الحروب الكبرى في المتوسط من أبعادٍ ثلاثة : السفن الشراعية القوية والمتطورة ، تطور تقنيات الأسلحة ، والمصاريف الهائلة . كانت السفن الشراعية ذات التكاليف الباهظة والتي كانت تحف بتجميعها وبالتحضيرات اللازمة لانطلاقها صعوبات كثيرة ، كانت هذه السفن تقوم بأعمال القرصنة في فصول الصيف على امتداد الشواطىء . أما الجيوش التي كانت تنقلها هذه السفن ، فلم تكن تستطيع التوغل بعيداً في البلدان المُهَاجَمة ، بسبب ضخامة تلك الجيوش وصعوبة إمدادها وتجميعها ، في القرن السادس عشر . هذا في حين أن القلاع لم يشع تشييدها على نطاق واسع قبل القرن السابع عشر الذي شكلت في إبانه مراكز حماية في البلدان المسيحية ، على نحوٍ كان يعكس عقلية هذه البلدان وذهنيتها ، فيما لم يستخدم العالم الاسلامي مثل هذه القلاع وتلك الحصون . وحين كانت تتوقف الحروب الكبرى كانت تبرز حروب ثانوية . لكن هذه المستويات المختلفة كانت تترابط بعلاقات جدلية .

على مستوى الأسلحة وتقنياتها حصلت سلسلة من الثورات ، فتم الانتقال من استخدام مدافع البرونز إلى استخدام مدافع الحديد . وفي العقود الأولى من القرن

السادس عشر بدأت تتفوق صناعة المدافع الشمالية في كل من ألمانيا وفرنسا ، في أعقاب انهيار مسابك الحديد في مدينتي دل كمبو وميلانو ، وفي أعقاب ظهور السفن المجهزة بالمدافع في مدينة البندقية عام 1550 . هذه العوامل جميعاً آلت إلى انتصار إيطاليا على الأتراك في معركة ليبانت . لكن هذه التجهيزات العسكرية المستحدثة ما لبثت أن انتقلت إلى العثمانيين في نهاية القرن السادس عشر ، فشاع استخدامها لحماية السواحل من القسطنطينية الى الاسكندرية . هكذا كانت الأسلحة المتقدمة تعبر المتوسط من شاطىء إلى آخر ، على الرغم من تفوق البلاد المسيحية في صناعة تلك الأسلحة وفي ابتكارها ، الأمر الذي كان يحد من النتائج السياسية الناجمة عن هذه الإختراعات .

البعد الثالث المتصل بالمصاريف التي كانت تتطلبها صناعة الأسلحة ، كان له دوره البارز في تحديد ساعة اختيار الحرب وساعة إيقافها . ومثل هذا الاختيار كان امتيازاً في يد الأقوياء ، من دون أن ينفي امتلاك هذا الامتياز حصول مفاجآت كثيرة . ولأن الحرب في المتوسط كانت باهظة النفقات والتكاليف ، فقد أدت إلى إفلاس خزينة كل من اسبانيا وتركيا . فالأساطيل كانت « مدناً » حقيقية تلتهم المدخرات والمؤن . ومع ازدياد حجم السلاح البحري المتوسطي أضعافاً ثلاثة بين العام 1534 والعام 1573 ، أصبح عدد السفن المتوسطية يتراوح بين 500 و600 سفينة ، كانت صيانة الواحدة منها لمدة سنة واحدة تتجاوز كلفة بنائها . أما عدد الجنود والبحارة فكان يتجاوز الـ 200 ألف رجل . فالحرب ، إذن ، آلة لاستهلاك المال والرجال . وهذا ما كان يحمل الدول على فرض التجنيد الإجباري الذي لم يكن يطال غير الفقراء .

2 ـ الحضارات والحرب

فضلاً عن حروبها « الخارجية » بعضها ضد البعض الآخر ، تستهلك الحضارات نفسها ، من وجهٍ آخر ، في حروب أهلية « داخلية » لا تنتهي . هذا التمييز يحظى بأهمية كبرى على صعيدي عالم الإسلام وعالم المسيحية بحدودهما البرية والبحرية المعروفة وعلى صعيد تسلسل الأحداث المنظم بينهما . ففي مقابل الجهاد الإسلامي هنالك الصليبية المسيحية . والحروب الخارجية بين المسيحية والاسلام كانت تعقبها دائماً حروب داخلية . بين العام 1570 والعام 1575 فرضت الصليبية مناخها في كل من إسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الشمال ، بالرغم من أن هذه الأخيرة كانت على عتبة اعتناق البروتستانتية ، فجعل لوثر نفسه يدعو إلى الحرب ضد أسياد القسطنطينية . وفي معركة ليبانت ابتهجت بريطانيا لهزيمة الأتراك في وجه إيطاليا ، على الرغم من كسوف عهد الصليبية ، بسبب ردة الفعل الكاثوليكية ضد الإصلاح وتغير اتجاه العواطف الدينية ، وهو التغير الذي برز واضحاً في روما إبان عهد الحبر الأعظم غريغوار الثاني (1572 ـ

1585) المعادي للبروتستانتية . وفيليب الثاني ، بمباركة البابا وتشجيعه ، كان يجدد معاهدات الهدنة مع الأتراك ليتفرغ للصراع ضد إنكلترا . لكن الصليبية ما لبثت أن استعادت بريقها بين تراجع الحروب ضد البروتستانتية في بدايات القرن السابع عشر وبين تجدد إنفجار الحروب « الداخلية » في العام 1618 . على هذا النحو كانت العواطف الصليبية تسبق الحروب الخارجية وتعقبها وتغذيها .

على الجهة الأخرى من المتوسط كان الإسلام يعيش أطواراً مشابهة وفي حقبات متزامنة . فحين كانت المسيحية تستنكف عن الحرب كان الأتراك بدورهم يستنكفون عنها ويتجهون نحو هنغاريا أو نحو البحر الأحمر أو نحو الهند . هكذا كان التاريخ المتوسطي يجري وفق الوتائر والتغيرات والتقلبات نفسها . أما المعادلات الجبرية للشغف الديني المتلاطم فكانت تصدر عن النبض البطيء للظروف المادية نفسها في العالم كله ، الذي كان يتجه نحو حياة واحدة في القرن السادس عشر .

إذا ما استعدنا فصول الحروب بين الأتراك المسلمين وأوروبا المسيحية لوجدنا أن الخطوط الدفاعية كانت سياسة مسيحية غريزية لم يتبعها الأتراك ولا الجزائريون . فالدول المسيحية أقامت بوجه الإسلام سلسلة من الجبهات المحصنة ، على الرغم من أنها كانت تعي تفوقها التقني عليه . فعلى التخوم الشرقية للبحر الغربي أقامت مملكة البندقية سلسلة من الحصون ونقاط المراقبة ، من البانيا حتى الجزر الأيونية وصولاً إلى كاندي وقبرص . وقد كان صمود هذه الحصون في وجه الأتراك كناية عن مفارقة عجيبة ، ذلك لأنها لم تصمد إلا بسبب ضعفها واختراقها من قبل الأتراك . أي أن الخروق التي أتاحت للأتراك التوغل في المتوسط المسيحي ، هي التي حملتهم على الإستنكاف عن تدمير سلسلة الحصون والإجهاز عليها ، الأمر الذي أتاح لهذه الأخيرة البقاء والاستمرار . لكن ضعف هذه الحصون لن يمنعنا من ملاحظة قيام السكان الحدوديين بصيانتها وبالدفاع عنها ، فضلاً عن فاعلية مدارس التمرين على استخدام المدافع في حمايتها .

أما في شمال البلقان فقد شكل نهر الدانوب حداً قوياً وهشاً في وجه الأتراك الذين تخطوه وسيطروا على الأرياف الدانوبية ، من دون أن يتوغلوا في المناطق الجبلية . لذا نشأت على الحدود الألمانية بين ساف وداف مؤسسات عسكرية تلقائية في عهد شارلكان وفرديناند ، مشكلة سوراً وقائياً لحماية النمسا التي توحدت في مواجهة الخطر التركي الخارجي . وبعد ثبات هذه الحدود الدفاعية على الدانوب شكل الفلاحون الصربيون الهاربون من الأتراك تنظيمات عائلية ديمقراطية جعلت تتقاسم المهمات العسكرية والاقتصادية . أما ما سمح لتلك الحدود بالثبات فكانت فترات السلام الطويلة ، الأمر

الذي سهل تنظيم المقاومة في هنغاريا التي احتل الأتـراك القسم الأكبر منهـا . هكذا استمرت إقامة الأبراج والقلاع والأسوار على الدانوب، منذ الهجوم على ڤيينا في العام 1529 وحتى العام 1566 .

على الجبهة البحرية الايطالية في مواجهة الخطر التركي كانت تقوم في وسط البحر المتوسط حدود طبيعية تمتد من سواحل مملكة نابولي وجزيرة صقلية وصولاً إلى مالطة . وكانت وظيفة هذه المواقع الايطالية تأمين القواعد العسكرية للأساطيل الإسبانية . وفي هذه الجبهة شكلت مسينا الموقع الأساسي للغرب المسيحي ، من دون أن تمنع قوة هذا الموقع الأتراكَ من إختراق مضيق مسينا إبان تفوقهم العسكري . لذا بدأت كـل من نابولي وصقلية بترميم التحصينات والأبراج والقلاع وببنائها من بداية القرن السادس عشر وحتى مشارف الربع الأخير منه . ولم يتخطَّ الأسطول العثماني هذا الخط الدفاعي الممتد من نابولي إلى مالطة وصولاً إلى حدود شمال إفريقيا ، ليس بسبب قدرة الدفاعات على الصمود ، بل بسبب استنكاف الأتراك ، كعادتهم ، عن تقويضها وتـدميرهـا . فحين كان الأتراك يريدون الاتجاه نحو شمال إفريقيا لم يكن شيء يمنعهم ، لأن الأسبان كانوا قد توقفوا عن استكمال بناء التحصينات التي شرعوا ببنائها هناك في عهد فرديناند بين العام 1509 والعام 1511 ، من دون أن يسيطروا على الداخل المغربي ، بفعل اتجاههم نحو إيطاليا وثرواتها . هذا ما دفع بقوى محلية في مدينة الجزائر إلى السيطرة على المغرب الأوسط ، وحملها على وضع نفسها في حماية السلطان العثماني ، الأمر الذي شجع شارلكان الإسباني على اعتماد الحكمة بدل اعتماده على المغامرة في هجماتـه على شـمال إفريقيا ، من دون أن تؤول الحكمة إلى الحؤول دون كوارث عسكرية إسبانية في جربا بتونس . أما الجهد الإسباني الهائل الذي بُذِلَ بين العام 1560 والعام 1570 في سبيل تحصين شمال إفريقيا ، فلم يحل دون سيطرة الأتراك على تونس في العام 1574 . لذا قامت في العام 1576 السفن الحربية لكل من نابولي وصقلية ومالطة بهجوم « تأديبي » على الساحل التونسي ، أدى إلى إحراقه وإفراغه من السكان ، بعد نهبه ، من دون أن تلقى صرخات النجدة التي أطلقها سكانه آذاناً صاغية في القسطنطينية . هذه الواقعة أوحت للاسبانيين باعتماد استراتيجيـة جديـدة : القيام بـالهجوم ، بـدل انتظار سفن الأتراك المهاجمة في مضيق مسينا . يدل هذا الأمر على أن التفوق التقني المسيحي الذي سمـح بإقـامة التحصينـات والاحتماء خلفهـا ، لم يحل مشكـلات المسيحيين كلهـا ، خصوصاً في شمال إفريقيا ، حيث كان من المستحيل أن يعيش المحتلون الاسبان على تربية المواشي ، بسبب الجفاف ، كما عاشـوا في أميركـا . وقد حـال هذا دون إقـامة مستوطنات إسبانية في شمال إفريقيا ، كما فكر فرديناند الكاثوليكي وشارلكان من بعده .

وليس الجفاف وحده ما حال دون إقامة المستوطنات هنالك ، بل أيضاً ضعف العنصر البشري الاسباني الذي كان منجذباً إلى أميركا . أما الحاميات المسيحية التي كانت تتمركز على الشواطىء الافريقية فكانت تعاني من أحوالٍ سيئة على صعيد المؤن والتنظيم ، الأمر الذي حمل كثرة من جنودها الذين كانوا في معظمهم من الأسرى والسجناء ، على الهرب إلى بلاد الإسلام . لكن هذه المسألة ، هي في الأصل ، بعد من أبعاد السيكولوجية المسيحية الكاثوليكية الدفاعية المتبعة في الحرب .

إنه مشهد البلاد المسيحية التي كانت تحيط نفسها بالحصون والأسوار في وجه الإسلام الإخصائي في الحروب الهجومية من دون اهتمامه بالتحصن والدفاع ، الأمر الذي يبديه وكأنه معلق في الهواء ينتظر اللحظة المؤاتية للإنقضاض على خصومه . أليس من المنطقي ، إذن ، أن تعتمد البلاد المسيحية استراتيجية إقامة التحصينات والقلاع والحصون والدفاع عن نفسها في مواجهة الاسلام ، خصوصاً بعد انتصاراته السهلة في بلاد البلقان وفي القسطنطينية ؟

لقد كانت هذه الحروب شكلاً يائساً من أشكال بحث الإسلام عن الإتصال بالغرب ، ولو عن طريق القوة ، ذلك لأنه كان يبحث عن المشاركة في التقنيات المتقدمة للبلدان المسيحية ، التي بدونها لما قُدّر له أن يلعب اللعبة نفسها مع الفرس في إيران . ألم يكن الإسلام يبني السفن مستفيداً من التقنيات الغربية من جهة ، فيما هو يبني الحصون والقلاع في مواجهة الفرس من جهة أخرى ؟ إن كل واحدٍ غني نسبةً إلى آخر أفقر منه .

3 ـ القرصنة والجزائر

ما إن كانت تنتهي حروب الأساطيل والجيوش والحضارات حتى كانت تبرز أشكال أخرى من العدوان وتزدهر . فنهاية الحروب الخارجية كانت تعني نهاية السلام الداخلي وبداية الاضطرابات وتزايد قطاع الطرق . ولا تشذ ألمانيا نفسها عن هذه القاعدة . ففي نهاية حروبها مع هنغاريا وإيطاليا والبلاد الواطئة وفرنسا ، أصيبت بضربة قاسمة أتتها من الداخل ، في نهاية القرن السابع عشر . أما في البحر فكانت تزداد عمليات القرصنة ، ليس على سواحل العواصم البحرية الكبرى ، بل على سواحل الأطراف والحدود ، خصوصاً في الجزائر ومالطا وليڤورن . . . إنه تاريخ غامض ومضطرب يحل محل التاريخ الكبير . والقرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط ، لكنها تختلف عنها في الأطلسي ، في أن الأولى لها قواعدها وأعرافها وتقاليدها ، إذ كانت تعقبها مفاوضات بين الدول والمدن التي كانت تقوم بينها ، إلى تبادل القناصل ، صلات

قوامها التواطؤ الذي يشترك فيه الأغنياء والدول إلى جانب الفقراء والتائهين . وعلى الرغم من أن المؤرخين أكثروا من الحديث عن قرصنة إسلامية ، خصوصاً في الجزائر ، فإن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كلها من دون أن تعرف ديناً أو وطناً . فهي مهنة للعيش تتوسل أحياناً الدين كذريعة حملها المؤرخون على محمل الجد فأتت استنتاجاتهم متسرعة .

كانت القرصنة شكلاً من أشكال الحرب ضد المدن والقرى لاقتناص الأسرى وقطعان الماشية والثروات لتعتاش منها كل من الدول والمدن . وهي ، أي القرصنة ، لم تكن نشاطاً فردياً ، بل نشاط جماعات واسعة وشبكات تشترك المدن والدول في تنظيمها ، الأمر الذي يؤكد أنها كانت من طبيعة ذلك الوقت ومن مزاياه ، حتى عهد لويس الرابع عشر . فمدينة الجزائر البعيدة عن مركز الدولة العثمانية ، فضلاً عن ازدهار نشاط شبكات القرصنة فيها ، كانت محط أنظار السفن المسيحية التي كانت تشتري منها الأسرى والسلع ، مما أتاح للبعض من سكانها أن يغتنوا على « الطريقة الأميركية » . فأولدج علي الذي كان صياداً صغيراً أصبح ملكاً على مدينة الجزائر ، قبل أن يذهل العالم بقيامه في إصلاح الأسطول السلطاني للعثمانيين . وفي الجهة الأخرى من البحر كانت مالطة مركزاً للقرصنة وشبكاتها على نحو ما كانت الجزائر . هكذا كانت القرصنة ، بتقلباتها وبمناطق إزدهارها ، تعكس بوضوح الحركات الكبرى للحياة المتوسطية . ففي أعقاب سقوط رودوس بيد الأتراك في العام 1522 إزدهرت القرصنة الإسلامية انطلاقاً من شمال إفريقيا ، ثم نمت على نحو واسع بعد معركة بريڤيسا وبعد سيطرة الاسلام على المتوسط في العام 1538 . أما بعد معركة ليبانت التي آذنت بانتصار المسيحية في العام 1580 ، فقد توسع نشاط القرصنة المسيحية إلى جانب قرينتها الإسلامية ، وذلك بالوتيرة نفسها حتى بداية القرن السابع عشر التي حملت القرصنة الجزائرية ، بتقنياتها المتقدمة ، على الانطلاق في اتجاه المحيط الأطلسي . هذا فيما أتاح انتصار المسيحيين في ليبانت توغل قرصنتهم في المشرق ، أي في طريق الحج والتوابل والحرير والخشب والأرز والقمح والسكر البحرية ، وهي الطريق التي كانت تمتد بين رودوس والإسكندرية . وقد كان المالطيون أسياد هذه القرصنة قبل أن ينازعهم على سيادتها قراصنة توسكانا ويتفوقون عليهم . هكذا انفتحت أبواب المشرق على مصراعيها للنهب والقرصنة في منتصف السبعينات من القر السادس عشر ، فاشترك المالطيون والصقالبة (نسبة إلى صقلية) والنابوليون (نسبة إلى نابولي) جنباً إلى جنب في نهب السفن الإسلامية وإغراقها وأسر ركابها . إنها حقبة ضعف الإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها البحرية .

في الجهة الأخرى من البحر هيأت القرصنة حقبتين من الأزدهار لمدينة الجزائر . فبين العام 1560 والعام 1570 إجتاح قراصنة الجزائر حوض المتوسط الغربي كله ووصلوا إلى الأدرياتيك وإلى الشواطىء الأطلسية للأندلس ، حيث أسروا 50 سفينة في مضيق جبل طارق في حزيران من العام 1566 . وقد أدت جرأة أولئك القراصنة إلى أن تعيش كل من صقلية وجزر البليار في ما يشبه حالة حصار ، لدرجة الحديث عن توقف الملاحة في حوض المتوسط الغربي في العامين 1563 1564 . أما الحقبة الثانية من إزدهار الجزائر فكانت بين العام 1580 والعام 1620 . في هذه الحقبة آل تضخم الثروة التي جنتها الجزائر في الحقبة الأولى إلى قيامها بتطوير سفن القرصنة التي جعلت تصل إلى مرسيليا والبندقية ، فكان من بين أسرى قرصنتها في العام 1579 ، حوالي 62 كاهناً مسيحياً . وكان من بين أسباب ازدهار أعمال القرصنة وتوسعها على هذا النحو سببان إثنان : الوفرة الإقتصادية المتوسطية التي استمرت حتى ما بعد منتصف القرن السابع عشر ، وانحطاط الدول الكبرى ووهنها . فعلى نحو ما كانت تضعف سيطرة الأتراك في الحوض الشرقي ، كانت تضعف في المقابل سيطرة الاسبان في الحوض الغربي من المتوسط . ومدينة الجزائر بنموها « اللاطبيعي » تغيرت وتبدل واقعها الإجتماعي في حقبات متتالية : انتقلت من مدينة للبربر (1516 ـ 1538) إلى مدينة للأتراك وللمرتدين عن المسيحية ، قبل أن تصير مدينة شبيهة بالمدن الإيطالية بين العام 1560 والعام 1587 . ثم ما لبث كل من الإنكليز والهولنديون أن وصلوا إليها بين العام 1580 والعام 1590 ، حاملين معهم مدافعهم المتطورة التي استفادت منها الجزائر في قرصنتها وزادت من ثروتها ، ليقال أنه كان فيها بين العام 1621 والعام 1627 حوالي 20 ألف أسير من مسيحيي الشمال ومسيحيي المتوسط والأثيوبيين واليابانيين والصينيين . فكل أمة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى ومن المرتدين . وفي بداية القرن السابع عشر أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدَّت فيه شباك قرصنتها حتى سواحل انكلترا وسواحل أسلندا . لقد شكلت ظاهرة عالمية آلت إلى ولادة مؤسسات لاسترجاع الأسرى منها وافتدائهم . وعملية تبادل الأسرى والسلع غيرت جغرافية الأسواق و« التجارة » ، فولدت روابط واتصالات ووسطاء . . . . فقنصل فرنسا تمتع بدور بارز في عمليات تبادل الأسرى بتونس في نهاية القرن السادس عشر . وربما كانت مدينة تونس أهم من مدينة الجزائر في هذا المجال ، لأنها كانت تشكل نقطة تقاطع تجارة التهريب وتبادل الأسرى ، ويمكن تشبيهها بمدينة شنغهاي في القرن العشرين .

إن ما توقف ، إذن ، في سنة 1574 في المتوسط هو الحروب الكبرى ، أي

حروب كلٍ من الدول والحضارات ، التي ما إن انتهت حتى توجه محاربوها وتجارها ورجالها وأحياناً سفنها ، توجهوا جميعاً إلى الحروب الصغيرة التي شكلت القرصنة ووجهها الأبرز . هكذا صار المتوسط مجالاً لأشكال ثانوية من حرب جعلت الحضارات تحرق فيها قواها وثأرها وحقدها . وكما كانت حرب العصابات وقطاع الطرق في البر تستهلك سلفاً الحرب الإجتماعية قبل وقوعها ، كانت القرصنة البحرية تستهلك الجهاد الإسلامي والصليبية المسيحية ، في حقبة لم يعد يهتم فيها بهما غير المجانين والقديسين . ولن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط في نهاية الحروب التي كانت قد اندلعت في كلٍ من الشمال والأطلسي ، في نهاية القرن السادس عشر . لن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط ، لأنه لم يعد قادراً على تحمل أعبائها ونفقاتها . فالحروب الكبرى اتجهت ، بعد معركة ليبانت ، نحو الشمال والأطلسي لتقبع طيلة قرون فيهما ، حيث راح يخفق قلب العالم . هكذا بدأت في العام 1618 حرب الثلاثين سنة بعيداً عن البحر الداخلي الذي لم يعد يخفق بعنف ، لأنه فقد موقعه القديم كقلب للعالم كله .

خاتمة

الحركة القرنية والحقب الطويلة

لا يعني الحديث عن الظروف ، في نهاية فصول خُصصت لجلاء أوجه الحياة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية للمتوسط ، القيام بجردة تختصر هذه الفصول كلها ، بل يعني الشروع في فتح بابٍ يحتمل تفسيرات جديدة . ففي الصفحات السابقة لم ينقطع الحوار بين الحركة وما يقربٍ من الثبات . لكن المشهد يتبدل على نحوٍ كلي حين نترك المسرح للحركة وحدها ، تماماً كما يحصل حين ننتقل من هندسةٍ فراغية إلى هندسة المسطحات . حينئذٍ يبرز أمامنا سرد متصل بحقباته وتخطيطاته وأزماته وتفسيراته ، فيفرض ، مثلاً ، الظرف الإقتصادي نفسه بلغته ودقته ، وكأنه مادية جديدة . وإذاك ينحو التفسير نحو تخيل علاقاتٍ متبادلة بين أنفاس الحياة المادية والتقلبات الأخرى المتنوعة لحياة البشر . لكن ليس هنالك ، في الحقيقة ، ظرف واحد أوحد ، بل ظروف متعددة من الصعب إعادتها إلى وتيرة واحدة . وفي الحياة الإقتصادية حتى ليس هنالك ظرف واحد أوحد ، بل عشرات من الحركات المتفاوتة في المدد التي تستغرقها : هنالك الحركة القرنية (Le mouvement seculaire) ، وهي أطول « الحركات الطويلة » ، وهنالك الظروف الطويلة ، أي الدورة الخمسينية ، على نحو ما حدّدها كوندراتييف ، ثم هنالك أيضاً الدورة المزدوجة ، وغيرها كثرة من الدورات ، وأخيراً هنالك الظروف القصيرة . إذن هنالك لغات متناقضة تبرز في مسار حركة الحياة الإقتصادية ، الأمر الذي يجعل التأريخ لها متعدداً ومربكاً . ولكن لننسى حذرنا وتحفظاتنا محاولين النظر إلى المتوسط في القرن السادس عشر بحسب قواعد كلٍ من « الحركة القرنية » و« الظروف الطويلة » تاركين جانباً الدورات والظروف القصيرة .

1 ـ الحركة القرنية

يبدأ الصعود القرني للحياة الإقتصادية المتوسطية في حوالي العام 1470 ، ويتوقف أو على الأقل يتباطأ مع الإرتفاع الكبير للأسعار بين العام 1590 والعام 1600 . والدليل الأبرز على هذا الإرتفاع كان تبدل أسعار الحبوب . وقد كان ذلك الصعود بطيئاً وعميقاً وعمل على إزدهار الحياة المادية ومنح عافية سرية للاقتصاد ، لأن كل تراجع في المجالات الصناعية والتجارية كانت ترافقه تعويضات في مجالات أخرى . وهذه العافية العميقة لن تختفي بين ليلة وضحاها في نهاية القرن السادس عشر ، بل ستستمر حتى أواسط القرن الذي تلاه . فعلى طريق التراجع وقفت عقبات وحصلت تعويضات ، حتى في المجال الزراعي الذي نحسب أنه كان أول المجالات التي أصابها التراجع . وإذا كنا لا نستطيع الحسم بسهولة في مسائل التفاوت الظرفي بين مختلف أجزاء أوروبا ، فإنني أميل إلى اعتبار الكلام عن تعارض بين ظرفٍ لأوروبا الشمالية وآخر لأوروبا المتوسطية ، من باب التبسيط . وفي مجمل الأحوال علينا أن نتخلص من الفكرة الشائعة والخاطئة التي تتحدث عن انحطاط مبكر للمتوسط . وإذا كنت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد حدّدت بداية الإنحطاط ببداية القرن السابع عشر ، فإنني أعتقد اليوم بضرورة تأخير هذا التاريخ حتى العام 1650 . وإذا كانت الدراسات الإقتصادية تؤكد على هذا التاريخ (1650) بوصفه نهاية لحركة النمو ، فإنه ليس هنالك من توافق بين جميع الاقتصاديين حول تاريخ بدايتها . فالبعض يعيد بدايتها إلى العام 1450 أو العام 1470 ، والبعض الآخر يعيدها إلى العام 1510 . أما بالنسبة لي فتشجعني بعض المؤشرات على اختيار العام 1450 بداية لها ، وعلى اعتبار سنوات الانتعاش الفائضة عن « الحركة القرينة » والممتدة بين العام 1450 والعام 1650 ، من ضمن ما سميته بـ « القرن السادس عشر الطويل » أو الفائض ، الذي أراه تالياً مستقلاً في بداية إزدهاره عن الاندفاعة المعدنية التي سببها اكتشاف أميركا . ووحدة هذين « القرنين » تتطلب بالطبع تفسيرات وشروحات . وكسبب أو كنتيجة هنالك في أثناء هذين « القرنين » صعود ديمغرافي واسع ومتفاوت الاندفاع بحسب المناطق وبحسب السنوات . لكن حركة الإرتفاع القرينة هذه لا تعني ، كما بينا أعلاه ، « إرتفاعاً في مستوى المعيشة » . فالتقدم الإقتصادي كان يحصل دائماً على حساب الجموع البشرية الفقيرة المتعاظمة والتي تزداد فقراً في أثناء « المجازر الاجتماعية » . ومما لا شك فيه أن حركة ارتفاع الأسعار قد ساعدت على قيام الإمبراطوريات والدول الإقليمية ، وشجعت قيام مجتمعات منفتحة على نحوٍ نسبي . لكن التراجع سيؤدي تالياً إلى إنغلاق هذه المجتمعات .

2 ـ الحِقَب الطويلة

يتفق مؤرخو الإقتصاد حول الحِقَب الطويلة التي شكلت السنوات : 1460 ، 1509 ، 1539 ، 1575 ، 1621 ، ذروات جزرها ، فيما شكلت السنوات : 1483 ، 1529 ، 1595 ، 1650 ، ذروات مدها . هكذا تشكلت أربع موجات متتابعة ، إستغرقت الأولى 49 سنة ، والثانية 30 سنة ، والثالثة 36 سنة ، والرابعة 46 سنة . لكن إلى جانب هذا الانتظام الذي رسمته حركتا المد والجزر ، هنالك تفاوت في السرعة بين « القرن السادس عشر الأول » ، قرن الذهب الوفير ، و« القرن السادس عشر الثاني » ، قرن الفضة الوفيرة . هذا فضلاً عن اتساع فترة الركود الوسيطة بين العام 1529 والعام 1575 .

ألهذا السبب قامت رأسماليات متتابعة (متشابهة ومختلفة) ، وبرزت تقلبات في قيمة الأجور ؟ إنني أرى ثلاث مراحل رأسمالية متتابعة في المتوسط ، من دون أن أستطيع ربطها بتغيرات متباينة للأرباح : رأسمالية تجارية قبل العام 1530 ، رأسمالية صناعية في أواسط القرن ، ورأسمالية مالية في نهاية القرن . وكانت الحروب شديدة الخضوع لهذه الترسيمة العامة . فهي كانت تندلع بين العالمين المسيحي والإسلامي في فترات الانحسار الإقتصادي ، فيما تدفع « الموجات » الإقتصادية الصاعدة نحو الحروب الداخلية في كلا العالمين المذكورين . لذا يتطابق أو يتقارب تاريخ إبرام المعاهدات الدبلوماسية الكبيرة (1529 ، 1559 ، 1598) مع ذروات فترات المد الإقتصادي ، فيما تقترب المعارك الإسلامية ـ المسيحية الكبرى (بافيسا 1538 ، ليبانت 1571) من ذروات الجزر الإقتصادي . ولا أقول إن هذه المعادلة مكتملة ودائمة ، ولكنها صحيحة في ما يخص اسبانيا على الأقل . وانطلاقاً من هذا التوافق بين الحروب الخارجية وفترات الجزر الاقتصادي ، والتوافق الآخر بين الحروب الداخلية وفترات المد الإقتصادي ، يمكن الشروع باكتشاف سيكولوجيا وتحليل نفسي للحروب الكبرى . أضف إلى ذلك أن الحركات اللاسامية كلها في البلاد المسيحية تخضع لظروف الحرب مع الخارج . فاضطهاد اليهود حصل دائماً في فترات الانحسار أو الجزر .

لكن هذه التفسيرات الظرفية لا يمكن لها أن تكون كاملة أو جازمة . إنها واحدة من التفسيرات الضرورية والمفيدة . وعلينا تصنيف الظروف الإقتصادية من جهة ، وتصنيف الظروف غير الإقتصادية من جهة أخرى . وهذه الأخيرة يجب قياسها وتحديد موقعها بحسب طول مدتها . هكذا يجب أيضاً ضم الظروف التالية إلى الحركة القرينة : الحركات الديمغرافية العميقة ، حجم الدول والأمبراطوريات ، المجتمع وحراكيته الاجتماعية ، قوة الاندفاعات الصناعية . وفي صف الظروف الطويلة يجب

إدراج : التصنيع ، مالية الدول ، الحروب . . . ومثل هذا التصنيف للظروف يساعدنا على بناء بيت التاريخ . لكن في سبيل ذلك ما يزال ضرورياً القيام بأبحاث كثيرة ، مع أخذ جانب الحيطة والحذر . مثلاً يصعب تصنيف الحركات الطويلة للحضارات وإشعاعاتها . فالنهضة بين العام 1480 والعام 1509 تقع في فترة تراجع دوري . والعصر الذهبي لكلٍ من إسبانيا وتركيا يقع ما بعد الانقلاب القرني . ربما يترك التباطؤ الاقتصادي كميات كبيرة من أموال الأغنياء خارج الاستثمار ، فيولد بذلك العصر الذهبي .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	5
مقدمة المؤلف	19
القسم الأول : حصة المتوسط	
الفصل الأول : الجبال والهضاب والسهول	25
الفصل الثاني : البحار والسواحل والجزر	35
الفصل الثالث : تخوم المتوسط الأكبر	50
الفصل الرابع : الوحدة الفيزيائية ـ المناخية والتاريخ	63
الفصل الخامس : الوحدة البشرية : المدن وشبكة المواصلات	69
القسم الثاني : أقدار جماعية وحياة شاملة	
الفصل الأول : الاقتصادات : قياس القرن	85
الفصل الثاني : الاقتصادات : المعادن الثمينة ، العملات ، والأسعار	100
الفصل الثالث : الاقتصادات : التجارة والنقل	113
الفصل الرابع : صعود الإمبراطوريات وانهيارها	123
الفصل الخامس : المجتمعات وصراعاتها المقنعة	129
الفصل السادس : الحضارات : فردوس البشر وجحيمهم	135
الفصل السابع : أشكال الحرب	147
خاتمة : الحركة القرنية والحِقَب الطويلة	155

1993/1/4

هذا الكتاب

« المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني » هو الأصل لهذا الكتاب الذي تقدم دار المنتخب العربي تقديماً وافياً له باللغة العربية . أراد المؤلف أول الأمر وضع كتابٍ تاريخي يرتبط بحقبة معينة وبمكانٍ معين . لكن الكتاب بعدَ صدوره كان صورة أخرى لإرادة المؤلف . إنه دراسة لواقع مكاني عاش حضاراتٍ متعددة ، وفرض حضارات ، أو لنقل نمطَ حضارة معين . وبذلك لم يعد هذا الكتاب كتاب تاريخ بقدر ما هو على تماسٍ مباشر بقضايا معرفية متعددة تجمع بين التاريخ والأنتروبولوجيا والفلسفة .

إنه كتاب «حضارة المتوسط» . الحضارة التي عرفها هذا الحوض والتي كان هذا البحر مركزاً لها .

الناشر

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع